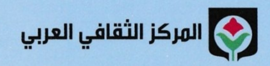
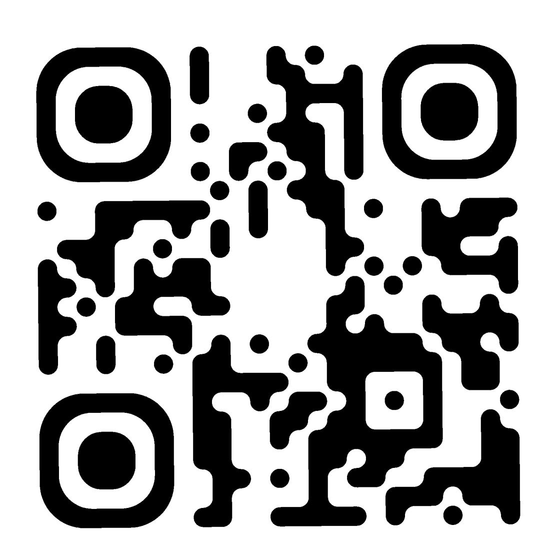
تشارل بيبان

العيش مع ماضينا

فلسفة من أجل الانطلاق إلى الأمام

ترجمة وتقديم
د. مصطفى حجازي





شارل بيبان

العيش مع ماضينا

فلسفة من أجل الانطلاق إلى الأمام

الكتاب

العيش مع ماضينا

تأليف

شارل بيبان

ترجمة

د. مصطفى حجازي

الطبعة

الأولى، 2024

الإيداع القانوني:

2024MO1647

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-78-5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للكتاب:

Charles Pépin

Vivre avec son passé

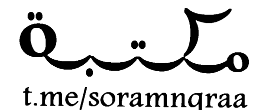
Une philosophie pour aller de l'avant

نُشر بالاتفاق مع

Allary Éditions

وبالتنسيق مع وكيلهم المعتمد

2 Seas Literary Agency



t.me/soramnqraa

شارل بيبان

العيش مع ماضينا

فلسفة من أجل الانطلاق إلى الأمام

ترجمة وتقديم

د. مصطفى حجازي



المركز الثقافي العربي

الفهرست

مقدمة المترجم 9
مقدمة المؤلف 21

الفصل الأول: عبقرية حدس برغسون 27

الفصل الثاني: كل حالات حضور الماضي 37
الذاكرة الظرفية، أو ذكرى ظروف حياتنا 38
الذاكرة الدلالية أو ذاكرة الكلمات والأفكار 45
الذاكرة الإجرائية أو مهارة عازف العود 52
الذاكرتان قصيرتا المدى: الذاكرة العاملة والذاكرة الحسية ... 57

الفصل الثالث: الماضي، باب الولوج إلى الحاضر 63
تربية الحواس 65
الرهافة 68
مادلين بروست 71
قوة اللحظة الراهنة؟ 77

الفصل الرابع: الماضي، قاعدة هويتنا 79
مريض الألزهايمر 80

أنا أتذكّر إذاً أنا موجود 83
صانع الهوية 87
هل هناك أنا خالد؟ 92

الفصل الخامس: إدارة الظهر للماضي 95
موقف «حداثي» 100
الماضي أو الحياة 103
الثمن النفسي للتجنب 107
أثر الدب الأبيض 109
الذاكرة الصدمية 114
الإدمان على الكحول من أجل النسيان 117
العمل من أجل النسيان 118
فضائل الفشل 121
أهناك حبة للنسيان؟ 122
العودة إلى رانس - هل هي تحرر من الماضي؟ 126
تاريخ من العنف - عندما ينبثق الماضي من جديد 131

الفصل السادس: الاستناد إلى ماضينا 137
«التلخيص الإبداعي» لزلاتان إبراهيموفيتش 144
رؤية جديدة للحرية 146
فن حسن الميراث 150
النغم الداخلي لشخصيتنا 153
ميراث الضحايا المؤلم 157

الانطلاقة الحيوية 160
السخاء 164

الفصل السابع: التدخل في ماضينا 169
تغيير قاعدة الحياة الضمنية المرتبطة بالذاكرة 170
إعادة اختراع الرواقية من قبل العلاجات الراهنة 175
العمل على تدخّل شخص وهمي في ذكرياتنا: فنيات
استبدال الوالدية 183
برغسون، وفرويد، وبروست، محامو ما هو غير قابل للنسيان 188
التحليل النفسي الفرويدي، العودة المستفيضة إلى ماضينا 190

الفصل الثامن: الانطلاق إلى الأمام مع ماضينا 199
أن نتذكر الأشياء الجميلة 200
أن نصنع لذاتنا ذكريات جديدة 210
هل نغفر؟ 217
المقدار الجيد من النسيان 222
أن نعيش حالات الحداد 227

استنتاج 245
شكر وتقدير 253



مقدمة المترجم

تتمثل الأطروحة الرئيسة لهذا العمل ذي العنوان غير المألوف كثيراً «ليس في أن نعيش في ماضينا، وإنما في أن نستوعبه بما فيه من إيجابيات وسلبيات وأن نبني عليه في إنجاز حاضرنا والانطلاق لصناعة مستقبلنا». فالماضي ليس مضى وانقضى كما يشيع القول، بل هو جاهز للبروز ثانية في الحاضر من حيث لا ندري. أسس هويتنا وضعت في الماضي من خلال التنشئة والانتماءات المختلفة، وتجارب حياتنا. وفي الماضي وضعت الأسس الأولى لشخصيتنا وميولنا. ومن العبث الادعاء بإمكانية طي صفحته وتجاربه والانغماس في ورشة بناء الحاضر والتطلع نحو المستقبل. إنه يمدّنا بالعزم من خلال خبراتنا الناجحة وإنجازاتنا المميزة، كما أنه المسؤول من خلال خيباته وإحباطاته عن تقييد طاقاتنا الحية وبعض حالات تعثرنا، وعطالتنا. ويتجلى ذلك تحديداً فيما يسمى «العجز المتعلَّم أو المكتسَب»، وهو يختلف عن حالات القصور التكويني. فكيف نستوعب هذا الماضي الذي نحمله فنبني على إنجازاته وإيجابياته، ونعالج معوقاته وسلبياته في العيش المليء في الحاضر، وصناعة المستقبل؟

تلك هي أطروحة هذا الكتاب. ويعرضها المؤلف بشكل مشوق وفائق الغنى من خلال أخذنا في رحلة غنية في كل من الفلسفة والأدب والرواية، والعلوم المعرفية العصبية الرائدة، وبعض فنيات العلاج النفسي لجروحات الماضي وصدماته. فالعيش مع ماضينا يعني استيعابه والاغتناء بدروس خيباته. وهو ما يختلف كلياً عن العيش في الماضي هروباً من الحاضر والمستقبل. كما يختلف كلياً عن الوقوع أسرى صدمات هذا الماضي، كما هي الحال في حالات العصاب النفسي، أو الوقوع ضحية الصدمات التي يعجز الإنسان عن استيعابها؛ باعتبار أن الصدمة من حيث التعريف «هي ما هو عصيٌّ على الاستيعاب» فيظل الإنسان أسيراً لها وعاجزاً عن متابعة المسير إلى الأمام وبناء حاضر ومستقبل. بل هو يقع في التكرار والاجترار اللذين يفسدان عليه حياته ناهيك عن الآلام والمعاناة. كذلك هو حال العصاب النفسي، كما حلله التحليل النفسي بشكل كاشف. فالعصابي يصبح أسير أعراضه النفسية التي تعطل مساره الحياتي الذاتي والعلائقي والمهني حاضراً ومستقبلاً.

ويندرج الحداد المرضي بدوره في الوقوع ضحية الفقدان وعدم التمكن من استيعابه والخروج منه وتحويله إلى ذكرى الفقيد العزيز التي نتعايش معها ونتذكر إيجابياتها، مما يحولها إلى مصدر إغناء للحاضر والمستقبل. بينما العيش مع الماضي يعني على العكس من ذلك استيعابه وعدم إدارة الظهر له، بل الاقتناع بأنه مكون أساس من وجودنا، ونقطة انطلاق لبناء حاضرنا ومستقبلنا. هويتنا لا

تتحدد في الماضي، كما قد يخيل للبعض، ولا في انتماءاتنا وإنجازاتنا وإخفاقاتنا. فالماضي بمثابة الأساس لا يحيط وحده بتحديد هويتنا. فهذه الهوية نحن نصنعها في إنجازاتنا الحاضرة وتطلعاتنا المستقبلية. إنها مشروع بناء مستدام يتمثل بما نصنعه وما سنصيره، بقدر ما تأسسنا عليه. إنها في أمجاد إنجازاتنا الراهنة والمستقبلية بقدر ما هي إنجازات انتماءاتنا الماضية. إنها ليس فقط ما كان عليه السلف، بل ما سنكون عليه نحن ذاتنا آخذين الدروس من هذا السلف، ومتجازينه في إنجازات مشهودة حاضرة ومستقبلية نبني بواسطتها المكانة والدور. وما ينطبق على الحالات الفردية ينطبق هو ذاته على الحالات الجماعية. فلا يكفي لصناعة الهوية العيش على أمجاد الأسلاف بل يتعين تعلم الدروس منها والبناء عليها والقيام بدورنا ببناء مشروع وجود وطني يكفل المكانة والدور ويمثل الهوية الوطنية الفعلية.

يتضمن هذا العمل مادة غنية جداً في علاج أطروحته التي بيَّنا ملامحها في ما تقدم. كما أن موضوعاتها معروضة بأسلوب سلس يبتعد كل البعد عن الكتابة فائقة التخصص، وبحيث لا يجد القارئ غير الاختصاصي أي صعوبة في استيعاب الموضوع المطروح. يُبَسِّط المؤلف المادة الفلسفية أو العلمية بدون التضحية بطابعها ورصانتها. ويعود ذلك إلى إعداده هو ذاته، كما يتضح على صفحة الغلاف. فهو يحمل شهادة الأستاذية في الفلسفة، ويدرّسها في الليسيهات الكبرى في فرنسا، إضافة إلى كونه روائياً، ويتمتع بثقافة واسعة في الموضوعات التي يعالجها. ولذلك تأتي كتابته واضحة

وبعيدة كل البعد عن الغموض والتعقيد. وقد يعود ذلك إضافة إلى عمق استيعابه لموضوعه إلى أنه يحسن تبسيط المادة من ناحية، باعتباره أستاذاً للفلسفة لطلاب نهاية المرحلة الثانوية من ناحية، ولقدراته الروائية من الناحية الثانية، وإكثاره من الأمثلة لتوضيح القضايا التي يطرحها من الناحية الثالثة. إذ هو يمزج في بعض المواضع ما بين الفلسفة والأدب والتحليل النفسي في توليفة مميزة توفر زاداً معرفياً سهل الاستيعاب.

يكفي استعراض سريع لمختلف فصول الكتاب وعناوين كلّ من فصوله الفرعية، كي يتبين لنا غنى المادة المعالجة.

من خلال الرجوع إلى الفيلسوف هنري برغسون، وهو أحد كبار فلاسفة النصف الأول من القرن العشرين، الذي اشتغل على طاقات الحياة وسيكولوجية الهوية الإنسانية والذاكرة، والذي يكن المؤلف له أكبر التقدير، يبين كيف أن الماضي يتمثل أساساً في الذاكرة. وهذه الذاكرة ليست جامدة، بل هي تتشكل وتتطور تبعاً لتجاربنا الحاضرة. ولكيفية النظر إلى مستقبلنا. وبالتالي فالماضي قائم في وجودنا الحاضر وتطلعنا إلى المستقبل. وتلك هي الديمومة تحديداً أي تكامل الماضي والحاضر والمستقبل في حركة وجودية متناغمة ومتفاعلة ومتبادلة التأثير والفعل لتجعلنا «نحن ما نحن عليه».

كما يتوقف في فصل تالٍ حول آخر معطيات العلوم العصبية المعرفية واكتشافاتها المذهلة لعمل الدماغ البشري. وهي أحد العلوم الرائدة من ضمن خماسية الحاسوب، والهندسة الوراثية،

وتقنية النانو والروبوتات والتي سوف تغير وجه الحياة على الكوكب وتطرح السؤال أي بشر سنصير.

تبين العلوم العصبية المعرفية أن الذاكرة ليست ثابتة وهي ليست أحادية. بل يعاد تشكيلها مع كل تجربة جديدة نمر بها نظراً لإعادة التشكيل الدائمة للروابط بين خلايا الدماغ العصبية ذات التسعين ملياراً، والروابط بينها والبالغة مئة تريليون وصلة عصبية.

هناك خمسة أنواع من الذاكرة تتكامل فيما بينها وهي ذاكرة حوادث حياتنا وتسمى الذاكرة الظرفية، والذاكرة الدلالية أو ذاكرة الأفكار والمفاهيم والكلمات، والذاكرة الإجرائية أو ذاكرة عازف الآلة الموسيقية، والذاكرة قصيرة المدى أي ذاكرة الشغل الراهن والذاكرة الحسية. ومن هنا فهي متغيرة ومتحولة. وكذلك هو حال مفهوم ماضينا ولو أننا ندركه بمثابة ذكريات ثابتة.

ويشكل هذا العرض للذاكرة وأحوالها نتيجة لأبحاث العلوم العصبية المعرفية إسهاماً هاماً يُقدَّم للقارئ غير الاختصاصي فيوسع من رؤاه ويقربها من الواقع العلمي الراهن. ويطرح هذا الموضوع مسألة دقة ذكريات الماضي. إذ من المعروف أن الذكرى قابلة للتحريف والتحوير التلقائي وعن غير قصد. فنحن لا ندرك الماضي كما هو واقعياً مادياً، وإنما ندركه تبعاً لتأثرنا بأحداثه من خلال نوع الانفعالات المصاحبة له، والدلالات التي يتخذها بناءً لذلك، أي كيف عشنا هذا الماضي وأي معنى أعطيناه له. فأحداث الماضي لا تُدرَك وتُسجَّل في ذكريات معينة انطلاقاً من طابعها الموضوعي وإنما انطلاقاً من كيف أدركنا أنفسنا ومكانتنا في العالم وتجاه ذاتنا.

كما أن الماضي وذكرياته يعاد تأويلها في كل مرة نسترجعها ووضعية ومناسَبة هذا الاسترجاع. فإذا كنا في حالة انفراج ونجاح وإنجاز فإن ذكريات الماضي ولو كانت مؤلمة تتخذ دلالة إيجابية. أما إذا كنا في حالة ضيق وخيبة أو فشل وانكسار، فسنسبغ على الماضي دلالة سلبية، ونخلص إلى أننا لسنا محظوظين ولطالما كنا كذلك، وأن خيبات ومعاناة الحاضر ما هي إلا استمرار لمعاناة الماضي.

هذا الإدراك المتغير لماضينا ولذكرياته أصبح يُؤخَذ بالاعتبار في المحاكم المتقدمة مهنياً عند تلقي شهادة الشهود. إذ ثبت علمياً أن إدراك واقعة معينة ماضية والإدلاء بالشهادة بصددها لا يتصف حتماً بالموضوعية. بل هو يؤول من خلال المعنى التي اتخذته الواقعة بالنسبة إلى كل من الشهود. ولا نقصد هنا التحريف المقصود بناءً لغاية معينة أو موقف عند الشاهد، والذي يُقرَّر عن عمد، بل ما أسبغه على الوقائع عضوياً من خلال المرور بمصفاته الانفعالية.

ويقودنا ذلك إلى الحديث عن «الذكرى الساترة» التي قال بها فرويد حول رواية المريض، أثناء تحليله النفسي، لبعض رغبات أو علاقات طفولته. إذ تبدو بعض هذه الذكريات واضحة وفارضة نفسها بشكل صارخ وذات دلالة بريئة وحتى عديمة الأهمية، مما يتناقض مع ما تستره وتخفيه من ميول ونزعات لاواعية تشكل النقيض لها، إذ هي تخفي تجارب وتخيلات ورغبات جنسية أو عدوانية أو سواها مما هو مكبوت لأنه محرَّم أو غير مقبول،

وبالتالي يثير قلق المريض. ولذلك فهي تتستر على سنوات الطفولة المنسية. ولا يمكن جلاء هذا المكبوت الذي تقنعه الذكرى الساترة إلا من خلال التحليل النفسي، وإلا سيظل يفعل فعله ويعيق حياة المريض من خلال الأعراض النفسية؛ تماماً كما يجري في حالات العصاب.

وهكذا فالماضي وذكرياته ليس مسطحاً كما يبدو لأول وهلة، وإنما هو جزء من عمق وتعدد دلالات ومستويات النفس البشرية وغناها الجواني.

كما يأخذنا المؤلف في رحلة شيقة وغنية في مجال محاولات الناس طي صفحة الماضي ببساطة وإدارة الظهر له، والانغماس في مشاغل الحاضر واهتماماته ومتعه وتحدياته كوسيلة لنسيان الماضي المؤلم. ويقدم العديد من الأمثلة والمجالات لذلك، كي يبين قصور هذه المحاولات على اختلافها. إذ لا الإدمان على الكحول بمثابة وسيلة لتناسي الماضي تفلح في تحقيق غايتها، ولا الانغماس في العمل لدرجة هوس الشغل، يمكنهما أن يقضيا على معاناة الماضي ومسح صفحته. ولا غيرها من الانشغالات الهادفة إلى الهروب من تجارب الماضي المؤلم تحقق هدفها. فالماضي وتجاربه هذه تعاود الظهور من حيث لا يحتسب المرء، وعندما لا يتوقع، إذ تثيرها بعض المؤشرات الحاضرة التي ارتبطت معها في الماضي.

وهو يعرض بالمقابل في فصل آخر لطرق التصدي لأحداث وذكريات الماضي المؤلمة والصدمية من خلال عرض بعض فنيات

علاجها المعاصرة، والتي عرفت كل منها نصيباً وافراً من النجاح. إذ يعاد تأويل دلالاتها الصدمية وتُجَرَّد من شحنتها الانفعالية المؤلمة، بحيث تصبح قابلة للاحتمال وغير مولدة للاضطراب، وبالتالي يمكن التعايش معها بمثابة جزء من الماضي والتاريخ الشخصي. وتفسح المجال من ثَمَّ إلى التحرر من قيودها، والانطلاق نحو إنجازات الحاضر ومشاريع المستقبل، أي استئناف الحياة النشطة والمليئة. وذلك ما يفعله تحديداً العلاج التحليلي النفسي، فهو لا يقضي على الماضي بآلامه واضطراباته وصدماته ويصفيه، بل هو بكل بساطة يساعد المريض على إعادة كتابة تاريخه وموقعه منه. إنه يساعد الشخص الذي يُعالَج بالتحليل على التصالح مع هذا الماضي بعد أن جُرِّدَ من شحناته الانفعالية ودلالاته المولدة للمرض النفسي، وبالتالي لا يعود الشخص رهينة هذا الماضي وصدماته.

وينتقل المؤلف من ثم إلى معالجة تكامل الديمومة الشخصية: ماضٍ، حاضرٍ، ومستقبل من خلال المضي قدماً مع ماضينا وتعلُّم النسيان والغفران بما هما استيعاب الأذى اللاحق بنا من الآخر، والتخفف من احتقاناته الانفعالية التي تسمم حياتنا، وترفعنا فوقها، كما أنها تحد من مشاعر الذنب لدى من أخطأ بحقنا. إنه يحوّل النظرة إلى الذات باتجاه إيجابي مبادرٍ ومتعالٍ على الإساءة.

كذلك هو الحال فيما يذهب إليه المؤلف من فضائل الفشل لجهة التعلم من دروسه بغية تجاوز القصور الذي أدى إليه بدلاً من الوقوع ضحية له والدخول في حالة العجز المتعلَّم ومرارة الخيبة.

فالعجز تبعاً لأصحاب علم النفس الإيجابي هو حالة متعلَّمة، وليست بالضرورة قصوراً في الإمكانات. إن المرء يصاب بالعجز المتعلَّم عندما يتكرر فشله ويجد نفسه فاقداً للقدرة على التصرف لتجاوز هذا الفشل. وعندها قد يميل المرء إلى الاستسلام ويفقد الأمل في القدرة على الخلاص الذاتي، مما يرسخ فشله ومعه تبخيس ذاته. ويتكرس العجز المتعلَّم عندما يَعْزِف المرء تلقائياً عن الاستفادة من الفرص التي ستتاح له بالضرورة، حتى أنه يستقر في حالة اللاجدوى واللاخلاص. بينما تتمثل أهم فضائل الفشل في تحويله إلى فرصة للتعلُّم وعلاج أوجه القصور، وبالتالي «تحويل المشكلة إلى فرصة» كما يذهب إليه اختصاصيو التنمية الإدارية وعلماء النفس الإيجابي الذين يقترحون علينا أن نسلط الأضواء على الفرص الكامنة في وضعيةٍ ما فنستخرجها ونستثمرها في مسعى جديد يزيد من إمكاناتنا. تلك هي النظرة الإيجابية إلى الأمور وليست كما يشيع بأن نرى الدنيا وردية. النقطة الأهم في منظور علم النفس الإيجابي تتمثل في النظرة الإيجابية إلى الذات، وإمكاناتها وقدراتها التي قد تكون كامنة والتي يتعين أن ننقب عنها ونُفَعِّلَها. فالماضي ومعاناته وخيباته ليس قدراً لا راد له.

كذلك هو الحال بالنسبة إلى الوضعية النقيضة لأولئك الذين يحنّون إلى الماضي والذين يفكرون أن الماضي كان هو الأفضل حالاً وهو الخير كله، على نقيض الحاضر. فهؤلاء لا يفعلون سوى تجميل الماضي محولينه إلى «الفردوس المفقود» الذي لن يعود. هؤلاء بدورهم يقفون من الماضي موقفاً يبتعد عن الواقعية، حيث

كانت الدنيا بخير، وكان الناس طيبين! إنها مجرد عملية إسقاط لرغباتهم على هذا الفردوس المفقود في مواجهة تحديات الحاضر المتكاثرة، وتسارع الزمن وتغير الأحوال. إنهم بدورهم يتناسون إيجابيات الحاضر وما يحمل من تقدم متزايد في جميع أوجه الحياة. وهم في الحقيقة لا يشكون من فساد الحاضر ويحنّون إلى فردوس الماضي، إلا لأنهم أخذوا يفقدون السيطرة على واقعهم الراهن كُلٌّ تبعاً لظروفه الخاصة: التقاعد، التقدم في السن، الهامشية، أفول الشباب وطاقاته الوثابة، زوال التجارب السعيدة، إلخ. . . إنهم يتغافلون عن حتمية نهر الحياة حيث لا نبقى أبداً نحن ذاتنا، كما لا تبقى الحياة هي ذاتها، وبالتالي فلا جدوى من اجترار الماضي. هؤلاء يعيشون في ماضيهم ولا يعيشون مع ماضيهم، ولم يعرفوا كيف يقيمون علاقة سليمة ومعافاة مع ماضيهم.

ويحاول المؤلف أن يتجاوز هذه المواقف القطعية المتعارضة: إما هروب من الماضي أو غرق فيه واجتراره من خلال توليفة تكامل ما بين أبعاد الديمومة فنغتني من الماضي ونتعلم من تجاربه في نجاحاته وخيباته، ونتخذ منه قاعدة انطلاق لخوض غمار الحاضر وبناء مشروع الوجود ونتوجه إلى المستقبل ونبني صيرورتنا ومن سنكون. وبذلك تكون لنا حياة مليئة من إنجازنا نحن ذاتنا. وهي حياة تنفتح على الآخرين وعلى العالم، وتخرجنا من سجن أنفسنا في قوقعتنا الذاتية. كسر هذه القوقعة الذاتية والانفتاح على الناس والدنيا، وعيش أبعاد الديمومة الثلاثة والاستفادة من إمكاناتها وفرصها إضافة إلى التعلم من خيباتها، هي التي تبني كياناً

وحياة مليئة. وهو ما يلخصه المؤلف في نهاية عمله في حركات ثلاث متآنية: حركة نحو الماضي والتعايش معه وإعادة وضعه في موضعه الصحيح، وحركة نحو المستقبل وصناعة كياننا وهويتنا، وحركة انفتاح على الآخرين والعالم للاغتناء من تفاعلنا معهما. فالحياة تقوم على التوليف والتكامل بين مكوناتها، وليس على العزل والفصل فيما بينها.

قراءة هذا العمل فائق التنوع والغنى في تناول موضوعه، إضافة إلى أسلوبه المشوق، سوف يحمل المتعة والفائدة للقارئ، ويفتح أمامه آفاقاً جديدة.

مقدمة المؤلف

في هذا الطاجن أو هذا الفروج بالأعشاب الذي نستمتع كثيراً في طهوه ظهيرة يوم الأحد، وفي هذه الروائح والنكهات، نعيد الصلة مع طفولتنا، ومع جدتنا التي كانت تحسن تماماً إعداده.

وفي علاقتنا بالعمل، وميلنا المفرط الاهتمام بالإتقان أحياناً، نعود من جديد ذلك المراهق الذي كنّاه فيما سبق، حيث كنا نخاف ملامات الأب أو المعلم المتسلط.

وفي أسلوبنا في الحب، وفي الاعتقاد الجازم رغم كل شيء، نعيد إحياء مثالية أمنا، وما شهدناه من حب بعيني طفولتنا.

وفي القيم التي نؤمن بها، وفي أكثر ما يهمنا، تستمر آثار وسطنا الاجتماعي، وتربيتنا، وكذلك لقاءاتنا الأكثر تأثيراً.

وحتى في تأملاتنا، لن نكون فقط في اللحظة: فهذا المشهد الطبيعي الذي يمس أعماق نفسنا، ويجعلنا نتصالح، بسحر ساحر، مع العالم، وأشعة الأمسية الصيفية التي طالما أحببنا أن نستعيدها، وهذه الرائحة التي تجعلنا نسافر بعيداً منذ الجرعة الأولى، والتي تَعلَّمنا أن نحبها إلى هذا الحد، ونتذوق جمالها وقوة تأثيرها.

فكل ما نحن عليه، بمميزاتنا وعيوبنا، بأذواقنا ونفورنا، وأحلامنا وطموحاتنا، وكذلك مخاوفنا وقلقنا، وأفراحنا وأحزاننا، وردود فعلنا ورؤيتنا للعالم، وعاداتنا بالتأكيد: كل ذلك يصدر عن ماضينا. وفي كل ذلك يكون ماضينا حاضراً. كنا نعتقد أنه أصبح خلفنا: إلا أنه لا يتوقف عن إرسال إشاراته.

هذا الماضي الذي لا يمضي يقاوِم حتى في صلب حالات ندمنا وحسرتنا، وفي صلب ذكريات خيباتنا، أي تلك اللحظات التي تدفع كياننا، وتعود إلى ذاكرتنا في كل مرة يتسرب الشك إلى نفوسنا. كما أن الماضي حاضر كذلك، ولو بشكل أكثر خفاءً، في ذكريات أشيائنا الجميلة، وفي أولى خفقات قلبنا، وفي اكتشافاتنا ونجاحاتنا الأكثر تأثيراً.

لا يتوقف ماضينا عن العودة، سواء أكان سعيداً أم بائساً. إنه يحضر أحياناً في ذهننا بشكل غير مقصود سواء في العمل، أو في الشارع أو البيت، وعلى غير موعد نتيجة للمحة إحساس عابرة. يكفي أن نتوقف عنده قليلاً، وإذا بشذرات من ماضينا، حاملة معها حفنة من الذكريات تجعلنا نغوص في حنين جميل أو في مرارة الاكتئاب. كما أنه يقتحمنا أحياناً بشكل فظ وعنيف وحاد على شكل ذكرى صدمة قديمة تعمي الأبصار وتُفقدنا توازننا في أسوأ اللحظات غالباً. هذه الذكرى الأليمة والبائسة، وهذا الجرح الذي كنا نتمنى نسيانه، يداهمنا بدون توقف ويُخيَّل إلينا عندها أننا لم نتجاوز أبداً عودة هذا المشهد الصادم. إننا نرغب في أن نتحرر من

الماضي المؤلم واستعادة الأيام السعيدة، إلا أننا نفشل غالباً في كلتا الحالتين. إذ كلما رغبنا أكثر في النسيان فإننا نمد الذكريات بمزيد من القوة التي تضنينا. وكلما رغبنا أكثر بإحياء أفراح الماضي، تتزايد بالمقابل مرارة الحنين. غريب ذلك الماضي، الذي لا فكاك منه، والذي لا يتوقف عن مطاردة حاضرنا. تماماً كوجوه موتانا الذين يخطرون ببالنا.

يكمن الخطأ في التفكير أن الأمس لا يمت إلا إلى الماضي: في الواقع، فالماضي لا يمضي؛ إذ إننا صنيعة الماضي أكثر من كوننا صنيعة الحاضر. إذ تُسارِع كل لحظة مُعَاشة في الانضمام إلى الماضي، الذي لا يتوقف عن التزايد في الانتفاخ على غرار انتفاخ البالون. ففي الحاضر نحن في حالة عبور دائم: إذ كلما تقدمنا في الوجود، أصبحنا أكثر غنى في تجربتنا المعاشة. من الهام إذاً أن نتعلم كيف نحسن العيش مع ماضينا، وأن نجد في الآن عينه المسافة الملائمة معه. ولكي نتعرف على أنفسنا بشكل أفضل، ونتفهمها، ونعرف ميراث ماضينا، وخصوصاً كي لا نقع في التكرار والاجترار على غرار أولئك الذين **يعيشون في قلب ماضيهم** وليس أولئك الذين **يتعايشون معه**، والذين يصبحون سجناء حالات عصابهم وحسرتهم.

إذ بدون أنوار الماضي، لن نرى شيئاً من الغد، وهذا الشراع المتزايد المساحة والقوة على الدوام سيحملنا حيث لا ندري. فإن حياتنا سوف تفلت منا، ونصبح بالتالي مسافرين لا يدرون أين هم ذاهبون.

ولكي نفهم كيف يعمل ماضينا في الحاضر، يتعين دراسة كيفية عمل الذاكرة. إذ هناك يكمن ماضينا: ليس وراءنا وإنما هو فينا. ولقد أخطأنا ردحاً طويلاً من الزمن بصدد ذاكرتنا، حيث اختزلناها إلى مجرد تراكم من الذكريات، إلا أننا نعرف حالياً، وبفضل تقدم علوم الأعصاب، أن الذاكرة هي أكبر من هذا بكثير: فذاكرتنا معقدة، ومتغيرة، وتشكل قلب دماغنا النابض والذي يُعرَف بدوره من خلال مرونته، وقدرته على إعادة تشكيل ذاته باستمرار، من خلال التوليد الدائم لروابط عصبية جديدة. يزعزع هذا المفهوم الجديد للذاكرة الذي أقامته العلوم العصبية المعرفية الراهنة، التصور القديم لذكرياتنا: إذ إنها لا تشبه البتة بيانات مسجلة على قرص صلب. فهذه الذكريات هي حية بدورها، إذ يتم استعادتها بانتظام، حيث تتعزز وتتقوى، حتى أنه يعاد خلقها أحياناً، بل تخيلها.

ذاكرتنا أشبه ما تكون بقارة جديدة. حيث تنتظرنا اكتشافات مذهلة: فماضينا هو بمثابة قدر يتعين استيعابه بمقدار ما هو مادة يتعين الشغل عليها، وذكرياتنا ليست معطيات موضوعية بقدر ما هي اختراعات يتعين إعادة بنائها. تفتح لنا ثورة العلوم المعرفية حقولاً غير مسبوقة: إذ هناك نوع من العودة إلى معاناتنا الماضية لكي نبطل أضرارها كما يوجد أيضاً أسلوب من استعادة حالات سعادتنا السالفة كي نتمتع بها من جديد. ولم يعد التدخل في ماضينا نوعاً من الخرافة العلمية وإنما هو من العلم المضبوط، وخصوصاً من إمكانية وجودية متوفرة لنا.

نحن بصدد ثورة حافلة بالوعود أدت حالياً إلى تطوير طرق علاجية نفسية تسمى «إعادة تعزيز الذاكرة». ومن خلال الفهم الأفضل لطريقة عمل ذاكرتنا، أصبح بإمكاننا التأثير على ماضينا، وبالتالي على حاضرنا، وعلى قدرتنا على التقدم إلى الأمام. دعانا كل من فرويد ولاكان للتعامل مع ماضينا الذي ليس بإمكاننا تغييره، بينما المعالجون الجدد المدرَّبون على العلوم العصبية يدعوننا بالأحرى إلى تغيير ماضينا كي نحسن استقبال المقبل من حياتنا.

على ضوء هذه الرحلة الخارقة في الدماغ، سوف نعثر من جديد على بعض ألوان الحكمة القديمة ونقدر مدى راهنيتها الحالية. كما سنعثر على حكمة بعض الفلاسفة المعاصرين، من أمثال نيتشه وحنة أرندت مروراً ببرغسون، والذين فهموا دور الذاكرة الأساسي - والنسيان - في نمو شخصيتنا، ونجاح أفعالنا، وفي سعادتنا. سوف نستند إليهم، ونتعلم بفضلهم أن نعيش بشكل أفضل مع ماضينا. ويضاف إليهم، استدعاء الكتّاب والفنانين وذكريات بروست القديمة أو تَخَيُّل هيرفيه لوتيلييه، وعمليات الإخراج الحالم لدى كل من ديفيد كروننبرغ وديفيد لينش، وقصص خورخي سيمبرون وسيمون فايل حول تجربة معسكرات الاعتقال النازي، أو جوان ديديون في حدادها على زوجها، ويضاف إليها أعمال باربرا الميلودية الأخاذة، وحتى إبداعات زلاتان إبراهيموفيتش متغيرة الأشكال. ذلك أن فناني الكلمات والصور والأشكال هؤلاء سوف يجعلوننا نحس بما تعلمنا إياه العلوم

العصبية الدماغية: إذ إنه إذا كان ماضينا يجعلنا ما نحن عليه، فإننا لسنا مجرد ما صنعه فينا؛ إذ ليس هناك أي سبب لأن نترك أنفسنا مجرد صنيعة ماضينا.

يتعين علينا أن نجد المسافة الملائمة، أي توجيه ذلك الشراع الذي ما فتئ الماضي يضخمه، في مقابل الإبحار مع الريح كي نستعيد الانطلاق إلى الأمام.

الفصل الأول

عبقرية حدس برغسون

تعين أن يمر وقت طويل قبل أن تصبح الذاكرة موضوعاً فلسفياً بكل معنى الكلمة. وحتى يومنا هذا فإن الفهم الذي لدينا عن الذاكرة يبقى مغلوطاً على الأغلب. ومن الشائع استعمال مجازات معلوماتية للحديث عن هذه الدائرة من الذهن. إذ نتحدث عن «ذاكرة ذات سعة مشبعة ولا تحتمل المزيد»، وكأنه بالإمكان تحديد موقعها وإضافة قرص صلب إليها بغية «زيادة سعتها». ذلك أن مفهومنا عن الذاكرة هو غالباً جامد، وذات سعة محددة وتراكمية. وهي فكرة مسبقة تؤدي إلى إفقار مفهوم الذاكرة وظاهرة الآثار التذكرية. ذلك أن التقليد الفلسفي اتبع زمناً طويلاً، بهذا الصدد، معنى شائعاً معتبِراً الذاكرة بمثابة مجرد حيز مكاني لحفظ الماضي. فديكارت على سبيل المثال عبّر عن عدم اهتمامه بالذاكرة، معتبِراً إياها ملكة ذات «طبيعة ضعيفة» مقارنة بالعقل أو الوعي.

إذ فيما عدا رؤية بعض الفلاسفة الذين أدركوا قوى الذاكرة، ويأتي القديس أوغسطين في صدارتهم حيث يمدح قوة الذاكرة في

عمله بعنوان **اعترافات**، تعين الانتظار حتى نهاية القرن التاسع عشر كي يأتي برغسون ويضعها في صميم تفكيره. إذ كان لديه الحدس، المعتبَر نوعاً من الجنون الفكري في عصره ولكن تم توكيده من قِبل العلم حالياً، بأن ذاكرتنا ليست جامدة بل هي دينامية، وبأن ذكرياتنا حية، ومعرضة لحالة من المد والجزر، تلامس وعينا قبل أن تعاود الزوال. والذي حدس خصوصاً بأن ذاكرتنا هي التي تشكل وعينا، وبالتالي تحدد هويتنا.

من الصعب في أيامنا تصور نجاح برغسون الباهر وفلسفتِه حول الذاكرة، والصدمة التي شكلتها هذه الاعتبارات الجديدة التي دافع عنها الفيلسوف الأكثر تأثيراً في زمانه. فهو الأستاذ في الكوليج دو فرانس، وعضو جمعية الأمم، والذي حاز جائزة نوبل في الآداب، وكان الجمهور يحتشد في بوليفار سان جرمان كي يستمع إلى برغسون في الكوليج دو فرانس.

كان كل من دروسه يشكل حدثاً، فكرياً بالطبع، وإنما كذلك حدثاً نخبوياً. وأولئك الذين يظلون على باب قاعة المحاضرات كانوا يتطلعون إلى رؤية مؤلف **التطور الخلاق** عند خروجه، أو يستمعون إلى صوته من خلال المذياع. ولقد تم التفكير، بغية استيعاب جمهور المستمعين المتحمسين، في نقل دروسه من الكوليج دو فرانس إلى قاعة المحاضرات الكبرى في السوربون أو قاعة قصر غارنييه. كما كان برغسون يحرك حشود المستمعين خارج فرنسا أيضاً. وفي العام 1911، أعطى في لندن محاضرة كبرى تم إعادة نقلها إلى الشارع من خلال مكبرات صوت نصبت لهذه الغاية.

وفي نيويورك في العام 1913، أحدث قدومه أول ازدحام ضخم في تاريخ المدينة، في ساحة برودواي الشاسعة! أصبح برغسون نوعاً من أكبر نجوم الروك فلسفياً قبل ظهور موسيقى الروك، وكل ذلك بفضل ماذا؟ بفضل فلسفة في الذاكرة والذكريات فائقة الحداثة، وهي في الآن عينه فلسفة للفعل ودعوة للحرية.

في بحثه عن حقيقة أولية، لا شك فيها، توصل ديكارت إلى طرح السؤال: كيف يمكن التأكد من وجودنا؟ وتمثل جوابه في الفكرة الشهيرة: «أنا أفكر، إذاً أنا موجود». إذ يكمن البرهان على وجودنا، تبعاً له، في عملية الوعي. وهو توكيد جعل من ديكارت، تبعاً لهيغل، بمثابة «بطل» الفلسفة الحديثة. ولقد أدخل برغسون الثورة على هذه الفكرة. فقد تبنى لحسابه الجواب الديكارتي وأبدله - بمثابة حدس عبقري - بمقولة الذات المتذكرة: إننا نعرف أننا موجودون لأننا نتذكر. أصبحت قدرتنا على إعادة تذكر أفعالنا وتجاربنا المعاشة، وتوحيد هذه المعرفة في هوية موحدة، وشخصية ذات تاريخ فردي، جوهر المعرفة. أنا أتذكر، إذاً أنا موجود! إذ يؤكد برغسون أننا مكونون من نسيج ذكرياتنا ذاتها. وهكذا يكتب في العام 1919 في عمله بعنوان **الطاقة الروحية**: «لا يوجد ما هو معطى بشكل أكثر مباشرة، ولا ما هو واقعي حقاً، أكثر من الوعي، والروحية الإنسانية لا تعدو كونها الوعي ذاته. على أن الوعي يعني الذاكرة قبل كل شيء آخر. [. . .] أنا على يقين أن حياتنا الجوانية بأكملها هي بمثابة جملة تبدأ منذ يقظة الوعي الأولى، وهي جملة

تتخللها علامات الفصل، إلا أنها غير مقطعة أبداً بنقاط».

وبالتالي، فمعرفتنا وهويتنا، وبالتالي الذاكرة التي تشكل أساسها، ليست إذاً ثابتة. فتبعاً لبرغسون «يستمر ماضينا بلا نهاية» في قلب ذاكرتنا، ولكن ليس بشكل جامد: إنه يتطور معنا، ويتشكل في الحاضر تبعاً لتجاربنا الحياتية وللأسلوب الذي نوظف فيه مستقبلنا. وبعد مضي قرن من الزمان ها هي العلوم العصبية تؤكد حدس برغسون: ليست هناك ذكريات موضوعية، فكل ذكرى هي إعادة بناء دينامية. هذه القوة الفاعلة في قلب ذاكرتنا هي المكون لمبدأ الحياة الذي يحركنا.

يبين برغسون، في عمله بعنوان **المادة والذاكرة**، أننا، كي نتصرف، نختار على الدوام الذكريات المفيدة لأفعالنا: من ضمن محيط ذكرياتنا الواسع، فقط ما نحتاج إليه من ذكريات ترد إلى وعينا تلقائياً. ولم يحدث أن فهم أي فيلسوف قبله، إلى هذا الحد، ما غدا واقعة علمية: فالذاكرة لا تستخدم لمجرد حفظ الماضي، بقدر ما تسقط على المستقبل. وبتعبير أكثر دقة: إنها تحفظ الماضي كي تقيم توقعات مستقبلية. ونلاحظ بالمناسبة، أن المرضى الذين يعانون من الألزهايمر والذين يعجزون عن تذكّر الماضي، لا يتمكنون كذلك من التوجه نحو المستقبل. فالذاكرة والاهتمام بالغد يسيران جنباً إلى جنب: هذه الفكرة، التي تكاد تكون مضادة للحدس، هي في لب فكر برغسون الرؤيوي.

إلا أن الفعل لا يحرك سوى جزءٍ جد ضئيل من ذكرياتنا المتوفرة. وتتشكل ذاكرتنا، فيما دون ذلك، من مجموعة واسعة من الذكريات التي يُعرِّفها برغسون بمثابة ذكريات حية، وفي حالة حركة. وبالتالي فكي نعرف من نحن، ومن أين أتينا، وكذلك، إلى أين نحن ذاهبون، يتعين علينا الغوص في آثار الماضي الفوارة هذه، والذهاب إلى ملاقاتها كي نحيط بتعقيد كياننا، وذاتيتنا، وبهذا التاريخ الذي يكوننا، والذي يُكتَب في كل لحظة، «تتخلله علامات الفصل، إلّا أنه غير مقطع أبداً بنقاط».

يكتب برغسون في عمله بعنوان **الطاقة الروحية**: «افترض أنني، في لحظة ما أنصرف عن الوضعية الراهنة، وعن العمل الملح. وبتعبير آخر، افترض أنني أنام. عندها تشعر هذه الذكريات الساكنة، أنني أبعدت العائق، وفتحت البويب الذي يحتجزها في الطابق السفلي للوعي، فتبدأ بالتحرك. فتنهض، وتنشط، وتتجسد، في ليل اللاوعي، برقصة جنائزية مرعبة. وتتراكض جميعها إلى الباب الذي انفتح للتو».

يشير برغسون في هذا المقطع إلى حالة الحلم: نتوقف عندها عن النشاط، وبالتالي عن الاختيار، وتتحرر ذكرياتنا وتبدأ «بالرقص». تشكل ذكرياتنا المادة المطواعة، النشطة والقابلة لمختلف ألوان التشكل مما يمثل أضغاث الأحلام. تميل كل أعمال برغسون تقريباً إلى البرهنة على هذه الحيوية لذكرياتنا من خلال الأحلام من ناحية، وكذلك، وفيما يتجاوزه، في كل ظواهر الوعي.

إنه يعلمنا درساً أساسياً في فهم الروح الإنسانية وبناء شخصيتنا: فذكرياتنا، وماضينا، يرويان كامل نشاطنا الواعي. ويعاود ماضينا الظهور دوماً في إدراكاتنا، وفي حدوسنا، وقراراتنا، وفي كل ما يتيح التعبير عن شخصيتنا الحرة. وهكذا نحن نتلمس العالم من خلال مصفاة ذكرياتنا: فهي تتراكم على الواقع المدرَك من خلال التناظر والتشابه، والتعارض؛ ونحن نقارب، ونقارن، ونمايز بغية الفهم والاستيعاب. فكل ما نراه، ونلمسه، ونسمعه، «يذكرنا» دوماً بشيء ما، إذ إن الجديد مدموغ بشكل محتوم بختم المعاش. كذلك فإن حدوسنا مدموغة بالتربية المديدة، والتجارب المعاشة والمنقوشة بعمق فينا والتي تنبجس عفوياً كي تقود خطواتنا.

نحن لسنا هنا بصدد أي معجزة إلهية أو إلهام سماوي، وإنما بصدد مجرد لعبة التجربة الخصبة: فنحن مشبعون بماضٍ يكلمنا ويوجهنا. أفتح نافذتي في بداية شهر أبريل، وأتنشق هواء الصباح، الذي ما زال منعشاً، وتنتابني الرغبة في لبس لباس خفيف وأخذ قهوتي على مصطبة البيت. إنها رائحة الربيع الخاصة التي تهل، وأيامه الجميلة التي تعود. ما زال من المبكر جداً أن أعرف ما إذا كان اليوم سيكون جميلاً، لولا ذلك الأريج الفريد الذي يكلمني. إنني أعرفه، وأتعرف عليه، وهو يوقظ في نفسي الرغبة في الاستمتاع بشروق الشمس. والأمر هو ذاته بصدد كل من قراراتنا، التي تصبح حرة فقط عندما تصبح واعية من حالة الكمون، من درب الحياة التي قادتنا إلى هذه النقطة المفصلية. إننا لا نختار أبداً

إلا على أساس مجمل التعلمات الشرطية التي أصبحنا عليها، والتي شكلت شخصيتنا وأسست تلك المبادئ والقيم التي نتخذ قراراتنا بناءً عليها. نحن لسنا أحراراً إلا بمقدار وعينا بالماضي الذي جعلنا ما نحن عليه، وبالتاريخ الذي يوجه مستقبلنا. تدعونا فلسفة برغسون إلى استيعاب هذه المادة الحية لذكرياتنا، وإلى أن نحملها معنا في التحرك الذي يدفعنا نحو المستقبل.

نحن نعيش كل يوم تجربة حيوية ذكرياتنا، وديناميةذاكرتنا. وذلك من خلال ذكرى وفاة عزيز تبرز فجأة - ولكن لماذا برزت في هذه اللحظة بالذات؟ وكذلك في أسف يستولي علينا، أو ندم مؤلم. وكذلك في بقايا سعادة سالفة، تثيرها رائحة خفية، أو شعاع ضوء منعكس على متاع يومي أو أغنية على الراديو، كلها قد تحيي ذكرى معينة بشكل عابر. كنا قد نسينا تلك اللحظة السارة وها هي مجرد رعشة سرور تجتاح جسمنا، وكأنها انتظرت كل هذه السنوات في كامل حيويتها، بدون أن تخسر شيئاً من نضارتها، ومن جوهرها، متربصة على حافة الحاضر، فرصة بروزها إلى وعينا تاركة ابتسامة على شفاهنا. وكذلك استرجاع تلك السعادة الماضية، ولكنها ما زالت في كامل حيويتها في ذاكرتنا بحيث تؤكد انفعالاً يطغى علينا ويحملنا إلى شوق يجمع الحلاوة إلى المرارة. وفي ظل هذه الذاكرة فائقة الحياة والزخم، يبدو الحاضر باهتاً لا نكهة فيه، ذلك هو أيضاً قوة الحنين الذي يغنيه غانسبورغ في **أغنية بريفير**: «وبالطبع سأنساق مع آخرين/ إلا

أن أغنيتهم تتصف بالرتابة/ وبالتدريج سوف أتباعد عنهم/ وليس هناك ما يمكن عمله بهذا الصدد/ ذلك أن كل مرة تعيدك الأوراق الميتة إلى ذاكرتي». أغنية **الأوراق الميتة** لبريفير تحمل المُغَنِّي إلى بقايا قصة حب ماضية «تستمر في عملية موت دائم»، وتبقى حية وحاضرة في ذاكرته، بحيث تجعل خفقاتها قصص حبه الجديدة «رتيبة» وفاقدة لزخمها. فالحاضر لا يتألق في ظل ذاكرة عنيدة جداً، وشوق مقيم. كان يتعين على غانسبورغ أن ينسى كي يتمكن من الحب من جديد، أي عندما «تموت حالات حبه نهائياً». وبالطبع، لن تموت الذكرى إذ إن النسيان النهائي مستحيل. إذ يتعين على العاشق أن يتعلم التعايش مع هذه الذكرى، وتركها تذوب في الماضي، بمثابة فصل منتهٍ من تاريخه المستمر. وعندما يكون الحنين رؤوفاً ويترك للحاضر مجاله، فإنه يمكن أن ينفتح من جديد.

وفي أعماق الوعي، تكمن كل هذه الذكريات التي تفلت منا، إنها تظل حاضرة ولكنها لا تُدرَك. إنها هنا على طرف لساننا، نحس بها، ونتحسسها إلا أنها تفلت منا ونعجز عن إدراكها. إلا أنها سوف تعود لاحقاً، وتفاجئنا في اللحظة الأقل توقعاً. فكم من الألغاز، ومما يدعو إلى العجب يوجد في ذاكرتنا!

نعم، فماضينا حيّ فينا دوماً وليس مجرد ماضٍ. وهو يجبرنا على التواضع: إذ إنه لا يرفض الزوال فقط، وإنما هو يركب رأسه فوق ذلك. يعاود الماضي البروز حين يشاء هو، وليس حين نرغب في ذلك، وهو لا يُخْطِرُنا مسبقاً قبل أن يطرق باب الحاضر.

تمتلك ذاكرتنا وتيرتها الذاتية، ومنطقها الداخلي. إنها تستجيب لمثيرات ومحرضات تفلت منا في جلها. نحب أحياناً أن نتحرر من ماضٍ يثقل علينا، أو نمحو لحظات تزعجنا، أو نتخلص من ندم يعذبنا. وفي المقابل نتمنى أن تستمر إلى الأبد لحظات المجد، ونمدد حالات الغبطة الغامرة. إلا أن ذكرياتنا لا تلبينا. وهكذا نجد ذواتنا نتعامل مع هذا الماضي الذي يفلت من سيطرتنا، وهذه الذاكرة المتمردة. فكيف نكون إذاً على وفاق مع تاريخ لا يتوقف عن النيل منا؟

ومع ذلك لا بد لنا من إيجاد طريقة للتعايش مع ماضينا. ذلك أن كل ثانية تمر تحد من مستقبلنا وتثقل من معاشنا. يكتب برغسون في عمله بعنوان **الطاقة الروحية**: «نعم أنا أعتقد أن حياتنا الماضية حاضرة فينا، محفوظة في أدق تفاصيلها، وأننا لا ننسى شيئاً، وأن كل ما أدركناه، وفكرنا فيه، وأردناه منذ لحظات يقظة وعينا الأولى، يستمر إلى ما لا نهاية». أي حدس مذهل هذا، ساحر، ولكن مدعاة لبعض القلق كذلك، كل تاريخنا لا يمحى...

نفهم إذاً الجمهرة التي تحتشد لسماع برغسون، هذا الرجل ذو المظهر المتواضع، والفكر الخارق. إذ إن معاينة تواضعنا تجاه حيوية ذاكرتنا لا تدفع هذا الفيلسوف إلى الاعتراف بعجزه. وإنما على العكس من ذلك. يدعونا برغسون إلى مقاربة جديدة لحريتنا في مواجهة أمواج ذكرياتنا العاصفة. إنه يدعونا إلى موقف منفتح وخلاق على هذا الماضي الذي يكوّننا. وإذا كانت شخصيتنا تُكَثِّف

مجمل تاريخنا الشخصي، يصبح الفعل الحر قمة عملية «حمل ماضينا معنا» في كليته كي ننطلق نحو المستقبل. إذ بإمكاننا أن نستوعب ماضينا ونمتلك زمام حريتنا في آن واحد: ولا يعرض برغسون شيئاً آخر أقل من طريقة تمكننا من تحقيق ذلك.



الفصل الثاني

كل حالات حضور الماضي

الذاكرة ليست ملكة وحيدة وموحدة، بل هي متعددة. إننا نمتلك ذاكرات عديدة. سبق لبرغسون أن تأكد من ذلك إذ: إننا نحتفظ بالذكريات بطرق متعددة، وحالات تَعَلُّمِنا قد تتبع عمليات متنوعة. وهكذا فهو يميز ذاكرتين: «ذاكرة الذكريات» و«ذاكرة العادة». تتكون «ذاكرة الذكريات» وتغتني خلال تجاربنا الحياتية، بدون جهد من قبلنا. من قبيل ذاكرة اللقاء الغرامي الأول، أو ذاكرة القطيعة المؤلمة. وعلى العكس، فإن «ذاكرة العادة» هي ثمرة الجهد والإرادة. فهي الدرس الذي يتعين علينا تعلمه كي ينطبع فينا. تؤكد العلوم العصبية المعرفية حدس برغسون وتدفعه قليلاً أبعد من ذلك: إذ لا يوجد تبعاً لهذه العلوم ذاكرتان فقط وإنما خمس، ثلاثة رئيسة واثنتان تابعتان: الذاكرة الظرفية (أو ذاكرة تاريخ الحياة) التي تتطابق مع «ذاكرة الذكريات» عند برغسون، وكذلك ذاكرة الدلالة، وهي ذاكرة الكلمات والمفاهيم؛ وهناك الذاكرة الإجرائية المتعلقة بردود أفعالنا وعاداتنا، والتي تتقارب مع «ذاكرة العادة» عند برغسون؛ ويضاف إلى ما سبق الذاكرتان قصيرة

المدى، أي العاملة والحسية. ولا يحيل وجود حالات الذاكرة الثلاث الرئيسة هذه فقط إلى ثلاثة أساليب من التذكر. فهي تعني كذلك وعلى وجه الخصوص أن ماضينا ينشط داخلنا، يضيء دربنا أو يضللنا، يحملنا أو يعيقنا بثلاث طرق مختلفة على الأقل. ولكي نعرف كيف نتعايش مع ماضينا، تُفْرَض علينا التفافة إلى آخر مكتشفات العلوم العصبية المعرفية حول كيفية عمل ذاكرتنا، أو بكلمة أدق أنواع ذاكرتنا.

الذاكرة الظرفية، أو ذكرى ظروف حياتنا

ذاكرتنا الظرفية هي مجموع ذكريات عيشنا: تلك **الوقائع** الجاهزة لأن تُستدعى إلى وعينا كي تبث الحرارة في نفوسنا أو تؤلم قلوبنا، تمدنا بأجنحة للانطلاق أو تعكر صفونا، أو لكي تدعونا ببساطة إلى إعادة استعراض مسار حياتنا. الذاكرة الظرفية هي مستودع تاريخنا. ذلك أن هذه القدرة على استرجاع مسار حياتنا على شكل قصة هي على الأغلب أكثر ما يميزنا عن بقية الحيوانات. الوعي الذاتي، بالنسبة إلى الكائنات الإنسانية التي هي نحن، يقوم على هذه الوقائع الماضية من تاريخنا وعلى الانفعالات والمشاعر التي نربطها بها. وبالطبع، فإنها الحيوانات تملك هي بدورها ملكة التذكر، ولكن ليس بمستوى الغنى ذاته الذي تقدمه لنا هذه الذاكرة الظرفية: فالحيوانات لا تمتلك هذه القدرة للقيام برحلة داخل الزمن كي تستعيد مختلف التجارب المعاشة.

وككل مرة نحاول فيها تحديد ما يميز الإنسان، فإننا نقع

بالطبع على بعض الاستثناءات: فبعض الباحثين من أمثال كلايتون، ودالي وإيمري برهنوا أن بعض الطيور، من مثل طائر أبو زريق، قادرة على تذكر أين خبأت غذاءها، وماذا خبأت، ومتى خبأته. فالذاكرة الظرفية ليست غائبة تماماً عند المملكة الحيوانية. إلا أن هذه القدرة نادرة جداً، ولا نجدها مثلاً عند القردة العليا. وتبقى وقائع هذه الذاكرة الظرفية جزئية ومحدودة، ونتكلم بالتالي عن ذاكرة شبه ظرفية عند الحيوانات. ومهما تكلمنا عن «ذاكرة لدى الفيلة»، فإن قدرتها على التذكر تبقى بدائية تماماً مقارنة بذاكرتنا.

تمثل ذاكرتنا الظرفية عملياً خاصية لافتة: إذ يمكن أن تكون لانهائية. نعرف اليوم بفضل أعمال كل من لاري سكواير وإريك كاندل، على وجه الخصوص، وهما من حملة جائزة نوبل في الفسيولوجيا والطب، أن المفهوم السالف عن الذاكرة بمثابة وعاء تخزين محدود هي خاطئة. فذاكرتنا الظرفية لا حدود لها: فالمجموع الدينامي الذي يكوِّن كل وقائع الماضي التي نحتفظ بها في ذاكرتنا يمكنها أن تستقبل على الدوام ذكريات جديدة.

يحمل كل منا في ذاته المحيط الواسع من توالي لحظات ماضيه، ولا تشكل الذكريات الواعية سوى الجزء الظاهر من جبل الجليد المكون من ذاكرة الوقائع الظرفية. إننا ننسى أقل بكثير مما نعتقد: إذ إن الوقائع «المنسية» تظل عملياً مدفونة أعمق بقليل. وإذا حدث لنا أحياناً أن كبتنا الوقائع الصدمية، فإن هذا المكبوت معرض للعودة المفاجئة في بعض الظروف الخاصة. وهكذا يُثبَت

حدس برغسون: إذ ليس لأننا «نسينا» ذكرى معينة معناه أننا خسرناها بشكل نهائي. ذلك أنها تظل حاضرة فينا وتبرز في دماغنا على طريقتها الخاصة، وتؤثر على طريقتنا في التفكير، وفي رؤية العالم. فالذكرى «المنسية» ليست مثل كلمة تعرضت للانمحاء من صفحة معينة، أو معطى مفقود ويتعذر استرجاعه على قرص مدمج في الحاسوب. فالنسيان لا يعني الزوال: فالذكرى يمكن دوماً استرجاعها، وذلك بفضل نزهة تستعيد إحدى لحظات صيف مراهقتنا. إننا نعتقد أننا نسينا لأن ذكريات أكثر جدة وفائدة تبرز إلى الأمام في وعينا، أو لأننا نكبت واقعة ظرفية لا يمكننا تحمّلها من تجربتنا المعاشة. إلا أن كل هذه الذكريات «المنسية» تظل قائمة، في مؤخرة وعينا: بشكل أو بآخر، هي تبقى كامنة فينا، تبعاً لقول برغسون.

ويرجع دوامها إلى سببين رئيسين مترابطين معاً غالباً: وذلك تبعاً لفائدتها من أجل بقائنا أحياناً، وبسبب شحنتها الانفعالية المصاحبة للتجربة التي مررنا بها، حيث إن الانفعال يمكن أن يشكل علامة على فائدته الحيوية [بما يثيره من يقظة وتنبه واستعداد للتصرف]. وهكذا فإننا نحتفظ بسهولة أكبر بالانفعالات السلبية: المرتبطة غالباً بالخوف، وبالتالي بغريزة البقاء، إذ تطلق رد فعل منعكس موروث منذ آلاف السنين من تطور نوعنا الإنساني. وذلك من قبيل تحطم عمود خشبي يجعلنا نستنفر تجنباً لخطر سقوطه، أو رد فعل الهروب أمام حيوان مفترس، أو التعرف الغريزي على

صرخة ذعر تضعنا رأساً في حالة استنفار: فلقد تعلمنا الاستجابة المباشرة لمؤشرات خطر محتمل. فالانفعالات البدائية المزعجة تعمل بمثابة تحذير لدماغنا الذي تعلَّم ضرورة تسجيل المعلومة ذات الصلة، وذلك من أجل الحفاظ على البقاء. وفي عملية تسجيل تجاربنا ذاتها، فإننا نحمل ذاكرة هذا الزمن المديد من التطور. وهكذا، فحتى اليوم، فإن ذكرياتنا المؤلمة، والبائسة تنغرس فينا بقوة أكبر من سواها من الذكريات وهو نتيجة لعمل ذاكرتنا الأساسي.

على العكس من التصور الأول الذي كوَّنه الناس عن الذاكرة، والذي استمر لدى العديد من علماء النفس حتى النصف الأول من القرن العشرين، فالذكرى ليست معطى مسجلاً في دماغنا. وهي ليست أثراً ذكروياً متوضعاً في الدماغ، كما أنها ليست صورة مسجلة في مكان ما منه، وإنما هي تلك الطريقة التي تأثر بها دماغنا بالتجارب التي عشناها.

نجد في كتاب لاري سكواير وإريك كاندل الشيق بعنوان **الذاكرة: من الروح إلى الجزئيات** تاريخَ هذا التصور لذاكرتنا، وخصوصاً رواية التجارب التي أثبتت أن الذاكرة لا يمكن أن تكون متموضعة في منطقة محددة من الدماغ. فلقد اعتقدنا لوقت طويل أن مقر الذاكرة يقع في الفصوص الصدغية في قرن آمون [منطقة في الدماغ]. إلا أن تجربة أجرتها عالمة النفس الشهيرة بريندا ميلنر بيّنت أن مريضاً أصبح شهيراً في تاريخ علم النفس بالحروف الأولى

من اسمه .H. M استمر بتذكر ماضيه بعد عملية استئصال الجزء الأكبر من الفصوص الصدغية وقرن آمون. وبعد هذه العملية أصبح من المتعذر عليه بالطبع تكوين ذكريات جديدة، إلا أنه استمر في استرجاع ذكريات من ماضيه بدقة، وخصوصاً ذكريات طفولته. وهكذا تم البرهان على أن الذاكرة ليست متموضعة في الفصوص الصدغية وقرن آمون، ولو أن هذا الأخير يلعب دوراً رئيساً في تكوين الذكريات. وهكذا يستنتج كل من سكواير وكاندل، أنه لا توجد مراكز نوعية في الدماغ تُخزَن فيها ذكرياتنا. إذ هناك عدة بنى دماغية تسهم في الآن عينه في تصورها، وتتبادل مختلف مناطق دماغنا المعلومات، على غرار تقاطع الأشعة الضوئية كي تلقي الضوء على حدث ماضٍ. وكل شعاع يحمل معلومة خاصة بأحد مظاهر ذكرى معينة من قبيل شكلها، والعطر الذي ينبعث منها، والعلاقات الإنسانية المرتبطة بها، والانفعالات المصاحبة لها، وكذلك الفصل من العام الذي حدثت فيه، إلخ... النسيج المتكون من هذه الأشعة التي تتقاطع وتعيد التقاطع على الدوام، يشكل الذكرى، و«يقوننها»، كما يقول علماء الذاكرة. وحين يتم تسجيل الذكرى في الذاكرة، ومهما طرأ من أضرار على مناطق الدماغ المعنية «بقوننتها» فإن الذكرى تستمر. تؤكد اكتشافات العلوم العصبية الدماغية الأخيرة إذاً ما تجرأ برغسون على افتراضه قبل ذلك بقرن من الزمان، مما برر موقفه الروحاني القائل: إننا لا نعرف حقاً **أين** توجد الذكريات.

ذاكرتنا دينامية، ودماغنا هو عضو في حركة وتطور دائمين.

يتعين علينا تصور 85 مليار عصبون ومئة تريليون شبكة وصلات بينها: فالذكرى هي أشبه ما تكون بشبكة. وحين نعيش واقعةً ما، يستجيب دماغنا من خلال تكوين جملة من الوصلات العصبية، على غرار موجة تحرك مادة الدماغ الرمادية، ومقيمة الصلة بين مختلف مناطق دماغنا.

الشبكة التي تقوم في دماغنا تغيره وتقيم الصميمة القاعدية للذكرى. وهكذا فدماغنا يتعدل من خلال تجربتنا المعاشة، وذكرياتنا تُشكِّل بمعنى ما خارطةَ ما سوف نصير عليه. أدى هذا الاكتشاف المذهل إلى آخَر أساسي، منذ ما يقرب من ثلاثين سنة خلت: يُعَرَّف دماغنا بمرونته، وقدرته على التطور الدائم على غرار شبكة جذور في حالة تشكل دائم. وعلى شاكلة الكون، الذي لا يكون أبداً شبيهاً بذاته، بحيث يعاد تشكيله باستمرار فيما تولد مجرات كاملة وتموت أخرى، وتنفجر نجوم إلى سوبرنوفا، وتنهار حالات سديمية إلى كتلة من النجوم... كذلك فإن دماغنا هو ذاته يتحول باستمرار، وبإمكاننا دوماً تحويله مجدداً؛ حيث يمكننا إعادة تشكيل ما سبق أن تشكل. فمهما تأثرنا بتجربة سلبية، أو حتى صدمية، فإننا سنرى أنه لا ذكرى، ولا ماضٍ أياً كان سوف يلتصق بنا بمثابة قدر محتوم.

وحين نتذكر، فإننا نعيد تنشيط شبكات، ونعطي حياة جديدة لدروب عصبية ماضية، وإنما ليس أبداً بالطريقة ذاتها، إذ إن دماغنا لا يتوقف عن إعادة التشكل. فكأن الذكرى يعاد تشكيلها: من

خلال ما عشناه منذ حدوثها، من خلال السياق الحاضر، ومن خلال حالتنا الانفعالية. وبهذا المعنى فإن ذاكرتنا حية، والذكرى الواحدة لن تكون أبداً هي ذاتها.

الشبكة العصبية التي تسلكها الذكرى هي أشبه ما يكون بدرب متعرج في غابة: فالدرب ذاته يختلف في كل مرة نسلكه. حيث يعاود العشب النمو، أو هو يزول، وقد تتساقط بعض الأغصان، كما أن عابرين آخرين غيّروا فيه فوسّعوه أو حفروه. فإعادة التذكر هي دوماً وفي الآن عينه إيجاد المعروف واكتشاف بعض الجديد.

ولكن إذا كانت كل ذكرى قابلة لأن تزار من جديد، وبالتالي يعاد بناؤها، فلا مفر من أن خيالنا يأخذ دوره في العملية. فمن المستحيل رسم الحدود ما بين الذاكرة والخيال بدقة. فلقد بينت عالمة الأعصاب الأميركية إليزابيث لوفتوس في أعوام السبعينات أنه توجد لدينا ذكريات زائفة. إذ نكون على قناعة بأن الأمور قد جرت بشكل معين، فإنما هذا ليس سوى ثمرة خيالنا، وليس ذاكرتنا وحدها. ونمر نحن ذاتنا بالتجربة نفسها. وذلك من قبيل إحدى وقائع التاريخ العائلي على سبيل المثال، والتي تَمَّتْ روايتها العديد من المرات أثناء تناول وجبات الطعام، على غرار طرفة لا تخلو من دفعنا إلى الابتسام، والتي تكوّن جزءاً من معاشنا المشترك الذي ينسج العلاقات مع الإخوة والأخوات، أو الأقارب والمقربين. كنا على قناعة تامة بمشاركتنا فيها حتى يأتي اليوم الذي نرويها فيه بحماس، فإذا بأحد الأقارب ينفجر ضاحكاً: «ولكنك لم تكن

موجوداً حينها!». لطالما سمعنا هذه الواقعة، وتخيلناها جيداً، بحيث أصبحت الذكرى أكثر حيوية من سواها مما جرى في الواقع. إثبات إليزابيث لوفتوس لهذه الذكريات الزائفة عرف أصداء كبرى في الولايات المتحدة بحيث أصبحت تؤثر على مصداقية شهادة الشهود وإقامة العدالة: حيث أصبح من المستحيل إدانة أحدهم على أساس شهادة بصرية وحدها، وذلك بسبب خطورة أن تكون الشهادة قائمة على ذكرى زائفة، ونتاج خيال الشخص أو بسبب وقوعه ضحية تلاعب من نوع ما.

وإذا لم تكن ذاكرتنا الظرفية موثوقة تماماً، فليس من اللازم كذلك الشك تماماً بذكرياتنا. فإذا لم تكن دائماً مثبتة، إلا أننا يمكن اعتبارها بمثابة مؤشرات يمكن مراكمتها، والمقارنة بينها وتأويلها. والمعنى الذي نعطيه لهذه الآثار الذاكرية هذه يتوقف على الآراء والقيم التي نربطها بها. وذلك هو دور الذاكرة الدلالية.

الذاكرة الدلالية أو ذاكرة الكلمات والأفكار

أن تعرف ما هو اللون الأصفر، وأن هذه الثمرة ذات القشرة السميكة الصفراء واللبِّ ذي العصير الحامض تدعى حامضة وتمت إلى عائلة الحمضيات يندرج ضمن الذاكرة الدلالية. أن تعرف أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت في العام 1945، وأن تعرف السياق والأحداث التي أدت إلى ثورة الجزائر هي ذاكرة دلالية بدورها. ربط حاجتي للشرب بكلمة «عطش» وكوني أرويت عطشي بالماء كل هذا يمت كذلك إلى الذاكرة الدلالية. وكذلك هي قدرتنا

على التعرف على صاعقة، أو على شعور بالحقد، أو التثبت من بيِّنَة ما، أو خيبة أمل، أو استيعاب مفاهيم الحرية أو التبعية، وفيما يتجاوز ذلك من الأفكار التي نكونها عن «وقائع الحياة»، كل ذلك يندرح ضمن الذاكرة الدلالية.

تتضمن الذاكرة الدلالية الكلمات التي نضعها للأشياء، والمفاهيم، والأفكار، و«الحقائق العامة». وفيها تندرج معرفتنا بالعالم. إنها لا تحمل الوقائع المعاشة، على غرار الذاكرة الظرفية، وإنما ما نستنتجه من هذه الوقائع. إنها تحتوي مجموع المعارف، والأفكار، والأحكام التي نكوّنها، سواء أكانت أحكاماً صريحة أم ضمنية.

غالباً ما يحدث في الواقع أن لا نكون على وعي تام بالأفكار التي نكوّنها عن الرجال والنساء، والحب، والسلطة، ومعنى الحياة، أو حتى عن أنفسنا. هذه الأفكار التي نكوّنها خارجاً عن وعينا تؤثر مع ذلك على علاقتنا بالآخرين وبالعالم، وبانفعالاتنا، وردود أفعالنا. وهكذا تتضمن ذاكرتنا الدلالية بعداً ضمنياً قوياً. ويمكن على سبيل المثال أن لا نعرف فعلياً أننا نجد أنفسنا غير جديرين بالحب: قد تنتج هذه الفكرة في ذاكرتنا الدلالية الضمنية من تجربتنا في سن الشباب حيث تَمَّتْ خيانتنا في حبنا الأول، أو في تجربتنا مع أمنا التي أهملتنا. فسلوكاتنا، وردود فعلنا تنتج عن التصور الذي كوّناه عن أنفسنا والذي ترسّخ منذ ذلك الحين: إننا نتقبل حينها بسهولة أكبر أن نتعرض للتجاهل أو عدم الاحترام، ولا نتوقف عند هذه الاتجاهات الخاطئة تجاهنا، لأنه تكمن في أعماقنا

تلك الفكرة القائلة بأننا غير جديرين بأن نُحَبّ. قد يؤدي هذا الحط من شأننا الذاتي إلى لحظات من القلق أو الكآبة بدون أن نتمكن من معرفة مصدرها. ومع أن الاستنتاج، والحكم على الذات، الناتج عن خبرتنا المعاشة، لا يقوم على أساس من الواقع - إذ إن التعرض للخيانة الغرامية، أو الإهمال من قِبَل الأم، لا يعني البتة أننا لا نستحق الحب وتقدير الآخرين لنا - إلا أنه مترسخ فينا، ويظل نشطاً. إننا نعتقد به حتى بدون أن ندري. ويمكن لهذه الاعتقادات الراسخة في الذاكرة الدلالية الضمنية أن تؤدي بالشخص الذي يحملها إلى حرمان نفسه من الانخراط في قصة عاطفية جديدة، أو حتى مجرد البحث عن السعادة. يتعين إذاً التوصل إلى تصحيح هذه «الحقائق» العامة المغلوطة، وهذه التعميمات المجحفة الناجمة عن الخبرات المعاشة، مما يسميه المعالجون النفسيون «الحقائق الانفعالية». لا يعني ذلك التنكر لما كان، وإنما يعني فهم أننا استخلصنا استنتاجات خاطئة. يمكننا مثلاً تذكّر فشل ذريع بدون أن نستنتج منه «أننا مجرد نكرات»، بل أن نربطه مثلاً بالفكرة القائلة «بأننا قادرون على التجاسر والإقدام»، أو أن «هذه التجربة البائسة كانت حافلة بالدروس للمستقبل». يمكننا أن نحتفظ في ذاكرتنا بخبرة فاشلة مررنا بها بدون أن نستنتج أننا فاشلون، وهذا ممكن لأن الذاكرة الدلالية تختلف عن الذاكرة الظرفية.

لم ينتظر الفلاسفة، والمؤرخون، والمحللون النفسيون أو الكتّابُ العلومَ العصبية المعرفية كي يفهموا أنه بالإمكان إعادة قراءة

الماضي وإعادة تأويله، وأن نصبح أكثر استنارة ووعياً وسعادة. إلا أنه بفضل هذه العلوم، وبتقدم التصوير المقطعي الدماغي، نحصل على تأكيد علمي لإمكانية استعادة هذا الوعي بالذاكرة الدلالية. إننا نعرف الآن أن كلاً من الذاكرة الدلالية والظرفية، إذا كانتا تقعان في الفص الصدغي الأوسط (قرن آمون وأميجدالا)، إلا أنهما تشغلان مكانين متمايزين. نحن لا نتكلم هنا عن موقع الذكريات ذاتها - والتي كما رأينا، ليس لها مكان في الدماغ -، وإنما نحن نتكلم عن وظائف تسمح «باستعادة هذه الذكريات». تتمايز ملكتا الذاكرة هاتان في تموضعهما في هذه المناطق من الدماغ، ولكنهما تتمايزان أيضاً بنشاط وظيفي مختلف. تنطلق ذاكرتنا الدلالية من ذاكرتنا الظرفية، إلا أنها مستقلة وتخضع لقواعدها الخاصة بها. في الواقع، إذا كان من المحال محو ذكريات من ذاكرتنا الظرفية، فإنه من الممكن لحسن الحظ إلغاء أو استبدال بعض الاعتقادات من ذاكرتنا الدلالية الضمنية. لدينا القدرة على تغيير الحقائق الزائفة - أي «الحقائق الانفعالية» - المرتبطة بذكرى معينة. وحين نتحرر من هذه الاعتقادات المغلوطة، ومن هذه التعميمات المفرطة، يمكننا استعادة القدرة على السير قدماً إلى الأمام. ولكن يتعين، من أجل ذلك، مساءلة الماضي، وفهم أن هذا الماضي ليس ماضياً، بمعنى أنه ليس هناك بمثابة أداة زينة على أحد رفوف المنزل أو بمثابة بيانات على قرص صلب، وإنما هو ينتظر، حياً، أن يعاد تشكيله، على غرار قصة بالإمكان روايتها بشكل مغاير، أو مادة بالإمكان إعطاؤها شكلاً جديداً.

تؤكد معلوماتنا الراهنة في العلوم العصبية المعرفية أنه من الممكن تماماً إعادة تذكر حدث معاش ماضٍ، ما زال حاضراً في ذاكرتنا الظرفية، والتأثير في الآن عينه على ذاكرتنا الدلالية الكامنة، من خلال إعادة إعطاء معنى جديد لهذه الواقعة، ومن خلال إعادة إعطائها تأويلاً جديداً، وبالتالي استخلاص «حقيقة عامة» جديدة. يشكل هذا الفارق في النشاط الوظيفي ما بين الذاكرة الظرفية والذاكرة الدلالية عنصراً مفتاحياً: إذ إنه يتيح لنا الإفلات من معاناة ذاكرة أليمة من خلال العمل عليها بغية تغيير معناها.

في روايته الذاتية بعنوان **العودة إلى رانس**، يقدّم عالم الاجتماع ديدييه أريبون إضاءة خاصة على هذه الظاهرة: إذ إن تأويلاتنا الراسخة في ذاكرتنا الدلالية الضمنية ليست فردية فقط، وإنما هي تمر من خلال منظور الموروث العائلي والاجتماعي. «فحقائقنا» متأثرة جزئياً، بل بالأحرى محددة، بوسطنا الاجتماعي. إذ تحمل ذاكرتنا الدلالية الضمنية عملياً بعض تصورات العالم الاجتماعي، وتنقل قواعد الحياة، والقيم والاعتقادات التي تشتغل انطلاقاً من تجربتنا الشخصية المعاشة، كما من موروثنا الاجتماعي الطبقي. يصف ديدييه أريبون، في كتابه، على وجه الخصوص ازدراء والديه المنتميين إلى الطبقة العاملة، ووالده تحديداً، له بسبب ميله للكتب وللدراسات حين كان صغيراً. فهذا الميل للآداب والعلوم الاجتماعية، وهذا الطموح إلى الارتفاع من خلال المعرفة يعود بالنسبة إليهما إلى «التطلع إلى أعلى من مستواه

الاجتماعي، وبشكل ما إلى خيانة وسطه الاجتماعي الأصلي وقيم الطبقة العاملة. ولأن والد ديدييه أريبون يفكر هكذا، ويبدو أنه يزدري أو على الأقل يحط من قدر حشرية ابنه المعرفية والفكرية، فإنه يحافظ على ذاكرة اجتماعية، على ماضٍ هو في الآن عينه ماضيه ذاته وماضي الطبقة العاملة في مجملها والتي تترسخ روايتها في ذاكرته الدلالية، الضمنية والصريحة على حد سواء (أي في الآن عينه الاعتقادات التي ورثها ومعلوماته المكتسبة حول شروط الطبقة الاجتماعية وتاريخها). ففي الوسط الذي أتى منه، ومنذ أجيال عديدة، لا يهتم الرجال بالكتب؛ إذ يوقفون الدراسة في سن الثالثة عشرة للذهاب إلى العمل ومساعدة الأهل من خلال الإسهام في دخل الأسرة. ويرث ديدييه أريبون هذه الذاكرة الاجتماعية عفوياً، ورغماً عنه. ويعترف أنه أحس طوال حياته، وحتى إلى يومنا هذا «بخجل اجتماعي»، وبإحساس غامض بأنه خان ذويه بأن أصبح رجل أدب، وجامعياً، ومؤلِّفاً. تأثير هذا التاريخ الاجتماعي، الذي أثاره في عمله بعنوان **العودة إلى رانس**، هو إذاً موجود داخله، حتى ولو لم يكن بمعنى ما راضياً عنه. إنه موجود في صلب ذاكرته الدلالية ويؤثر على إدراكه لذاته، وعلى تصوره للفوارق الاجتماعية. لا يدافع ديدييه أريبون عن فكرة ابن عامل «يتطلع إلى أعلى من مستواه» فقط لأنه يحب المدرسة، والأدب، وعلم الاجتماع. إذ ليس لديه حكمٌ من هذا القبيل على واقعه. إلا أنه طالما تم تكراره عليه طوال سنوات إعداده، ويظل صداه قوياً في نفسه. وهكذا يجد نفسه حاملاً، في صميم ذاكرته الدلالية، لأجيال

سابقة من أبناء العمال، أي كل أولئك الذين لا يتصورون إمكانية الارتقاء الاجتماعي. هؤلاء الذين أُهمِلوا من أبناء العمال قد تقبّلوا وضعية الخضوع الاجتماعي والاقتصادي، فحطوا بالمقابل من قيمة السمات المميزة «لأولئك الذين ينجحون»: الدراسة والمعرفة. وانتقل هذا التمثل الاجتماعي من ثم من الآباء إلى الأبناء.

لا يتعين بالضرورة أن نكون على وفاق مع موروثنا كي يستمر عبر أجيالنا - وإنما على النقيض من ذلك تماماً. وقد نستغرق وقتاً كي نفهم - وأحياناً لا نتمكن أبداً من ذلك - أننا نحمل في داخلنا، إضافة إلى ماضينا الشخصي، ماضي أجدادنا وطبقتنا الاجتماعية. فماضي من سبقونا المعاش ليس مطبوعاً في ذواتهم وذاكرتهم الظرفية فقط. فذكريات الذاكرة الظرفية ليست فعلياً معطيات موضوعية، بل هي تتأثر بتجاربنا الانفعالية وبالسياق الاجتماعي الثقافي الذي جرت فيه. فالأحكام، والدروس، والتأويلات المستخلصة من تجارب ذوينا، خلال مجرى حياتهم، تتحدد نسبياً بالسياق الاجتماعي، وتشكل صلب الذاكرة الدلالية، الضمنية إلى حد كبير، والتي تستمر من جيل إلى جيل. فماضينا لا يبدأ مع ولادتنا، وإنما يجد أصله قبل ذلك بكثير، أي في حياةٍ، ومعتقداتٍ، وأفراحِ ومعاناةِ من سبقونا، والذين نرثهم أحياناً بدون أن ندري. فإذا لم نتوصل إلى الوعي بذاكرتنا الدلالية، وتوضيح محتواها، قد نتعرض لخطر العيش غرباء عن أنفسنا، وأن نجد أنفسنا عاجزين إزاء الآلام التي نعاني منها. وبدون أن يكون على وعي بذلك حقاً، فبالنسبة إلى ديدييه أريبون أن يحب القراءة

والدرس، وأن يكون مثلياً، كانت تعني له زمناً طويلاً أن يكون مذنباً لأنه خان ذويه. ومن خلال الكتابة، وبالتالي إعادة زيارة ذاكرته الظرفية، فَهِمَ لماذا وصل به الحال إلى الشعور بهذه الخيانة. وهكذا أصبح بإمكانه أن يتحرر شيئاً فشيئاً من هذا الاعتقاد وتطوير تأويل جديد لواقعه: ألا يعني النجاح في المدرسة والارتقاء الاجتماعي تكريم أهله وشكرهم على كل الجهود التي بذلوها من أجله، وليس الشعور بالخجل منهم؟ وهكذا تمكن ديدييه أريبون من استبدال التصورات والأفكار العامة الموروثة من طبقته الاجتماعية بتأويلات جديدة، وتمكن بذلك من تغيير ذاكرته الدلالية. ولا يتعين أن يكون المرء كاتباً لتحقيق هذا التحول. وكما سنرى، فإننا قادرون جميعاً، وإلى حد ما، من إعادة كتابة تاريخنا.

الذاكرة الإجرائية أو مهارة عازف العود

الذاكرة الثالثة، أي الذاكرة الإجرائية أو ذاكرة المهارات، سبق أن أشار ديكارت إليها عندما أشاد بمهارة عازف العود: إنها ذاكرة عاداتنا، وأرجاعنا العصبية، تلك التي تتيح لنا قيادة سيارة، أو ركوب دراجة، أو العزف على البيانو، أو ببساطة أكبر تنظيف أسناننا بالفرشاة أو استعمال أدوات المائدة، وبدون أن نكون فعلاً على وعي تام بمجمل الحركات والقدرات التي نوظفها في ذلك. إننا لا ننتبه إلى كل ما نعرفه بفضل هذه الذاكرة الإجرائية.

كل شيء يبدأ بالتعلم، إذ يتعين أن نستوعب هذه الحركات أو

«الإجراءات» وتكرارها بغية تسجيلها، ومن ثم ومع الوقت، تصبح أكثر دقة، وتمكناً، ونتوصل إلى إتقانها. فنتموضع بشكل أفضل في المكان والزمان، وتصبح حركاتنا طبيعية وتلقائية، تستلزم منا الأقل فالأقل من الانتباه كي نقوم بها، وبحيث نحرر إمكاناتنا بتوظيفها في مجال آخر. فالطفل الذي يتعلم قيادة الدراجة يركز في البداية على حركة يديه التي تمسك بالمقود، وأصابعه التي تتعامل مع الفرامل، ورجليه على الدواسات، والحفاظ على توازنه... ومع الوقت، وبسبب المران والتكرار ستترسخ حركاته، ويقوم بها بدون الانتباه إليها أو التركيز عليها، وكأنه أصبح ينفّذها غريزياً، محولاً انتباهه إلى أشياء أخرى من حوله: من قبيل بيئة الطريق وأخطارها، أو جمال المناظر، أو يسرح بأفكاره خلال نزهته... فهو لا يعود بحاجة إلى بذل جهد للتمكن من قيادة الدراجة، حيث يقوم جسده بذلك تلقائياً. يكتب مين دي بيران في العام 1804 أن «الجسد قادر على الاحتفاظ بالحركات وتكرارها عند حاجته إلى ذلك». توكيد الفيلسوف الفرنسي هذا وهو من أوائل مطوري علم النفس المعاصر، يشكل أول تعريف للذاكرة الإجرائية (والتي أطلق عليها حينها «الذاكرة الميكانيكية»).

وقبل ذلك بقرن من الزمان، أشار ديكارت إلى عازف العود حين كتب أن ذاكرته تشتغل من تلقاء ذاتها وكأنها فاعلة فيه، وكأنها قد «وُضِعَت في أصابعه»، أو كأن يداه «تعرفان» نيابة عنه. وكما أن الولد يقود دراجته بارتياح، فإن الموسيقي لا يعود بحاجة إلى تركيز انتباهه على حركاته، إذ تَخلَّص بفضل سنوات من الجهد من

ضرورة الانتباه لكل من مكونات تقنية عزفه، ويستطيع الآن التفرغ التام لعزف قطعة الموسيقى.

كل هذه المهارات المعرفية المتراكمة خلال عشرات السنوات أحياناً، وحتى منذ أوائل حياتنا، تساعدنا وتدعمنا في الحاضر. فالتنزه في البرية على الدراجة، والجلوس إلى البيانو بعد انقطاع العديد من السنوات عن المفاتيح والاستعادة التدريجية لقطعة من موسيقى شوبان بالغة التعقيد، أو لعب التنس من خلال تسديد ضربة بدون التفكير في كل تسلسل الحركات، فإن ذلك كله هو أيضاً أن نعيش ماضينا.

الذاكرة الإجرائية ليست متموضعة في قرن آمون أو الأميجدالا، كما هو حال الذاكرة الظرفية والذاكرة الدلالية، وإنما هي تتموضع في مناطق أخرى من الدماغ، أي في المخيخ أساساً، وكذلك في عقد قاعدة الدماغ والقشرة الحركية، وهي مناطق منخرطة في ضبط النشاط الحركي.

يمكننا إذاً، فيما يتعلق بالذاكرة، أن نثق بجسدنا ونعتمد على حضور الماضي هذا. فالآثار الذاكرية قد تتخذ مسارات ملتوية، بعيداً عن الفعل الواعي والإرادي للتذكر. وقد تكون هذه الذاكرة الإجرائية حليفنا الأكثر وفاءً في الوجود؛ فالزمن ليس له سوى تأثير محدود عليها. فالمرضى الذين يعانون من الألزهايمر قد ينسون مكان زواجهم أو اسم ابنتهم. . . إلا أنهم لا يزالون يعرفون لمدة طويلة قيادة السيارة، أو تحضير البيض المقلي، أو ربط شريط أحذيتهم.

وإذا كانت علاقتنا بالماضي تبدو صعبة أحياناً يشوبها الندم، والإحباط، وحتى الصدمات، وإذا كانت أحياناً عاصفة، بحيث تبرز بعض الذكريات المؤلمة فجأة رغماً عنا، وتبدو قامعة وخانقة أحياناً، فلا يتعين علينا أن ننسى أن ماضينا يعمل دوماً، بشكل خفي، كي يرافقنا في يومياتنا. فماضينا حاضر في كل من حركاتنا الأكثر تفاهة: من قبيل المشي أو ركوب دراجة أو صعود سلَّم أو نزوله.

لقد مررتُ بهذه التجربة، في البرية، حين كنت تحديداً مشغولاً بكتابة هذا الفصل، من ضمن أشياء أخرى. حاولت أن أفتح مقعد دراجة نارية قديمة كي أصل إلى غطاء خزان الوقود الموضوع تبعاً لذاكرتي تحت هذا المقعد. وفي دوراني حول الدراجة، كانت لدي فكرة غامضة في الرأس: قطعة معدنية في طرف سلسلة طويلة كانت في ذاكرتي، ولكنها قاومت بعناد: بحيث استحال إيجاد هذه القطعة. وبمجرد أن امتطيت الدراجة ذهبت يدي، بعد سنوات طوال من استعمالي للدراجة لآخر مرة، إلى خلف المقعد على اليمين في فجوة غير مرئية وأمسكت هذه القطعة المعدنية. ذلك أن يدي، على غرار عازف العود الذي أشار إليه ديكارت كانت تعرف أفضل مني أين تجدها: لقد «وُضِعَت» ذاكرتي في يدي.

وبالطريقة ذاتها، قد يحدث لنا أن نتنبه، عند مدخل بناية ما، أننا نسينا أرقام فتح الباب ونعود فنجدها بمجرد أن نضع أصابعنا على المفاتيح، واضعين ثقتنا في أصابعنا. يبدو أن جسمنا يمتلك أحياناً ذاكرة أفضل من ذاتنا!

هذه الذاكرة الإجرائية لاواعية ليس بمعنى الكبت اللاواعي الفرويدي، وإنما لأنها تتكون من حركات آلية لم نعد نعيها. إذ قد اعتدنا عليها لدرجة أنها أصبحت تبدو لنا طبيعية، تلك العادة التي تم تدريبها طويلاً تكاد تصبح بمثابة «طبيعة ثانية». في قوة هذه العادات، يصبح ماضينا حاضراً بطريقة فائقة القوة واللطف في آن واحد.

تُكَوِّن الذاكرات الظرفية، والدلالية، والإجرائية، ذاكراتنا الثلاث الأساسية؛ ونحن نقصدها عند الحديث الشائع عن «الذاكرة». وعلى سبيل المثال، فحين نتذكر تحديداً مقرراً في التاريخ، فإن هذه الأنواع الثلاثة من الذاكرة يتم استدعاؤها في الآن عينه. نتذكر أن هذا المقرر كان يُقدَّم في صبيحة أيام الربيع، وأننا كنا نتابعه بشوق، وأن الأستاذ بدا لنا لأول مرة لطيفاً ومثيراً للاهتمام: كل ذلك يمت إلى الذاكرة الظرفية. كان الدرس يعالج الحرب الباردة، والتعابير أو المفاهيم التي استوعبناها، من قبيل «خليج الخنازير» [المواجهة الكوبية الأميركية]، أو «توازن الرعب» [الرعب النووي بين أميركا والاتحاد السوفياتي]، وبوجه أعم كل المعلومات ذات الصلة بهذا الحادث، تعود إلى الذاكرة الدلالية. وعندما نساعد تلميذنا، بعد ثلاثين سنة، على تنظيم مخطط واجبه حول الحرب الباردة، ونتحقق من أننا لم ننسَ شيئاً من طريقة إعداد هذا الواجب، لكثرة ما كررناه خلال أيام دراستنا بحيث أصبح محفوراً فينا بشكل لا يمحى، فإن ذاكرتنا الإجرائية هي التي تأخذ كامل مداها.

هذه الأنواع الثلاثة من الذاكرة هي الذاكرات طويلة الأجل، إنها تتيح لنا أن نفهم كيف يمكننا أن نعالج الماضي. ويضاف إليها ذاكرتان قصيرتا المدى: الذاكرة العاملة، والذاكرة الحسية.

الذاكرتان قصيرتا المدى: الذاكرة العاملة والذاكرة الحسية

تتميز ذاكرتنا العاملة عن الذاكرات طويلة المدى خصوصاً في أنها لا تحتفظ بالمعلومات إلا لمدة قصيرة من الزمن - دقيقة واحدة على أبعد تقدير. تلك هي الذاكرة التي نلجأ إليها على سبيل المثال كي نحفظ رقم هاتف تُرِكَ على مجيبنا الآلي. تختلف هذه الذاكرة العاملة عن الأنواع الأخرى من الذاكرات في أنها تمتلك «قدرة تخزينية» ضعيفة إلى حد ما: سبعة عناصر في المتوسط يمكن أن تتواجد فيها. كما أن نشاطها الوظيفي مختلف بدوره: فخلال دقيقة أو ثلاثين ثانية نقوم «بمحو» كل الباقي ولا نتذكر سوى الأرقام الثمانية لرقم هاتف معين. ولقد رأينا أن ذاكراتنا طويلة المدى، ولأنها تظل حية، لا يمكن مقارنتها بذاكرة تخزين الحاسوب. وفي المقابل، فإن ذاكرتنا العاملة تتصرف بشكل محسوس على غرار ذاكرة الحاسوب الحية التي تسمح بالتخزين المؤقت للبيانات الضرورية لتنفيذ أحد البرامج. وفور توقف الحاسوب عن استعمال هذه البيانات، فإنها تزول تلقائياً.

تُفسِّر أهميةُ هذه الذاكرة العاملة بالتالي نموَّ الفص ما قبل الجبهي والذي يشكل مستقرها، مما يعطينا تلك الجبهة العريضة، المستقيمة والعليا المختلفة عن جبهة أقاربنا من الرئيسات، والتي

تتصف بالتسطح والانكفاء إلى الخلف. تميزنا هذه القدرة على الاحتفاظ المؤقت بالمعلومات المنتقاة بغية حل مشكلة ما عن بقية الثدييات، تماماً كما تميزنا قدرتنا على استرجاع تاريخنا في رواية ما، مما يشكل الخاصية المميزة للذاكرة طويلة المدى. وهكذا يبدو إذاً أن كلاً من الذاكرتين طويلة وقصيرة المدى تميز إنسانيتنا. وهكذا تتقارب الذاكرة العاملة مع منطقة فرز تمر المعلومات من خلالها، وحيث يتم اختيار تلك المعلومات التي سيتم حفظها في الذاكرة طويلة المدى.

ولكن الأكثر أهمية كذلك: إن الذكريات الحاضرة في ذاكرتنا طويلة المدى يمكنها العودة ثانية إلى هذه الذاكرة قصيرة المدى بغية «إعادة العمل عليها»، و«إعادة معالجتها» و«إعادتها» من ثم إلى الذاكرة طويلة المدى. وهكذا تصرّف ديدييه أريبون خلال كتابته رواية **العودة إلى رانس**، إذ استرجع ذاكرته الظرفية وأحالها إلى الذاكرة العاملة بغية إعطائها معنى جديداً في ذاكرته الدلالية. وذلك هو الحال أيضاً حين الشغل مع الاختصاصي النفسي، أو خلال البوح إلى صديق، إذ نستعيد ذكرى فشل ما. إننا نستخرج ذكرى ذلك الظرف من ذاكرتنا الظرفية، ونحيلها إلى ذاكرتنا العاملة، ومن خلال الإضاءة الجديدة عليها بواسطة الحوار مع الاختصاصي النفسي أو الصديق، فإننا نعيد الشغل على هذه الذكرى من جديد بحيث نعطيها معنى جديداً. اعتقدنا سابقاً أننا فشلنا بشكل ذريع، ولكن نرى الآن أننا واجهنا حينها مقاومة الواقع العنيدة وبالتالي عشنا تجربة مليئة بالدروس. سوف تلحق هذه الذكرى المعدَّلة

خلال الشغل عليها في الذاكرة العاملة بذاكرتنا طويلة المدى، وتحديداً الذاكرة الدلالية، حيث تكتسب عندها نكهة جديدة ومعنى مغايراً. وهكذا يأخذ تعبير «الذاكرة العاملة» كامل معناه: فذاكرتنا لا تكتفي بمجرد حفظ الماضي؛ وإنما هي تعيد العمل عليه.

يتقارب اشتغال الذاكرة الحسية من شغل الذاكرة العاملة، وإنما لمدى زمني أكثر قصراً: ليس دقيقة واحدة، وإنما ثانية واحدة على أبعد تقدير. ففي جزء من الثانية تخزن مجموعَ الإدراكات المتولدة عن البيئة (صور، أصوات، روائح، مذاق. . .). إنها تحتفظ بأمانة ولكن لمدة جد محدودة بالمعلومات التي توفرها حواسنا. يبقى منها فقط ما يبدو مفيداً للحاضر أو للمستقبل، أو ما يتضمن شحنة انفعالية قوية. تتحول المعلومات الحسية المنتقاة إلى الذاكرة العاملة، ومن ثم يتحول الهام منها إلى الذاكرة بعيدة المدى. فالذاكرة الحسية هي إذاً ذاكرة شبه آلية، وهي نتيجة قدراتنا الإدراكية. ولا تسري المعلومات فيها، على وجه الخصوص، إلا في اتجاه واحد، إذ لا تعيد معالجة المعلومات. وليس فيها عودة إلى الماضي، وبالتالي فهي قليلة الأهمية بالنسبة إلى ما نحن بصدده، بصدد التخزين وإعادة الشغل على الذكريات.

تبين لنا العلوم العصبية المعرفية بالتالي أننا الآن نقيم علاقة ثابتة ومعقدة مع ماضينا، وهي علاقة ذات أشكال خمسة تتطابق مع أنواع الذاكرات الخمس التي عرضناها للتو. فهناك العلاقة مع

تاريخنا الشخصي، الغني بما لا يحصى من الظروف التي تنتظر العودة، واستعادة تذكرها، وربما إعادة تشكيلها (الذاكرة الظرفية)، وكذلك العلاقة مع هذا الماضي ذاته من خلال منظور الاعتقادات الكامنة التي ولّدها، والقادرة على إعاقة سعادتنا أو تسهيلها من خلال إعطاء معناها لذاكرتنا الظرفية (الذاكرة الدلالية)؛ وكذلك العلاقة مع مجمل حالات التعلُّم التي لم نعد على وعي بها، ولكننا نعتمد عليها في كل لحظة (الذاكرة الإجرائية)؛ وهناك كذلك العلاقة مع الماضي القريب جداً الذي يضم المعلومات المفيدة في الحاضر (الذاكرة العاملة)؛ وهناك العلاقة مع ماضي اللحظة الراهنة، أي اللحظة الضرورية لتحديد ما يهم مستقبلنا من مجمل مدركاتنا (الذاكرة الحسية). نحن إذاً بصدد ذاكرات خمس تشتغل بانسجام فيما بينها، وفي علاقة دائمة.

تتراكم كل هذه الطبقات من الماضي في قلب حاضرنا: إنها **تُكوِّن** هذا الحاضر. تلتقي هذه الفكرة مع ما يقوله المؤرخ فرنان بروديل عن حاضر حدث تاريخي. إذ يكتب في تمهيده الرائع لكتابه عن البحر المتوسط، أنه في قلب كل منها تتراكم مختلف طبقات الماضي، على شكل ذاكرات متباينة. ولكي نفهم حدثاً تاريخياً، يتعين إذاً استدعاء الزمن البعيد جداً (تأثير الجغرافيا والمحيط الطبيعي)، والزمن طويل المدى (تاريخ الحركات الاجتماعية، والهجرات الإنسانية، والأفكار)، وكذلك الزمن قصير المدى (أي زمن الأحداث ذاتها، الفتن البشرية، وأهوائهم، وحالات غضبهم،

وطموحاتهم). يشبه الزمن طويل المدى «موجات الأعماق» وحالات المد القوية التي تظهر على سطحها «أمواج هائجة». ولكي نفهم الحاضر يتعين أن نأخذ بالحسبان حالات المد العميقة، وحالات الهيجات السطحية في آن واحد، أي موجات الأعماق وزبد السطح؛ أي يجب مكاملة مختلف مستويات الماضي في كل مترابط.

ويصح هذا المبدأ على الأفراد كذلك. فنحن لدينا من الماضي أكثر مما نظن. إننا نعيش نحن أيضاً في حاضر مكون من عدة طبقات من الماضي، مما يشكل الخيطان التي تكون نسيج الوجود، ولب الحاضر ذاته.

الفصل الثالث

الماضي،
باب الولوج إلى الحاضر

إذا كان الماضي يعيش فينا، ولا يتوقف عن التأثير علينا، إلا أنه يبدو أننا نعيش لحظات «حاضرٍ محضٍ»، وأن بإمكاننا أن نكون كلياً في اللحظة الراهنة. نكون عندها، في صميم هكذا لحظات، متحررين من ماضينا، وكأنه وُضِع في حالة صمت. فعندما نتأمل مشهداً طبيعياً، وعندما ننزل إلى البحر ونسبح، وينتابنا فجأة شعور بالامتلاء، وعندما نتذوق طبقاً شهياً، وباختصار عندما ندرك العالم بحواسنا، ألا نكون ببساطة **في الحاضر**، هنا والآن؟ إذا دققنا النظر في الأمر، فلا شيء أكيداً حقاً. إذ هنا أيضاً تلعب ذاكرتنا وتجاربنا الماضية دوراً مفتاحياً.

فلنأخذ حالة إنسان حالم، مستغرق في أفكاره، يتأمل مشهداً طبيعياً مألوفاً، فيه الوديان وتكسوه الخضرة، وفي وسطه بحيرة هادئة. منظر طبيعي من إقليم مسقط رأسه. كان يحب، في مراهقته، المجيء إلى هنا وتأمل المشهد. كان هذا المنظر يولّد

الفرح لديه: فهذا العالم الهادئ والندي كان هو ذاته العالم الذي كان يطمح إلى مغادرته. ففيما وراء الأفق الذي ينظر إليه حالماً، كان يتوقع طموحاته وعالماً حافلاً بالإمكانات: سوف يذهب إلى باريس، ويحصل على وظيفة نادل في مطعم فخم، ويعبر المراحل كي يصبح رئيس قاعة، ومن ثم لم لا مالك مطعمه الخاص؟ سوف ينجح، ويحقق إنجازات كبرى، ويصبح ذا مكانة مرموقة. لم تكن هذه الأشعة الذهبية على وديان مرابع طفولته سوى كناية عن وعود كبرى؛ حيث سيتجلى مستقبله من خلالها. ومرت السنون، حاملة قسطها من الانتكاسات والخيبات. لقد رحل إلى باريس ولكن الأمور لم تسر كما كان متوقعاً، فالفرص كانت نادرة ومحبطة للآمال؛ والطريق الذي اخطته لحياته قاده إلى مأزق. فلقد عرف الحب، ولكنه عانى أيضاً من الخيانة والجروح النفسية. وها هو يعود إلى موطنه الأصلي في الأقاليم وحيداً وخائباً. عاد إلى نقطة الصفر، وفي مواجهة منظر الوديان الخضراء وتلك البحيرة ذات المياه اللامعة تحت الأشعة المذهبة. إلا أن تأمله يولد لديه منذ الآن الحزن والمرارة. إنه يعود إلى جمال الطبيعة ذاته، إلا أنه جمال يصطبغ بآمال خائبة. ففي هذا المنظر الطبيعي أصبح يرى الآن قسوة العالم الذي لا يرحم، المخبّأ وراء مظهر من الدعة والسكينة. فما عاشه، وما قاساه من خيبات، وما فهمه من الحياة، وماضيه المكلل بالفشل والانتكاسات، ووعيه المستجد بواقعه، كل ذلك يتخلل أسلوبه في عيش الحاضر. فماضيه أسبغ طابعه على تجربته وكيفية إدراكه للمشهد الطبيعي. وهكذا فتأمله لا يتم فقط

«هنا والآن»؛ وإنما هو يستدعي تاريخه ويتحول إلى انعكاس مضاد لأحلام مراهقته. وعندما نسترسل في رؤية مشهد طبيعي، أو عمل فني، أو وجه جميل. . . فلن نكون فقط في اللحظة الراهنة، وإنما نحن هنا والآن مع كل ماضينا. وكأن تلك هي الحالة عندما تأمّل خلال مراهقته وجهة النظر ذاتها: لقد كان في مواجهة كل طفولته، وآماله وتوقعاته، واستعجاله ومثاليته. وإدراكه للمشهد الطبيعي كان يحمل عندها صبغة حالته الداخلية.

«لا يوجد إدراك لا يكون مصطبغاً بالذكريات»، كما يكتب برغسون في عمله بعنوان **المادة والذاكرة**. فرؤية البحيرة لم تتغير، إلا أن ذكريات هذا الرجل، ذاتها، هي التي تغيرت، وإدراك المنظر الطبيعي يتحور بالتالي.

تربية الحواس

تستدعي إدراكاتنا ماضينا لأنها تحمل فيها تقريباً على الدوام دمغة الانطباعات الماضية والذكريات المرتبطة فيها. إلا أن هذه الفكرة قد تغطي كذلك معنى آخر: إذ بدون أن تستدعي بالضرورة ظرفاً محدداً من الماضي، فإن كلاً من إدراكاتنا ترجع إلى نوع من التعلم. فنحن لا نستوعب الحاضر في كل غناه إلا بمقدار ما سبق أن تعلمنا إدراك مشهد طبيعي والاسترسال في تأمله، أو تذوق عمل فني وجماليته الخاصة، وإدراك النكهة الخفية الأخاذة أحياناً لأحد أطباق الطعام أو لكأس من النبيذ. . . وعلى الإجمال لأننا تعلمنا

أن ننمّي في الماضي مهارة ما أو حساسية من نوع ما، أو ننمّي ببساطة حاسة الذوق.

أفضل على الخصوص نبيذ بُورغونية. أكتشف فيه راهناً مجموعة كاملة من الخصائص التي لم أتعرف عليها لثلاثين عام خلت، عندما تم تعريفي على ملذات النبيذ. أي عطر خشب سنديان برميل النبيذ، أو أريج عصير الفريز القوي، ولسعة عذبه في الفم، وتلك الحموضة اللذيذة في النهاية والتي تحمل شيئاً من طعم حبة ملبس إنجليزية. . . عَرَفَتْ أنواع نبيذ بورغونية كيف تسحرني رأساً، إذ إنها تُسِرُّني بما لا شك فيه. ولكن مع مرور الوقت فقط تمكنت من إعطائها حق قدرها نظراً لخصوصيتها الخفية التي تتطلب من يعرف اكتشافها. لقد تعين عليَّ تعلُّم تذوقها وتربية حاسة شم أنفي وتذوق حلقي. تعين عليَّ مقارنتها بأنواع النبيذ الأخرى، وخصوصاً أنواع نبيذ منطقة بوردو، وتفهُّم كيف أتعرف على نوعية كرمة بورغونية وعنبها الأسود. وعندما أرفع كأساً من هذا النبيذ إلى شفتي، لا أفكر بكل هذا، وإنما أنخرط كلياً في اللحظة الراهنة والمتعة التي توفرها لي. ولكنني أعرف أن هذه المتعة أصبحت ممكنة من خلال تعلُّم طويل الأمد: أدرك التعقيد الذي كان يفلت مني في البداية، وأثناء تذوقه، أقارنه ضمنياً بأنواع أخرى من النبيذ وإدراكاتي السابقة لكل ذلك. أحب على سبيل المثال التعرف على الكرمة السوداء لبعض أنواع النبيذ الأجنبية التشيلية والأرجنتينية: فالكرمة هي ذاتها، إلا أن التربة، والمناخ، وطريقة العصير والتخمير تختلف كلياً. وأنا أقدرها وأتذوقها بشكل عفوي

وببساطة. ولكن إذا توقفت عند مذاقها، يحدث لي أن أكتشف ذلك المكون للهوية المشتركة فيما بينها، وهو قسط من التاريخ الذي أصبح جزءاً من تاريخي. هذا الحضور للماضي ولتربية مديدة لا تتجلى كلياً في كل كأس نبيذ أرفعه إلى شفتي؛ إذ إنه يتوقف على مدى الانتباه الذي أعطيه لمتعتي، ولما يثيره النبيذ لدي ويذكرني فيه. فتذوق النبيذ يجعلني أسافر إلى ماضيَّ الشخصي مع بقائي حاضراً جداً للحاضر، مما يشكل نوعاً من المفارقة.

وكذلك هو الحال في العديد من التجارب التي تتطلب اكتشافاً وتعوّداً كي يتم استيعابها وتذوقها. وعلى سبيل المثال، فبعض أنواع الموسيقى التي تبدو صعبة للوهلة الأولى، من قبيل موسيقى روك صاخبة جداً. إذ تتركنا محاولات الاستماع الأولى في حيرة من أمرنا نظراً لعجزنا عن إدراك أنغامها وإيقاعاتها. إلا أن سماع أحد الألحان التي نتمنى تكرار سماعها، أو إذا أصر أحد الأصدقاء على مشاركتنا تذوقه لهذه الموسيقى، وبفضل الاستماع المتكرر والمتتالي سوف نتآلف معها، وشيئاً فشيئاً سيتغيّر ذوقنا. وسننفتح على موسيقى الروك هذه ونبدأ بالتلذذ التلقائي والمباشر بالاستماع إليها بدون جهد. وهكذا فقد تعلمنا أن نحب هذا النوع من الموسيقى.

وبالتالي، فالاستماع، والتذوق، والشم. . . والحساسية بمجملها قابلة للتعلم، وللتنمية. فإدراكاتنا والإحساسات والانفعالات المرتبطة بها لا تعطى مباشرة. فالنادر من الأطفال هم من يحبون القواقع ويقدرونها. ولكن عدد منهم سوف يشعرون، مع

الوقت، بلذة فائقة لتذوق طبق من القواقع مصحوباً بكأس من النبيذ الأبيض. ولكن قبل أن يتمتعوا بهذه القواقع اللذيذة، عبروا مراحل مختلفة قد يكونون قد احتفظوا بذكراها: إذ بعد أن أبدوا نفورهم من ثمار البحر هذه لسنين عديدة، ها هم يقولون «فليكن سوف أجرب» إلى أن انتهى بهم المطاف في أن يربطوا في فصل الشتاء طعم ثمار البحر هذه بعطلهم على شاطىء البحر. ومنذ ذلك الحين، فإن محبتهم لتذوق المحار ستصبح مرتبطة بمتعة السباحة المشمسة، وكذلك بمتعة وجبات الشتاء مع الأسرة أو الأصدقاء.

فالتمتع بالنبيذ المميز، والموسيقى الفريدة، والمحار طيب المذاق، هو تمتع حواسنا بفضل هذا الماضي الذي منحنا تلك الذائقة والمفاتيح، والذي درّبنا، وعوَّدنا بكل بساطة. وهكذا فبينما نبدو مستغرقين كلياً في نعمة اللذة الحاضرة، فإن كل ماضينا هو الذي يعبأ. فقدرتنا على الإدراك لها تاريخها. حتى في قدرتنا على الإحساس أو التذوق، أو الاستماع، أو اللمس أو النظر، فإننا لا نعدو كوننا نتاج ماضينا، وليس بمثابة كائنات مسلوخة عن الزمان، ومكرسين لا ندري بأي معجزة للبقاء على صلة بالهُنا والآن.

الرهافة

استعمل الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم الكلمة الجميلة «رهافة الذوق» كي يشير إلى هذا الذوق الذي يتم تعلُّمه، والذي لا يعود إلى الطبيعة ولا إلى أي موهبة فطرية. هذه الرهافة تُنمّى: فمن خلال معاشرة الجمال، نتعلم إدراك خفاياه، سواء في الأعمال

الفنية كما في تأمل مشاهد الطبيعة، وبدون أن نحتفظ بالضرورة بالذكرى الدقيقة لتعلُّمنا، فإننا نحتفظ بأثرها الحي في التمتع الفني. وهكذا فماضينا هو إذاً أكثر حضوراً بمقدار ما يكون خفياً، إلا أنه يساندنا حتى في قلب بعده عن الأنظار، ويغذينا، ويجعلنا قادرين على التمتع الأكثر تنوعاً ورهافة.

امتلاك «رهافة الذوق» هذه بالنسبة إلى ديفيد هيوم يعود بالتالي في شطر منه إلى استعدادات طبيعية وفي الشطر الآخر إلى التعلم. ولكن هذه «الرهافة» لا تمنع الوصول إلى الملذات البسيطة والمباشرة. إذ لا يحتاج الخبير كي يحب نوعاً معيناً من النبيذ إلى تفحصه مطولاً، كما يفعل البعض. إذ يكفيه أن ينظر إلى لونه وكثافته ويديره في الكأس ويشتمّه ثم يحمله إلى شفتيه كي تتركز كل تجربته المتراكمة في إدراكه وتوقظ متعته. كذلك هو الحال أمام لوحة فنية، فالهاوي الفعلي جدير بأن يستمتع ببساطة، ومباشرة بجمالية اللوحة وبإمكانه إرشاد النظارة الأقل خبرة بدون الانخراط في شرح مفصل - وذلك من مجرد توجيه الأنظار إلى جمالية العمل. يمتلك هؤلاء الخبراء ما يكفي من المعرفة لتغنيهم عن استعراض معلوماتهم، وهذه الرهافة راسخة فيهم بحيث تتيح المعايشة المباشرة لتجربة التأمل الفني، ونضارة اللحظة المعاشة. يختصر أوسكار وايلد المسألة قائلاً: «أنا أعشق المسرّات البسيطة، إذ تشكل الملجأ الأخير للنفوس المتمايزة».

لسنا جميعاً خبراء نبيذ أو متخصصين بفن الرسم الكلاسيكي،

إلا أنه بإمكاننا استيحاء الخبرات الفنية، وتعلُّم، على مستوانا، التقاط جماليات فن الرسم هذا وتربية أذواقنا بغية توسيع مدى متعنا الفنية. وكلما تمكنا من تنمية هذه الرهافة التي يشير ديفيد هيوم إليها، اغتنت حياتنا وتعقدت، وبالتالي ازدادت متع تذوقنا. فالمتعة الراهنة التي نحصل عليها من تذوق النبيذ المميز لمنطقة جورا، أو الاستماع إلى موسيقى الروك الصاخبة، أو تأمّل لوحة كلاسيكية، حاضرة بالطبع، إلّا أنها تتطلب التعلم وهي بالتالي متصلة بماضينا الذي يكمن في صلب إدراكنا.

نظن أن إدراكاتنا وما يندرج عنها من انفعالات مسألة عفوية، بينما العديد من حالات الجمال لا تتجلى منذ النظرة الأولى. ولكي ندركها تعين أن يتم كشفها لنا. وكما يشير إليه أوسكار وايلد في أحد نصوصه المليئة بالطرافة، فإن نظرتنا تتحدد بتعلُّمنا، وثقافتنا، وحتى أيضاً بتاريخ الفن. «فالأشياء تكون لأننا نراها، وما نراه وكيفية رؤيتنا له، تتوقف كلها على الفنون التي أثرت فينا. [. . .] فالناس يرون، الآن، الضباب، ليس لأنه موجود، وإنما لأن العديد من الشعراء والرسامين علموهم إدراك جمال آثاره الخفي. فالضباب موجود منذ قرون في لندن. وقد أجرؤ على القول إنه كان هناك دوماً. ولكن لم ينتبه إليه أحد [. . .]. إذ لم يوجد إلا يوم إخترعه الفن، أي إخترع تأمله. [. . .] إذ حيث يدرك الإنسان المثقف جماليات الضباب، فإن الإنسان الجاهل لن يدرك سوى إصابته بالزكام».

فقبل رسوم وليام ترنر أو أبيات شعر الشعراء حول الضباب، لم يكن الإنجليز حساسين أبداً لجماليات الضباب اللندني. فرسمُ ترنر كأنه فتح عيونهم. فمن خلال فرشاته، اكتسى الضباب خامة كاملة من الألوان، عين الفنان وحدها استطاعت كشفها، بحيث يظهر في حركة فنية فريدة وسرية، الطريقة البخارية التي بواسطتها يخترق الضوء الضباب، وكأنه يغرق فيه. وبفضل التأويل الذاتي الذي أجراه الرسام على واقع مألوف، تغيرت نظرتنا وتحولت. فقد جعلنا نكتشف جمال هذا الضباب الطبيعي وأظهره لنا. ويستنتج أوسكار وايلد قائلاً: «ليس الفن هو ما يحاكي الطبيعة، وإنما الطبيعة هي التي تحاكي الفن».

وهكذا نحن ندرك بفضل حواسنا التي تتشكل على الدوام من خلال تجربتنا الفردية كما الجمعية. إلا أن الرابط ما بين الماضي والإدراك قد يبدو أحياناً أكثر دقة. إذ يمكن لإدراكنا - المتشكل بواسطة الماضي - أن يُظهر من جديد إلى الحاضر كتلاً من هذا الماضي، وذكريات تؤدي بدورها إلى تلوين إدراكنا، وتغيره أحياناً بالعمق.

مادلين بروست

في العمل بعنوان **جانب منازل سوان**، وهو الجزء الأول من مؤلَّف **في البحث عن الزمن المفقود** يقرّب الراوي من شفتيه ملعقة شاي «أذاب فيها قطعة من حلوى المادلين»، واجتاحته موجة من الغبطة. وهي غبطة بدون موضوع، إذ ليس مجرد ملعقة الشاي هذه

وهذه القطعة من الكعكة بإمكانهما، بحد ذاتهما، ولذاتهما، إثارة إحساس من هذا القبيل. فهناك شيء آخر ينشط في هذه الحالة، والكاتب يشعر به تماماً. فمن خلال جهد واعٍ من التذكر، يستدعي بروست الصبيَّ الصغير وذكرى من طفولته: فهذا الطعم الخاص هو طعم الأحد صباحاً في كومبري عندما كان يصعد إلى غرفة عمته ليوني، قبل الذهاب إلى القداس، كي يعانقها، وهي تقدم له بدورها كعكة من هذه الحلوى بعد أن ذوبتها في الشاي. مدى كامل من ماضيه سوف يبرز في وعيه: ليس فقط عذوبة صباحات تلك الأيام بالقرب من عمته ليوني، ولكن أيضاً طائفة من ذكريات إقامته عندها خلال طفولته هو ووالداه: «كل أزهار حديقتنا وأزهار منتزه سوان، وأزهار نيلوفر فيفون، وناس القرية الطيبين مع مساكنهم الصغيرة وكنيسة كومبري ومحيطها، كل ذلك برز وتشكل من فنجان الشاي الخاص بي». وهكذا فيقظة الحواس، وخصوصاً من خلال عطر أو مذاق، يمكنه إطلاق بقايا ذكريات الماضي. إلا أنه يتعين فوق ذلك بذل جهد تذكر هذا الماضي. إذ غالباً ما تكون ذكرياتنا ضبابية، أو حتى خفية، كامنة بعمق في أطراف ذاكرتنا. ما يعاود الظهور لدينا، هو إحساس يقرب من ذلك الإحساس الذي نعيشه مع انفعال مرتبط به. الإحساس يعانقنا، إلا أنه يفلت منا. وإذا لم نركز انتباهنا، لا يلبث أن يتوارى ولا يتبقى لنا عندها إلا اللحظة الراهنة، العارية والمجردة من حيويتها. وبالفعل، فبعد الجرعة الثانية ثم الثالثة، فإن الانفعال، والنعيم البالغ الذي عانق بروست تراجع وضعف. فالظاهرة وسرها هما بصدد الإفلات منه.

يتعين عليه التركيز على هذه الجرعة الأولى، ويستعيد خيط التجليات الداخلية التي استحوذت عليه، وذلك من خلال جهد إرادي.

إلا أن الذهنية معاندة، ومليئة بالمواربة، وبطرق خاطئة ومسارات بدون مخرج. عندها يلجأ بروست إلى التحايل مع نفسه، فيدع ذاته تنصرف عن الموضوع، ويعمل على تخفيض الضغط النفسي ومن ثم يعود فيواجه الظاهرة، وهذا الإحساس الخاص، يعاود مساره. وبالتدريج ينفتح أمامه سبيل، ويبرز شيء ما إلى الوعي، متخذاً قواماً متماسكاً. إنها الذاكرة التي تعاود تشكيل ذاتها بفضل نظرته الداخلية المتنبهة. ويعاود عيش تلك الفترة من حياته في كومبري وكل الفرح المصاحب لهذه المرحلة من حياة طفولته. وهكذا يمكن أن يكفي إحساس خاص كي يعيد إحياء انفعال ماضٍ مرتبط مع انطباع الحواس ذاك الذي فقدنا آثاره. إلا أنه يتعين بذل جهد واعٍ وعمل مركز من الكشف كي نعيد الصلة بكل مادة الذكرى، وبالتالي التمتع الكامل بها. يا لها من مكافأة أن نعاود عيش تلك المسرات الماضية من خلال شيء بسيط من قبيل قطعة كعك مادلين مغموسة في فنجان من الشاي! نعم يبدو أن الإدراك «منغمس في الذكريات»، كما كتبه برغسون، وهو بالمناسبة معاصر لبروست.

يكمن جوهر مشروع بروست في عمله بعنوان **البحث عن الزمن المفقود** في الفكرة التالية: يمكن أن يخدمنا الانطباع الفريد الذي تتركه بعض الأحاسيس على حواسنا بمثابة خيط آريان، وصولاً إلى ذكرياتنا الأكثر بعداً وخفاءً. وهكذا «فالزمن المفقود»

يقوم بخفاء وغير قابل للإدراك، على حواف إدراكنا. ومن خلال تركيز ذهنه على ما يوقظه هذا الإدراك، فإن الذاكرة تستعيد تشكلها شيئاً فشيئاً، وتعاود العثور على درب ذهننا. وهكذا يكتب بروست بمناسبة مشهد كعكة مادلين الشهيرة قائلاً: «من هذه الذكريات المهجورة منذ زمن طويل خارج الذاكرة، لم يتبقَّ شيء، إذ تحلل كل شيء؛ فالأشكال [. . .] زالت، أو هي في حالة سُبات، وفقدت قوة الحضور التي أتاحت لها الولوج إلى الوعي. ولكن عندما لا يتبقى شيء من ماض قديم، وذلك بعد موت الكائنات، وبعد دمار الأشياء، وحدها ذكرى الرائحة والمذاق الخفيفة لا تزال حية ومستمرة، ووفيّة ولو أنها غير مجسدة عملياً، تماماً على غرار أرواح، تنتظر أن تتم استعادة تذكرها من جديد، إنها تنتظر وتأمل، على أنقاض كل ما تبقى، وتحمل بدون تراخ عمارة الذكرى الشاسعة».

وإذا كانت «الرائحة والمذاق» تمتلكان قوة حمل «عمارة الذكرى الشاسعة»، فإن ذلك يعود إلى الرابط الحميم الذي تم نسجه ما بين إدراكاتنا وذاكرة الماضي. كعكة مادلين الشهيرة هذه أعطت منذ ذلك الحين اسمها لكل الآثار التي يطلقها إحساس معين، وكلنا نملك كعكة مادلين بروست هذه التي تُقدِّم لنا رحلةً في ماضينا، ونزهةً في «عمارة الذكرى الشاسعة»: وذلك من قبيل رائحة المقاعد الجلدية لسيارة ما، وطعم طبق أعده لنا أحد الأقارب، وطقطقة الحطب المشتعل في المدخنة. . .

صفحات بروست حافلة بمشاهد بقايا الذكريات، وكعك «مادلين بروست» موزعة خلال كل قراءة العمل بعنوان **البحث عن الزمن المفقود**. وفي مشهد آخر، أقل شهرة من مشهد كعكة مادلين ولكنني أجده شخصياً أكثر إثارة، يصف بروست عودة انبثاق الماضي الذي أثاره إحساس آخر: وهو إحساس اللمس. يقوم الراوي [بروست] بزيارة أمير غيرمانت في فندقه الباريسي الخاص، ويجعله مدير الفندق ينتظر قليلاً في المكتبة، حيث قدم له بعض البسكويت وكأس عصير البرتقال، مع منديل يستخدمه لمسح فمه. ملامسة نسيج المنديل يثير لديه اندفاعاً قوياً يطلق بقايا ذكرى. فهذا المنديل شبيه بذلك الذي استعمله، قبل سنوات عديدة، في منتجع على البحر.

«أعتقد أن الخادم فتح لتوه النافذة على الشاطىء وكان كل شيء يدعوني إلى النزول والتنزه على طول سد مد مياه البحر؛ فالمنديل الذي أخذته كي أمسح فمي كان يتصف تحديداً بنفس خشونة المنشفة التي عانيت كثيراً في محاولة تجفيف جسمي بها أمام النافذة، في اليوم الأول لقدومي إلى المنتجع، والآن وأمام مكتبة هذا الفندق، فإنها تتشابه في طياتها مع ريش أمواج محيط أخضر على زرقة تماماً كذيل طاووس. ولم أستمتع بهذه الألوان فقط، وإنما بلحظة كاملة من حياتي أثارها هذا المنديل».

يتطابق هذا المشهد الذي يرويه بروست لنا بدقة مع ما يطلق عليه علماء علم الأعصاب المعرفي تسمية لحظة «الانطلاق»: وهي

نقطة محددة في مجرى الإدراكات التي سوف تطلق عودة الماضي. ونكتشف حين نغوص في صفحات **البحث عن الزمن المفقود** أن كل الحواس قابلة لأن تطلق آثار الذكريات وتفتح الباب لظاهرة «الانطلاق» - فتذوق كعكة مادلين أو ملمس فوطة مائدة الطعام، وكذلك السمع، والبصر، والشم... - ولقد أثبتت دراسات حديثة حدس بروست القائل بأن: حاسة الشم عندنا تمتلك آثار الذكريات بقوة أكبر من بقية الحواس. وكأن ماضينا ينتظر فتح الستارة كي ينطلق من جديد؛ الصورة أو الصوت، والملمس، التذوق أو الرائحة، كلها قادرة على إعادة إحياء الماضي، أي إطلاق ظاهرة العودة هذه.

تعلمنا كل نماذج الوصف البروستي الرائعة هذه شيئاً واحداً: يتعين علينا أن نكون متوفرين نفسياً، وقابلين للتلقي كي نتمكن من رفع الحجاب عن الماضي ونعاود الإحساس بنعمة بقايا الذكريات اللطيفة هذه. يتعين علينا أن نكون حاضرين كلياً في اللحظة الراهنة، وأن نترك ذواتنا تنغمس فيها، ونكون قادرين على استقبال ما سوف ينبجس بغية تحرير الولوج إلى ماضينا. وعندما نشتت انتباهنا، وننصرف عن الحاضر بانشغالات متفرقة من قبيل متابعة رسائل تلفوننا الذكي، أو الانشغال بالهموم اليومية، فإننا نترك مجالاً أقل لفيض إدراكاتنا، وتفوتنا وضعيات «الانطلاق» القادرة على فتح نوافذ ذكرياتنا السعيدة. وعندما نقلق باستمرار وننشغل بما سيُقْبِل من الأمور، أو نغرق في الماضي البائس، نكون عندها أقل توفراً للحاضر ولاسترجاع ماض مريح ومثير؛ وبالإجمال نكون أقل

حضوراً للحاضر وللماضي على حد سواء. وبالتالي فإن وجودنا يذبل ويفتقر بالقدر ذاته.

قوة اللحظة الراهنة؟

حاضرنا غني بحيث يبدو مليئاً بالماضي، يحفل به تاريخنا الذي يخترقه. ولكي نتذوق كل جوانبه، لا بد إذاً من الانفتاح على اللحظة الراهنة. ولكن يجب أن نتفاهم جيداً على معنى هذا التعبير: إذ لسنا بصدد «التركيز» على ما يجري في اللحظة الراهنة معتقدين أنه «لا يوجد شيء آخر سوى الحاضر»، وإنما يتمثل الأمر في استقبال كل ما يسمح للماضي، في قلب هذا الحاضر، أن يعود من جديد، على غرار ما يذهب إليه راوي عمل **البحث عن الزمن المفقود**. إذ عندما يرفع الراوي إلى شفتيه ملعقة شاي ممزوجة بقطع كعكة مادلين، وعندما يمسح فمه بقطعة النسيج هذه، فهو يترك اللحظة الراهنة تحمله بكل مداها، ولهذا السبب تحديداً يستعيد ماضيه، ومعه قدراً من حقيقته، ومن تاريخه، و«حياته الحقيقية» كما يعبّر عنه بروست ذاته.

يتيح إدراك الحاضر هذا العودة إلى الذات لأنه في المقام الأول عبارة عن تجربة خروج من القوقعة الذاتية. يجعلنا المعاش الحسي - من قبيل إدراك مذاق فنجان شاي، أو إدراك مادة نسيج فوطة المائدة، أو جمال إحدى لوحات الرسام ترنر، أو سماء لندن الضبابي - نخرج من ذاتنا في المقام الأول. وإذا بنا فجأة أقل تركيزاً على ذاتنا. ومن خلال استقبال إحساس بالعالم الخارجي،

أي شيء ما غير ذاتنا، وإذا بنا نرى أنفسنا وقد انصرفنا عن أنانا الذاتي. ولا تكلمنا إدراكاتنا عنا ذاتنا إلا في وقت تالٍ، انعكاسي وعندها سوف نتذكر هذا الشاي الذي شربناه عندما كنا أطفالاً، وهذا البحر الذي سبحنا فيه، وذلك المنظر الطبيعي الذي استغرقنا في تأمله، وكأنه كان يتعين علينا أن نبتعد أولاً عن ذواتنا كي نعود إليها من ثم بشكل أفضل وأكثر غنى. وفي كل مرة نكون فيها أكثر إحساساً بجمال العالم، وبأضواء السماء، أو بجمال أسلوب كاتب ما، أو بمذاق طبق أو بقوة نبيذ ما، وفي كل مرة ندرك فيها بعمق، نكون بصدد البدء بتجربة خروج من التمحور على الذات: إذ يتحرش بنا عندها واقع خارج عن أنفسنا، ويهمنا فجأة أكثر من اهتمامنا بذواتنا، ويصبح بشكل مفارق الطريق المثلى للتوجه نحو الذات، وعملية وعي بالذات، وجلاء ذوقها، وتاريخها.

لا يثير حَدَثا بقايا ذكريات بروست هذان عملياً عند الراوي وحده حالة النعيم، وشعور السعادة المسببة للدوار، وإنما هما يكشفان له أيضاً عناصر من ماضيه المخفي، ويفصحا بالتالي وبالعملية ذاتها شيئاً أساسياً عن ذاته وعن هويته.

تشكل هذه التجارب الخصبة في الخروج من التمحور الذاتي بالتالي دعوة جميلة لنا **للانفتاح** على حواسنا، وعلى إدراكاتنا وعلى العالم. وبهذه الحركة نحو الآخر ننفتح على ماضينا الذي يعود، والحافل بالمعطيات التي سيقولها عنا نحن ذاتنا.

الفصل الرابع

الماضي،
قاعدة هويتنا

تعطينا الدقائقُ الأولى من فيلم رائعة ديفيد لينش بعنوان **مولهولند درايف** مشاهدةَ ريتا شاردة في وسط الليل، على روابي هوليوود، وفي حالة صدمة، بعد حادثة سيارة. إنها تنزل من الربوة وتجد نفسها في المدينة، مذهولة، ومترنحة في عالم غريب. لقد نسيت من هي إثر فقدان ذاكرة تالٍ لصدمة الحادث، وحتى إدراكها للعالم من حولها يبدو مضطرباً. وكأنها أصبحت عاجزة عن تحديد ما تراه، وكأن ذاكرتها الدلالية ذاتها أصيبت بالعطب. ضائعة ومذعورة، تجد ملجأً في بيت بدون علم أهله الذين يبدو أنهم ذهبوا في رحلة طويلة. وهناك التقت بيتي، حيث أقرت لها باكية «أنا لم أعد أعرف من أنا». وحين سألتها هذه الأخيرة عن اسمها، أصيبت بنوع من الدوار. لاحظت اسم شخص على ملصق سينما على الحائط يحمل اسم: ريتا. ستكون إذاً ريتا. وحيث إن ذكرياتها فقدت ذاكرتها الظرفية (إذ إن ذاكرتها الإجرائية لم تُصَبْ لأنها ظلت قادرة على القيام بحركات الحياة العادية)، فهي فقدت كل

مرجعيات هويتها الذاتية حيث لم تعد تعرف شيئاً عن ذاتها. يصور ديفيد لينش ببراعة فائقة في هذا المشهد واقعاً لا نفكر فيه عادة بما يكفي، مما يعني: أن ذكرياتنا هي التي تقول لنا من نحن. أنا أعرف والديَّ لأنني أتذكر وجهَيهما، وصوتَيهما، وروائحهما، كما أتذكر كل لحظات حياتي معهما. أنا أعرف أني أحبك لأني أتقاسم فترات من حياتي معك، وأستعيد ذكرى لقائنا وأول مرة قلت لك «أنا أحبك». ولكن إذا لم أعد أتذكر شيئاً؟ فكيف أعرف من أنا؟ فقدان الذاكرة هو فقدان الهوية.

مريض الألزهايمر

عالم النفس العصبي فرانسيس أوستاش الاختصاصي في مرض الألزهايمر، هو من أوائل الباحثين الذين استخدموا التصوير المقطعي العصبي الدماغي بغية دراسة الذاكرة الإنسانية واضطراباتها. ولقد بيّن من خلال العديد من الحالات، وخصوصاً حالة .P. H، وهي مريضة في الرابعة والثمانين من عمرها تعاني من مرض ألزهايمر في مرحلة متقدمة، كيف أن حالات فقدان الذاكرة تولد اضطرابات في الهوية: ولا تصدر هذه الاضطرابات عن غياب كلي للإحساس بالهوية، وإنما هي تصدر عن بقاء نتف من هذا الإحساس، جد مفتتة وجزئية، منتشرة في فقدان ذاكرة معمم. فالمريضة .P. H، على سبيل المثال، ما زالت تتعرف على ذاتها من خلال صور من شبابها، ولكنها لا تتعرف أبداً على ذاتها من صورها الراشدة. إنها ترى على صور سن الرشد هذه إنساناً غريباً،

كما لا تعتقد أنها ترى صورة أحد أقاربها. تحتفظ هذه المريضة الثمانينية فقط ببعض ذاكرتها الظرفية في سن الشباب، ولهذا السبب ربما ما زالت تحتفظ كذلك ببعض آثار إحساس بهويتها. تفترض الهوية استمرارية هذا الإحساس بأننا نحن ذاتنا، وهذا ما يبدو أن ذاكرة ظرفية كاملة النشاط هي ما توفره لنا.

فهل لا يزال الأشخاص الذين يعانون من مرض الألزهايمر هم ذاتهم؟ في الواقع، نحن بصدد الشخص الفيزيقي هو ذاته. فأبي سوف يظل أبي حتى ولو أصيب بالمرض. وهويته المدنية تظل هي ذاتها، ويحمل اسمه واسم عائلته على الدوام، كما يحتفظ بمكانه في العائلة. إذ هو ما زال الزوج، والأب، والجد، والعم. ولكن إذا عَرَّفْنا الهوية باعتبارها الوعي بكوننا نحن ذاتنا طوال أحداث حياتنا، فالجواب لن يكون على نفس الدرحة من الدقة. فهل لا يزال أبي هو ذاته إذا لم يعد يتذكر أسماء أبنائه، أو البلد الذي نشأ فيه، والمهنة التي مارسها، والأصدقاء الذين رافقوه؟ وهل يبقى هو ذاته إذا لم يعد يتذكر ما كان يهمه؟ وإذا كانت الذاكرة الإجرائية أكثر مقاومة لمرض الألزهايمر من الذاكرة الظرفية، وإذا استمرت قدرته على جز عشب الحديقة، أو طهو شريحة لحم، أو بناء قفص للعصافير استمرت لفترة أطول من الزمن، فإن هذا النوع من فقدان الذاكرة الظرفية يعطينا الانطباع أن والدنا أو جدتنا مصابين في هويتهما ذاتها. إذ يبدوان لنا أحياناً كغريبين، حيث لم يعودا يعرفان من هما حقاً. قد يحدث لهما -

وهو ما قد يكون الأكثر إقلاقاً لنا - أن يستعيدا وعيهما وذاكرتهما فجأة، وبدقة كبيرة، في انبثاقة مفاجئة، قبل أن يعودا فيسقطا في التشويش وفقدان الذاكرة، تاركين ذويهم المقربين في حيرة تامة إذ اعتقدوا أنهم استعادوا، ولو للحظة وجيزة، الشخص الذي كان قبل الإصابة بالمرض.

فلنتخيل أننا لم نعد نملك ذاكرة الأفراح الكبرى ولا المعاناة الكبرى لوجودنا، وكذلك القرارات الهامة التي تمكنا من أخذها في اللحظات الحاسمة، وكذلك ذاكرة القرارات التي فاتنا أخذها بسبب فقدان الشجاعة، وأننا نسينا كذلك ذكرى لحظات عشقنا، وبروز مشاعرنا الجنسية، أو أننا نسينا أكثر الانفعالات الجماعية زخماً أو روحانية، وعموماً المراحل الكبرى من مسيرتنا الحياتية؛ فما الذي يتبقى عندها من هويتنا، ومن وعينا بذاتنا نحن أنفسنا؟

تشكل ذكرى كل هذه المراحل ذاكرة الدرب الذي جعل منا ذلك الشخص الذي نحن عليه اليوم. يتيح الوعي بمجمل هذه الذكريات أن نعرف أنفسنا بشكل أفضل، وأن نفهم كذلك ردود أفعالنا بشكل أفضل، ونتلمس انفعالاتنا الذاتية بشكل أفضل. إذا حُجِبَتْ هذه الذكريات، لن نتوصل إلى تحليل سلوكاتنا المنعكسة [المفاجئة] والمشاعر التي تخنقنا. يمكن للعري النفسي الذي نجد ذاتنا فيه عندها أن يُحدث اضطراباً في الهوية، والانطباع بأن ذاتنا تفلت منا، وبأننا غرباء عن ذواتنا.

أنا أتذكّر إذاً أنا موجود

سؤال الهوية الشخصية هو إحدى المشكلات الفلسفية الأكثر إثارة للحماس ولكنها أيضاً الأكثر تعقيداً. ما الذي يُعرِّفنا بمثابة أشخاص فرديين، ويميزنا عن كل من تبقى؟ ما الذي يبقى فينا بطريقة دائمة ويشكل بذلك قاعدة هويتنا الذاتية؟ ليس جسمنا بالطبع، إذ إن كل خلايانا تتجدد على الدوام تبعاً لدورة من سبع سنوات كي نكون «متجددين» كلياً. ومع ذلك فنحن نبقى نحن ذاتنا، أو على كل حال يظل لدينا الإحساس والقناعة الحميمة بأننا نحن ذاتنا. إننا على غرار قارب تيزيه الذي أشار إليه بلوتارك في عمله بعنوان **حيوات رجال متألقين**. فهذا الأخير تعرض خلال مغامرات البطل اليوناني الأسطوري إلى ما لا يحصى من الإصلاحات بحيث لم يتبقَّ منه أي قطعة أصلية. لم يتبقَّ شيء من عناصره الأساسية، ومع ذلك، ما زال القارب موجوداً دائماً وشبيهاً بذاته... ولكن أهو ما زال فعلاً **ذاته**؟ فما هو قوام هويته؟ أهي ترجع إلى فكرة معرفية عن القارب؟ أو إلى مبدأ موجه في مفهومه بمثابة قارب؟ وماذا إذاً بصددنا نحن؟

السؤال جد عويص بحيث اضطر المسيحيون العودة إلى الله كي يضمنوا دوام الهوية الشخصية: إنها «الروح» التي تشكل جوهر الهوية الدائم والأبدي الذي يستمر بعد الموت الفيزيقي. حتى أن ديكارت ذهب إلى حد القول بفكرة «الخلق المستمر»: فنحن نظل نحن ذاتنا لأن الله يستمر في خلقنا على الدوام كما يستمر في خلق العالم. وهكذا فحين ننام ونفقد الوعي بذاتنا يظل الإله هو الضامن

لهويتنا. ولكن إذا لم نكن مؤمنين ولا نعتقد لا بالإله ولا بوجود الروح فما الذي يضمن لنا عندها دوام أنانا الذاتي؟ أيتعين علينا أن نستنتج كما ذهب إليه ديفيد هيوم بأن الأنا ليست سوى وهم، وأن الهوية الشخصية ليست سوى أخيولة؟

يتصدى ديفيد هيوم في مؤلفه بعنوان **بحث في الطبيعة الإنسانية** للسؤال الشائك التالي: «هناك بعض الفلاسفة الذين يتخيلون أننا على وعي حميم على الدوام بما يسمى أنانا الذاتي [. . .]. أما فيما يخصني فعندما أخوض بأكثر ما يمكنني حميمية فيما أسميه «أنا» فإنني أصطدم دوماً بإدراك خاص ما أو آخر، من حر أو برد، ومن ضوء أو ظل، ومن حب أو كره، ومن ألم أو لذة، ولا أتمكن أبداً أن أستوعب هذه الأنا خاصتي، في أي لحظة بدون إدراك من نوع ما، ولا يمكنني أبداً ملاحظة شيء آخر سوى الإدراك».

فبالنسبة إلى ديفيد هيوم، نحن إذاً نكذب على أنفسنا عندما ندّعي القدرة على استيعاب هوية أنانا الذاتي: إذ مهما حاولنا أن ننفذ إلى «أكثر ما يمكننا حميمية فيما نسميه نحن ذواتنا»، فكل فحص أمين للذات سوف ينتهي باعتراف بالفشل. فنحن لا نصادف «الأنا» وإنما مجرد انطباعات خاصة تُقدِّم لنا مجرد مظهر من هكذا أنا محسوس. ولن نكتشف أبداً البرهان على أنا موحد ومستقر. فنحن نصادف صورتنا في المرآة، ونلمس جسمنا بواسطة أيدينا، ونحس عندما نكون في حال طيبة أو سيئة، أو عندما نشعر بالحر أو بالبرد، ولكن كل هذه الإدراكات لا تعدو كونها بالنسبة إلى

فيلسوف إجرائي تجريبي من مثل ديفيد هيوم انطباعات عابرة، لا يمكنها أن تشكل بحال من الأحوال **هوية**. إذ ليس لدينا منفذ لأي إشارة على حالة دائمة فينا. موقف ديفيد هيوم يتصف بالتطرف إلى حد ما، ولكن رغم قوة حجته، لا بد من الإقرار بشيء من سوء النية لديه. إذ هو لا يستدعي عملياً إلا إدراك الإحساسات الراهنة ويكنس بتسرع أطروحة فيلسوف إنجليزي آخر هو جون لوك، الذي مات قبل ولادة هيوم ببضع سنوات، تلك الأطروحة التي تقول إن هويتنا تكمن في ذاكرتنا.

فلنلعب لعبة ديفيد هيوم: «لنخوض بأكثر ما يمكننا حميمية فيما نسميه نحن ذواتنا»، فلن نجد عندها مجرد إدراكات وأحاسيس راهنة، وإنما سنجد ذكريات أيضاً. وهذه الذكريات، تبعاً لجون لوك، ستقول لنا إننا نحن ذواتنا، وهي تضع الأساس لوعينا بذاتنا وتلك الاستمرارية بين إدراكاتنا: نحن نعرف أننا نحن أنفسنا وليس أحداً آخر لأننا نملك ذاكرة ماضينا، هذا التاريخ الشخصي الخاص بنا والذي لم يعشه أحد آخر غيرنا. إذ إن الوعي بماضينا، هو نفسه الوعي بذاتنا. فذهننا عند الميلاد، بالنسبة إلى جون لوك، هو أشبه ما يكون بصفحة بيضاء: وسوف تنطبع إدراكاتنا عليها كي تكوّن الإحساس بهويتنا. كانت أطروحة جون لوك ثورية بالنسبة إلى زمانها، إذ كنا في القرن السابع عشر وكان يؤكد، ضد الكنيسة، وضد التقليد الفلسفي في حينه أننا لسنا بحاجة إلى أي دليل غيبي كي نتأكد من أننا نحن ذاتنا: فالذاكرة تكفي لذلك. ويرسخ لوك الأمر بأن يقترح علينا تمريناً عقلياً مع «أمير ومصلح أحذية».

فلنتصور، كما يقول، أن نتمكن من أخذ كل ذاكرة صانع الأحذية ووضعها في جسم الأمير، فهل يبقى هذا الأخير أميراً؟ أو هو يصبح صانع أحذية؟ ويجيب لوك بدون أدنى تردد: إذا تلقى الأمير في داخله كل ذاكرة صانع الأحذية، وكل ماضيه، فسوف يصبح صانع أحذية. فالذاكرة والهوية، بالنسبة إلى جون لوك، مترابطتان بشكل جد وثيق.

إذا كانت ذكرياتنا مجرد معطيات موضوعية أو صور مطبوعة في دماغنا، بإمكاننا عندها أن نفترض أنها لن تؤثر على هويتنا، وإنما هي تأتي كي تلتحم معها. إلا أننا سبق أن رأينا أن ذكرياتنا تؤثر على دماغنا بالعمق، بحيث تغيره في بنيته ذاتها، فذكرياتنا هي جزء منا، ليس جسمياً فقط، وإنما أيضاً بمثابة صورة عن مسارنا الطويل الذي أوصلنا إلى ما نحن عليه الآن، وبمثابة مؤشرات عن الطريقة التي أصبحنا عليها الآن هذا الشخص بعينه.

كنت طفلاً مولعاً بالحب وإنما فائق الخجل. لقد كتبت العشرات من الرسائل لبنات لم يقرأنها أبداً، لأنهن لم يتلقينها. إذ إن رسائلي الملتهبة ظلت مخبأة تحت سريري. كيف يمكن أن أفهم اليوم علاقتي بالحب وبالنساء بدون ذاكرة هذا الطفل الذي عاش في المثال، والذي كان يعتز بأحلامه المطلقة لدرجة أنه كان يفضلها على اللقاء الواقعي؟ لقد عشت، خلال مراهقتي، تجربة مؤلمة من الحياة الجمعية أثناء إقامة في معسكر عطلة صيفية. تلك

الذكرى ليست سارة، ولكن كيف كان بإمكاني دونها، أن أفهم نفوري تجاه الجماعات، ورعشة الارتباك التي تنتابني حتى العظم منذ أن يبدي الأفراد الآخرين تعلقهم بهذا الانتماء للجماعات؟ لقد عشت، في شبابي، تجربة صوفية في الهند: وخلال تأملي السماء الصافية التي تنعكس على مياه أودايبور، انتابني فجأة شعور بأبدية كل شيء. وكيف كان بإمكاني، بدون هذه الذكرى، أن أفهم الصدمة التي انتابتني، بعد سنوات عديدة، عندما دخلت كنيسة فارانجفيل الصغيرة، حيث اخترقت أشعة الشمس الزجاج الملون الذي رسمه جورج براك؟

وفوق ذلك كله، فهذا الطفل الخجول والمتحرق حباً، وهذا المراهق الذي لا يجد ذاته ضمن الجماعة، وهذا المسافر الذي يفتح نافذته على بحيرة أودايبور بعد حفلة صلاة وتعبد بتمام البدر، وهذا الراشد المستغرق في تأمل زجاج كنيسة فارانجفيل الملون. . . أليسوا جميعاً الشخص الوحيد هو ذاته؟ تكشف هذه الذكريات كذلك هذه الاستمرارية، إذ تثير فينا الشعور بالهوية المستمرة، رغم مرور السنين، ورغم تقلب الأحوال؛ هناك شيء يبقى ويستمر، أفلا يكون إذاً هو ذلك **الأنا** الشهير؟

صانع الهوية

ذاكرتنا ليست مجرد وعاء مسارنا الحياتي، بإمكانه أن يلقي الضوء على سلوكاتنا، وردود فعلنا وانفعالاتنا. تؤسس الذكريات للقناعة بأن هذا الشخص الذي عاش كل هذه الأحداث هو حقاً

«مطابق» لذاك الذي يتذكرها، إنها تضع الأساس لوعي دائم بالهوية.

يقدم ليونيل نقاش تفسيراً لذلك، في كتابه بعنوان **تمجيد الكتمان**، من خلال الاستعانة بمفهوم رياضي كاشف بغية فهم كيفية عمل وعينا وكيف يتولد الشعور بهويتنا. نميز في الرياضيات ما بين «المجموعات المنفصلة»، و«المجموعات المستمرة». تتكون المجموعة المنفصلة من عناصر منفصلة بعضها عن بعض: متسلسل الأرقام 1-2-3-4-5-6... يكون على سبيل المثال «مجموعة منفصلة». وفي المقابل فنقاط خط مستقيم تكوّن «مجموعة مستمرة» لأنها تقوم على استمرارية، وليست منفصلة بعضها عن بعض. يشرح لنا ليونيل نقاش أن الأحداث التي نعيشها، وذكرياتنا عنها، تندرج في «مجموعة منفصلة»، أي مجموعة غير مستمرة: فهذه الأحداث وهذه الذكريات تكون مفصولة بعضها عن بعض؛ إذ يشكل كل منها واقعة بدون رابط ضروري مع سواه. ويسمح عمل وعينا بخلق هذا الرابط ما بين هذه العناصر المبعثرة من هذه المجموعة المنفصلة: إنه يولد الاستمرارية في صلب ما هو غير متصل. عمل الربط هذا بين العناصر المتفرقة هو ما يجعله مرض الألزهايمر مستحيلاً، أو غير مكتمل على الأقل. إذ بدون ذكريات، ليس هناك ما يمكن توحيده في كلٍّ متماسك. ومع أن ذكرياتنا عشوائية وغير منتظمة، يتعين أن نحفظها في الذاكرة كي يتمكن وعينا من خلق الرابط بينها ويؤسس لفكرة الأنا الشخصية من رباط كل هذه الأحداث. فالذاكرة هي إذاً شرط هويتنا، وهو ما يصدق

سواء على هويتنا الشخصية، كما على هويتنا الوطنية. إذ لا يمكننا الكلام عن فرنسا أو عن هوية فرنسية إلا بشرط تذكرنا للوقائع الكبرى من تاريخنا ونفترض وجود رابط مشترك بين كل هذه الوقائع، أي وجود استمرارية في صميم هذا التتابع المتقطع للأحداث. ذلك هو شغل وَعْيِنا الفردي كما وَعْيِنا الجمعي.

ويطور ليونيل نقاش في كتاب سابق بعنوان **السينما الداخلية** تماثلاً مع السينما لتبيان هذا العمل. عندما نشاهد فيلماً، فإن الصورة المتحركة المدرَكة تتطابق عملياً مع سلسلة من الصور الثابتة التي تتوالى (أربع وعشرين صورة في الثانية الواحدة) وتشكل إذاً «مجموعة منفصلة» غير مستمرة. ومع ذلك، فإننا نشاهد فيلماً تتتابع أحداثه كوحدة واحدة، إذ يضمن وعيُنا الاستمراريةَ بين مختلف الصور التي تتوالى، ويقوم بالربط بينها موحداً إياها في حركة انسيابية. ولا ينتظر وعينا أن يجلس مرتاحاً في القاعة المظلمة كي يعمل على هذه الشاكلة، إذ إن هذا هو أسلوبه العادي، كما يبينه ليونيل نقاش. ويعمل وعينا بالطريقة ذاتها مع فيلم ذكرياتنا: فحتى ولو بدت تشكل أحياناً عناصرَ معزولة بعضها عن بعض من ضمن «مجموعة منفصلة»، فإن وعينا يوحدها في إحساسنا بهويتنا. إنه يقيم الاستمرارية ضمن ما هو غير مستمر، معطياً بذلك لهويتنا صيغتها. ويقوم المؤرخون بالأمر ذاته مع تاريخ أحد البلدان: فهم يخلقون استمرارية من نوع ما ضمن أحداث منفصلة عن بعضها، ويبنون بذلك فيلم وطن معين، أي الرواية الوطنية، وهويتنا الجمعية. ومن المفهوم أن يقوم بينهم خلاف حول ذلك، إذ إن استمرارية من هذا

القبيل ليست مقروءة بشكل موضوعي في لب عدم الاستمرارية: فهي تعود بالأحرى إلى الافتراض أكثر مما تعود إلى الملاحظة.

تعود بي الذكرى الآن لاكتشافي، في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، أغنية لغانسبورغ بعنوان **تنوعات على ماريلو** ولمدى افتتاني تجاه هذا القدر من الشاعرية، والجرأة، والشهوانية الجنسية. وأتذكر كلمات الصديق الذي جعلني أكتشفها - وهو الآن بالمناسبة ناشر هذا الكتاب. كانت هذه الأغنية ذات أهمية خاصة بالنسبة إليّ؛ إذ واكبت عدداً هاماً من المراحل المفصلية من حياتي. وكأن كل هذه السنوات التي مرت موجودة ضمنها. إنها تجعلني أعي الزمن الذي انقضى، وكل ما تغير، وحتى كل ما انمحى من حياتي. إلا أنني أقيس في الآن عينه، ومن خلال قوة ذاكرتي وزخم ذكرياتي كل ما تبقى: فهذا المراهق الذي كان يستمع إلى هذه الأغنية، هو أنا.

هنا أيضاً فإن إحساس الاستمرارية مرتبط بهذه الأغنية الخاصة، رفيقة الدرب الدائمة. ولكني أنا ذاتي من غذى في الواقع سجل أصوات حياتي بأطوار متتابعة من الافتتان، من خلال توليفة تتغذى من فضول حماسي للعديد من أغاني المغنين المشهورين. . . وفوق ذلك كله، فإذا عدت فالتفت إلى ماضِيَّ الخاص وتركت الصور تتالى بدون ترتيب زمني منتظم، وإذا عدت إلى صورتي كأستاذ فلسفة شاب في ليسيه فينيلون دو كامبريه، أو صورتي كطفل يلعب مع أخته الصغيرة في إحدى حدائق مقاطعة برغونية، أو طالب

ليسيه يكتشف عالم الآداب مع أستاذة كفيفة البصر، أو مسافر في الهند أو شيلي أو بعد ثلاثين عاماً من ذلك في إيسلندا، أو دارس في مدرسة التجارة، أو أب شاب ينتظر ولادة طفله الأول، أو بعد عدة أيام في دفن جدته، أو رجل في الخمسين وأب لثلاثة أولاد... ينتابني شعور غريب تجاه هذه الأطوار المتفرقة من حياتي، والانقطاعات المتتالية والقفزات الزمانية-المكانية. لدي الانطباع الغريب أن هذه الأطوار المختلفة تندرج في «مجموعة منفصلة». إلا أنني أحس في الآن عينه بوجود هذا «الأنا الحقيقي» الذي يستدعيه بروست: يتعلق الأمر فعلاً بحياتي، تلك التي عبرت أطوارها، أي بي أنا. ألمس عندها شيئاً من حقيقتي، ومن هويتي، وألمس فكرة **الروح** الجميلة هذه. فهذه الهوية التي تتجلى عملياً هي بمثابة بديهية وغامضة في آن واحد، ويبدو من المستحيل اختزالها في شيء مادي من نوع ما. أفهم عندها بشكل أفضل روحانية برغسون. إذ يؤكد في كتابه بعنوان **المادة والذاكرة** أن ذاكرة العادة (والتي تتقارب من الذاكرة الإجرائية) منغرسة في مادة دماغنا، بينما ذاكرتنا الأكثر أهمية لشخصيتنا، أي ذاكرة الذكريات (التي تتطابق مع الذاكرة الظرفية)، تمت من ناحيتها إلى «الروح» وليس إلى المادة. وحيث إن ذكرياتنا ليست عبارة عن صور مخزنة في دماغنا، وحيث إن الآثار الذاكرية المادية لا تكفي وحدها لشرح دوام وثراء هذه الذكريات، يتوصل برغسون منطقياً إلى أن يرى في ذاكرتنا البرهان على وجود **الروح** التي لا تُختزَل تبعاً له في المادة الدماغية. بعض تأكيداته بهذا الخصوص تجاوزها الزمن، ومنظوره

الثنائي القطعي القائل بـ (ذاكرة في مادة الدماغ، وأخرى روحانية) لم يعد بالإمكان الدفاع عنه. فنحن نعرف الآن أن كل أنواع ذاكرتنا تتوقف على العمليات العصبية الدماغية، بدون أن تُختزَل في هذه العمليات. إلا أن حدسه الرئيس كان صائباً على كل حال: فذاكرتنا لا يمكن اختزالها في طابعها المادي، إذ هناك **شيء آخر** فوق ذلك.

هل هناك أنا خالد؟

إذا كان بروست يؤثر فينا في المقاطع التي ذكرناها من عمله بعنوان **في البحث عن الزمن المفقود** إلى هذا الحد، فذلك لأنه يمس شيئاً جوهرياً، أي يمس ذلك **الشيء الآخر**. فبقايا الذكريات هذه التي تملأ قلب الراوي بفرح غامر تكشف له حقيقة عميقة. ومع أن الراوي خاضع لمرور الوقت على غرار كل شيء آخر، فإنه حين يغمس كعكة مادلين في فنجان الشاي ويتذكر طفولته، يتبين له أنه رغم مرور السنون حاملة معها نصيبها من الأفراح والآلام، ومن الافتتان والأسى، فإن هناك شيئاً واحداً منه قد بقي، وهو ما يسميه بروست «الأنا الحقيقي»، الذي يختلف عن كل من «الأنا الاجتماعي» الذي يشير إليه كسطحي وعابر، والهوية الإدارية. يتخذ هذا «الأنا الحقيقي» عند بروست نبرة صوفية: إننا بصدد أنا عميق، أنا ثابت، إنه جوهر الأنا، الذي يبدو أنه يشير إلى إمكانية حياة أبدية. فإذا كان هذا الأنا يقاوم مرور الزمن، فلماذا لا يقاوم بالتالي بشكل أبدي؟

«دقيقة متحررة من نظام الزمن قد خلقت فينا من جديد الإنسان

المتحرر من نظام الزمن كي نتمكن من الإحساس بها. ونفهم أن هذا الأخير واثق من فرحه، حتى ولو أن مجرد طعم كعكة مادلين لا يبدو أنه يتضمن منطقياً أسباب هذا الفرح، ونفهم أن كلمة «موت» لا معنى لها بالنسبة إليه؛ إذ بوجوده خارج الزمن، فماذا يمكن أن يخيفه في المستقبل؟». ذلك ما كتبه بروست في هذا المقطع.

نحن لا نرى على الأغلب في هذا **الزمن المفقود** إلا التغيير، والشيخوخة، والسير الإلزامي نحو موت محتوم. بينما يعلِّمنا بروست أن نتبين فيه ديمومة ووعداً بالأبدية. وهكذا يمكن أن تساعدنا قراءة **البحث عن الزمن المفقود** على تكوين نظرة جديدة عن ماضينا، وعن مرور السنين، وعن الحياة ذاتها. فأي قراءة قوية هذه التي تقودنا إلى عتبة أمل فائق الغرابة: فكيف بإمكاني الإحساس بدوام الأنا فيما يتجاوز الزمن، إذا لم يكن هذا الأنا موجوداً خارج الزمن؟ ذلك هو جمال مفارقة بروست: إذ كي أتلمس وعد الأبدية هذا، يتعين عليَّ تذكّر تلك الظروف الماضية، والمنقضية، فهي أشبه ما تكون بمؤشرات على وجود هذه الهوية القادرة، ربما، على الإفلات من الزمن.

يكمن هذا الفرح الذي يشير إليه بروست في القناعة، التي نحصل عليها بفضل ذاكرتنا، بأن الأنا الخاص بنا ليس وهماً، وأنه ملموس إلى حد كبير بحيث يمكن أن يكون حتى أبدياً. تعطي هذه القناعة بالنسبة إلى بروست الذات المتذكرة، «المتحررة فجأة من نظام الزمن»، القوة بأن لا تعود تخشى المستقبل ولا حتى الموت.

الفصل الخامس

إدارة الظهر للماضي

«لا تتركيني/ يجب أن ننسى/ كل شيء يمكن أن يُنْسى». ذلك ما يعدنا به جاك بريل في إحدى أغانيه الأكثر إيلاماً من سجل الأغاني الفرنسية. كل شيء يمكن أن ينسى، حتى الماضي، وحتى خيباتنا، وجروحنا. يقترن وعد بريل برجاء: «لا تتركيني». لا تتركيني ولسوف نجد القوة لمحو أخطائنا، ونعاود الميلاد لحبنا، تماماً كهذين العاشقين «اللذين عاشا اشتعال قلبيهما مرتين». يغني بريل تلك الرغبة التي تنتابنا أحياناً في أن نهرب من ماضينا، وتلك الرغبة في أن نمسحه ونفتح السبيل أمام مستقبل مغاير.

وإذا كان الماضي يجرحنا أحياناً، ويثقل علينا بمثابة عبء كبير، ويحيلنا إلى مواجهة خيباتنا، وقصورنا، وخجلنا، أو إلى العنف الذي أصابنا، فلماذا لا نتركه بالتالي خلفنا، ولماذا نربك أنفسنا بألم يمضنا، وبقايا آثار تعيق حياتنا؟ أوليس المستقبل حافلاً بالوعود؟ أولا تلوح في الأفق مغامرات جديدة؟ حتى ولو كانت الذاكرة تؤسس لهويتنا، فهل من الضروري أن نحافظ على أسوأ

فترات تاريخنا حية؟ يتوقف علينا أن نتخلص من كل ذلك كي نتقدم بخطوات مريحة.

هنا تتمثل حكمة شعبية في القول: فلنتوقف عن اجترار الماضي، وعن العودة إلى القصص القديمة «التي تَمُتُّ إلى الماضي» من قبيل الصراعات العائلية، والخيبات الغرامية، والفشل المهني، والإهانات الاجتماعية... فحياتنا موسومة بهذه اللحظات الصعبة التي غالباً ما تُبْقي الجروح غير مندملة. يتعين إذاً أن نتجاهل الماضي كي نتوجه نحو المستقبل، ونركز على مشاريع جديدة بدلاً من اجترار أحقاد قديمة. والخيار سهل بين أولئك الذين هم في معسكر من يتقدمون، تاركين الماضي خلفهم، وبين أولئك المتعثرين، العاجزين عن الانطلاق من جديد. إننا نفضل الالتحاق بركب أولئك النساء والرجال الذين وجدوا القوة لإدارة الظهر لجروحات الماضي.

وعلى سبيل المثال، فبعضهم قد يكونون عانوا من أهل غير جديرين. فهم لم ينسوا حقاً أمهم الباردة والمتباعدة عاطفياً، وحتى القاسية أحياناً، إلا أنهم صفّوا تركة ماضي طفولتهم هذه، والتي لم تعد مسألة ذات شأن. فلقد كان ذلك منذ عدة عقود من السنين، في زمان آخر، وقد تكون أمهم ذاتها قد عانت من وطأة ماضٍ صعب، وتاريخ أسري مُثْقَل بالمتاعب، وفي النهاية ليس هناك من إنسان كامل... وبالتالي فماذا ينفع نكأ الجراح؟ وتحميل الأقارب الملامات؟ إنهم يفضلون شطب هذا الماضي، ويقررون الاستفادة

من والديهم طالما هم على قيد الحياة، ويجهدون اليوم في بناء علاقة معهم فشلت في الماضي. إنهم بالأحرى يتفاهمون جيداً ويتقاسمون اللحظات الطيبة، فأمهم النابذة أصبحت جدة محبوبة من أحفادها، يمكن الاعتماد عليها. وبدون أن ينسوا ماضيهم، فإنهم «انتقلوا إلى شيء آخر». ويبدو أنهم يُظهرون قوة حياة مثالية، وحتى يُبدون حكمة تتسم برباطة الجأش من خلال التمييز بين «ما يتوقف علينا وما يفلت من سيطرتنا»: فبدلاً من العودة واجترار ما لا يمكن تغييره، إذ ينتمي إلى ماضٍ مضى وانقضى، هم يركزون بدلاً من ذلك على الحاضر الذي يقع تحت سيطرتهم.

وفي حالات أخرى، هم انتزعوا أنفسهم بفضل الجهد والإرادة من بيئة غير مؤاتية. ومن خلال الارتقاء الاجتماعي، هم قرروا كذلك أن يقطعوا الجسور مع كل ما يمكن أن يربطهم بماضٍ أداروا له ظهورهم. فلقد قطعوا الصلات مع أصدقائهم القدامى، وحتى مع عائلاتهم أحياناً، حيث يشعرون أنهم أصبحوا جد بعيدين عنهم، وكأن الاتصال مع هؤلاء لم يعد ممكناً. وحيث إنهم فخورون بنجاحهم وبمكانتهم الجديدة، فإنهم يتباعدون عن هذا الفصل من تاريخهم الذي أقفلوه، رافضين العودة إلى منطقة طفولتهم على سبيل المثال، والتي تحمل العديد من الذكريات غير السارة.

وهكذا يروي ديدييه أريبون في عمله بعنوان **العودة إلى رانس** أنه قد رسم طريقه منذ زمن طويل، حيث خلق لنفسه حياة جديدة بعيدة عن حياته الماضية، وعن هذه الطبقة العاملة وطفولته، وبعيداً

عن ذلك الأب العنيف، أسير تحيزاته العرقية والتي تخاف من الغرباء. فلقد انخرط بكليته في البحث عن عالم جديد، جامعي حيث يمكنه بناء ذاته. وهكذا تمكن من بناء سعادته مقطوع الصلة بماضيه، وبذويه، وبدون الرغبة حتى في ملاقاة أطفال إخوانه.

وهناك آخرون أيضاً ينجحون، بعد أن مروا باختبارات رهيبة، في إعادة الانطلاق في الحياة بدون أن يعيقهم ماضٍ ثقيل الوطأة. فهناك أطفال متروكون يصبحون راشدين واثقين من أنفسهم وكلهم ثقة، وبدون أن يعرفوا من هم آباؤهم البيولوجيون، حتى أنهم لا يكترثون للإمكانية القانونية لمعرفة أصولهم؛ وهناك نساء معتدى عليهن يرفضن أن يُعَرَّفْنَ بمثابة ضحايا، وأن يتركن صدماتهن تعيق مسيرتهن الحياتية... إنهن يُعِدْنَ بناء حياتهن من جديد بهمة تدعو إلى الإعجاب والمحاكاة، حيث يركزن اهتمامهن على السعادة الراهنة بجانب أحبابهن، وكأنهن يقاومن ذكرى صدمات الماضي. إنهن يفضلن التقدم والنماء من خلال الحب الذي تقدمه لهن الحياة، ويتطلعن إلى المستقبل الذي سوف يخترعنه بدلاً من ندب حظهن لماضيهن المؤلم.

نعرف عن ديفيد بوي الإبداع الفائق، إعادة الخلق الدائمة تلك، من ألبوم إلى آخر، مما شكل مفتاح عمره المديد. وسواء أَجَسَّدَ ميجر توم أو زيغي ستارداست، فهو يشكل تلك القوة المجددة دائمة التحول، التي تغذي موسيقاه بالفضول والاهتمام بكل أنواع الفنون الأخرى: السينما، المسرح، الأزياء،

المحاكاة. . . إلا أننا نعلم القليل عن طفولته التي كانت صعبة في ضاحية لندن، فهو كان متروكاً ومهملاً من قِبل أم باردة العواطف وأب غير مكترث، فتعين عليه بناء حياته وحده مع أخ غير شقيق أكبر منه بعشر سنوات اسمه تيري، وكان فصامياً، عرّفه على عزف الموسيقى وانتهى به الأمر إلى الانتحار، تماماً كما انتحرت خالتان من خالاته كانتا تعانيان بدورهما من اضطرابات نفسية.

كانت الحياة على كوكب مارس، والألعاب التعبيرية التي يقوم بها ممثل المحاكاة المسرحية، أو الجولات في أنفاق المترو تشغل أفكار بوي الشاب أكثر بكثير من حياة طفولته في ضواحي لندن. وعندما يحدث أن يثير باختصار شديد سنوات حداثته الأولى في بعض المقابلات، يذكر ذكرى واضحة جداً تعود إلى سن الثامنة من عمره؛ إذ حين كان يلاحظ بيئته كان يلفت انتباهه تجلٍّ محدد: الحياة التافهة لهذه الطبقة الوسطى، المليئة بالضجر والحسرة، لن تكون حياته هو. لقد أصبح حينها في عالم آخر. وكان على وعي، منذ حداثته، بالمصير الذي ينتظره. فبوي ليس ذلك الإنسان الذي ينظر إلى الوراء. إذ بعد ما يقارب من ثلاثين ألبوماً من الغناء، ليس هناك أغنية واحدة عن أمه، ولا عنوان واحد عن حالة ذلك الصبي الصغير المهمل، وكذلك ليس هناك من أغنية عن وحدة هذا المراهق وحيائه المرضي الذي كان يعاني منه. بينما هناك فنانون آخرون كانوا ليجعلوا من ماضٍ كهذا لب أعمالهم الفنية يتطهرون فيه من ماضيهم الشخصي المثقل بالمعاناة ومحولينه إلى مادة إبداعية في فعل فني وتفريجي في آن واحد. في حين أن بوي يعيش في الحاضر

ويتطلع إلى المستقبل، مدفوعاً بالرغبة في تجربة كل شيء؛ من الموسيقى إلى الحياة ذاتها. إذ ليس لديه وقت يضيعه، أو هو لا يرى جدوى من اجترار الماضي. وإذا كان موضوع الجنون يتخلل أعمال بوي، من قبيل أغنية **كل الرجال المجانين** في ألبوم **الرجل الذي باع العالَم**، على سبيل المثال، فإن الفنان بنى حياته وأعماله من خلال التوجه الواثق نحو المستقبل، بمثابة نوع من الهروب إلى الأمام، ربما يعود إلى خوفه من أن يصاب بالجنون هو الآخر، كما اعترف في إحدى المرات. وعندما يعالج هذا الموضوع، فهو لا يثير أبداً تقريباً ذكرى أخيه غير الشقيق تيري أو خالتيْه، وإنما هو يفعل ذلك على الدوام بشكل غير مباشر، ومن خلال شخصيات من قبيل علاء الدين سان أو من خلال خوفه من أن يصاب هو ذاته بالجنون، كما فعل في أغنية **أنا مضطرب**. وبالطبع فنحن لسنا ديفيد بوي، وليس لدينا الإبداع المتفلت من عقاله المتلون، إلا أنه بإمكاننا جميعاً أن نختار، على غراره، التوجه بمزيد من الإقدام نحو المستقبل بدلاً من التوجه نحو ذكرياتنا.

موقف «حداثي»

موقف كل هؤلاء الرجال والنساء يمكن وصفه بأنه «حداثي» بامتياز بالمعنى الأول للكلمة - أي المعنى الذي اتخذه في «النزاع الشهير ما بين القدماء والحداثيين» والذي شغل فرنسا طوال القرن السابع عشر. فبالنسبة «للقدماء» (لافونتين، لابروبير، راسين، بوالو)، فإن احترام الماضي يحدد عظمة الحاضر، فالملك مثلاً

ليس أبداً عظيم الشأن إلا إذا كان وريث تاريخ يتجاوزه، والفن ليس أبداً جميلاً إلا إذا كان أميناً على تقاليد الماضي الكبرى. وبالمقابل، فبالنسبة «للحداثيين» ومنهم بيرو وموليير، يتعين أن يكون الفن منقطع الصلة بالماضي، يبتكر ويفتح منظورات جديدة، كما يتميز ملك كبير بقدرته على التحرر من أثقال الماضي كي يؤسس زمناً جديداً. وهكذا فالحداثي هو ذاك الذي يتجرأ على القطع مع التقليد، والذي يتحرر مما سبقه، ومن خلال حريته، وجرأته يخترع عالماً جديداً. الحداثي هو ذاك الذي يقرر إدارة الظهر للماضي، والحداثيون هم كذلك فنانو القرن العشرين الرواد (النزعات المستقبلية، والدادائية، والسريالية. . .) الذين حاولوا جميعاً إعادة تجسيد حركة القطيعة، وأرادوا أن لا يرثوا أحداً، وطمحوا لتأسيس فن جديد. والحداثة هي أيضاً وجودية سارتر الذي يعتبر أن الوجود هو أن نلقي بأنفسنا إلى الأمام، ونخلق حريتنا بدون توقف، وأن لا نكون أبداً محددين بماضينا. وبوي هو حداثي عندما لا يتوقف عن الميلاد من جديد من رماد ماضيه كي يعاود اختراع نفسه، وجاك بريل هو بدوره حداثي حين يغني أننا يجب أن ننسى، وأن كل شيء يمكن أن يُنسى - بريل هذا كان بوي أحد المعجبين به. نكون مشدودين نحو روحية الحداثة هذه في كل مرة نفضل فيها التطلّع إلى الأمام ونقرر أنه من غير المجدي العودة إلى ماضينا، وفي كل مرة ينتابنا الشعور بأن تاريخنا ليس وراءنا، وإنما هو ما سوف يأتي.

ارحلي: هو عنوان إحدى أجمل أغنيات جاك هيجلان صدرت في العام 1976، أي بعد سبعة عشر عاماً من أغنية بريل بعنوان **لا تتركيني**. «ارحلي»، «ولا تلتفتي إلى الوراء» يضيف هيجلان - «إلى الماضي»، كما قد يحلو لنا أن نضيف. يتوجه جاك هيجلان في هذه الأغنية المؤثرة إلى حبيبته كويلان نغويان التي وقعت في حب رجل آخر. «ارحلي»: كأنه يوحي لها - في بداية الأغنية على الأقل - أن تقلب صفحة تاريخهما الغرامي كي تبحث عن سعادتها الجديدة. كويلان نغويان لا تعدو كونها **البنت الصينية** التي غناها كل من إيغي بوب وديفيد بوي. لقد التقيا بها في قصر هيروفيل، محترف التسجيل الأسطوري الواقع في منطقة فال دواز، وذلك حين كانا يعملان على ألبوم إيغي بوب بعنوان **الأبله** وحيث كان جاك هيجلان يقيم مع حبيبته وابنهما كِن. «ارحلي، ولا تلتفتي إلى الوراء»: يمكن أن تكون هذه الجملة لازمة الروحية الحداثية. إنها تشكل الصدى لأغنية جاك بريل في العام 1959 القائلة **يجب أن ننسى، كل شيء يمكن أن يُنْسى**. يقترح جاك هيجلان على مَن أحبها أن ترحل، بينما يتوسل جاك بريل إليها على العكس أن تبقى، ولكن كلاهما يغنيان إمكانية قلب صفحة الماضي.

وكلما كانت الذكرى، سعيدة كانت أم بائسة، مرتبطةً بمعاناة عميقة، وعذاب يفوق الاحتمال، بدا من الضروري إدارة الظهر لها. فأحياناً، أن نترك لبعض الوقت الماضي حبيس علبة مقفلة، قد يبدو قضية حياة أو موت.

الماضي أو الحياة

وهكذا، فقد تطلَّب الأمر ما يقرب من خمسين عاماً لخورخي سيمبرون، وبعد خروجه من معسكر اعتقال بوخنفالد حيث سجن من عام 1943 إلى عام 1945، كي يعود إلى سنوات الاعتقال في عمله بعنوان **الكتابة أو الحياة**. تسرد هذه الرواية كلاً من تجربته في المعسكر الذي نُفِيَ إليه إثر عمليات مقاومة، والتفكير حول استحالة التخلص من هذه التجربة التي وصفها بأنها «أن تعيش موتك» بواسطة الكتابة. كانت كتابة هذا الكتاب طويلة وشاقة، وتعرضت للإجهاض العديد من المرات: فمن خلال الغوص من جديد في جحيم المعتقل، كان الموت ذاته يطغى عليه. ولقد حاول، منذ خروجه من الاعتقال في أبريل 1945، أن يكتب وأن يروي، مقتنعاً بأن الكتابة تتيح التعبير عما يستعصي على الوصف، أي ما عانوه في معسكر بوخنفالد، وأن ينقل هكذا تجربة الرعب. لقد أمل «أن يحكي الموت كي يسكته». وكان العنوان الذي في ذهنه يسمى «الكتابة أو الموت». إلا أنه فشل في ذلك. «إذ لو تابعتُ الكتابة، فإن الموت هو ما كان سيجعلني أخرسَ»، كتب قائلاً. كان عليه أن يقر بالواقع: فبدلاً من أن تكون الكتابة فعلاً تفريجياً، وضعته في حالة خطر، وأغرقته في قلق الموت الذي أصبح خبزه اليومي. إذ من خلال إعادة التذكر، وإعادة الصلة بالأصدقاء الذين فقدهم، فإنه أعطى للموت الحياة من جديد، بقوة خانقة. وكذلك، فحتى لو عرف كيف يضع على الورق تجربة المعسكرات الرهيبة، فمن في هذه الفترة المباشرة بعد الحرب كان مستعداً للاستماع إليه؟ إننا لا

نودّ النظر إلى الوراء عندما نكون بصدد إعادة إعمار كل شيء. وكما أوضحه بعد ما يقرب من أربعين سنة في عمله بعنوان **الكتابة أو الحياة** والذي صدر في العام 1994، فإن تجربة معسكرات الاعتقال ليست غير قابلة للوصف فقط، وإنما هي «غير قابلة للحياة». ولكن لكي نكتب يتعين إعطاء الحياة من جديد للذكريات. وكان الخطر كبيراً جداً «أن نقع من جديد في التكرار وفي اجترار الكلام، ناهيك عن عدم القدرة على الخروج من المأزق، وأن نطيل أمد الموت، وحتى إعادة إحيائه بدون توقف في أسوأ ثنايا الرواية، وأن لا نكون بالتالي سوى لغة هذا الموت، وأن نعيش في كنفه، بشكل لا يطاق». ويوضح من ثم: «كانت الكتابة تعيد غوصي أنا ذاتي في الموت، وتغرقني. كنت أختنق في هواء مسوداتي غير القابل للتنفس». فهو من خلال رواية هذا الموت لم يعط عندها لهذا الموت مكانة تسحقه، وتخنقه في كل من جملها، وفي استرجاع كل من مآسيها اليومية، وإنما كانت الكتابة تعني فوق ذلك إعطاء هذا الموت ذي الحضور المهيمن سلطاناً جديداً عليه، مما يهدده في الانجراف إلى حيث تمكن من البقاء سنوات عديدة قبل ذلك.

وهكذا بدا أن الخيار الأفضل هو وضع مسودة هذه الرواية في أحد الأدراج وإقفاله على ذكرى سنتي الاعتقال اللتين أمضاهما في معسكر بوخنفالد. ولقد تطلَّب الأمر منه ما يقرب من عشرين سنة كي يتمكن من مجابهة تجربة الاعتقال هذه من جديد ومن نشر كتابه **الرحلة الكبرى** في العام 1963 والتي بدأ فيها عمله على مذكرات

معتقل منفي. وخلال العشرين سنة هذه، كان بحاجة أن يعيش فيما أسماه «فقدان ذاكرة إرادي»، وأن يهرب من ماضيه من خلال الابتعاد أقصى ما يمكن عن جحيم العيش في معتقل بوخنفالد. وهو يعترف في عمله بعنوان **الكتابة أو الحياة** «أنه كان مثيراً أن مسألة الشيخوخة لم تعد من الآن فصاعداً، ومنذ ذلك اليوم المشهود من أبريل، تقربني من الموت بل هي على العكس أصبحت تبعدني عنه». يعرض كتاب **الكتابة أو الموت** عشرات السنوات من التردد: فإما الكتابة، مع خطر أن يرى ذاته غارقاً في المعاناة، وأن يعيش الموت من جديد مع استعادة أشقى الأيام، أو تفضيل الحياة، وعمله بمثابة كاتب سيناريو للعديد من مخرجي الأفلام الشهيرة، أو معاركه السياسية (حيث سيصبح مناضلاً شيوعياً، وحتى وزيراً للثقافة في إسبانيا ما بين الأعوام 1988 و1991). وهو من خلال خياره الثاني يعرف أنه سوف ينفصل إرادياً عن شطر من تاريخه. فإما أن يكتب ويتذكر، أو أن يعيش وينسى. وعي كامل أسهم في أن يجعل من عمله بعنوان **الكتابة أو الحياة** تحفة أدبية، يتضح لسيمبرون أنه ولا واحدة من الإمكانيتين قابلة لأن تحتمل في الحياة...

ليس من السهل عملياً الهروب من الماضي الذاتي. نحن نفهم بالتأكيد هذه الحاجة إلى النسيان التي عاشها خورخي سيمبرون، تماماً كما نفهم رد فعل بعض أطفال الناجين من الإبادة العنصرية في رواندا، حيث اختاروا الهروب من صدمة ورثوها عبر أهلهم.

يثير الروائي ومغنّي الراب غاييل فاي، كاتب عمل **بلد صغير** حالة هؤلاء الأحداث الرونديين أو البوروندييين الذين لم يعودوا يقبلون سماع روايات الإبادة العنصرية - أو ما أسماه جان هاتزفلد «موسم السواطير» -، وإنما يودون ببساطة تذوق مسرات حاضر مسالم والعيش كبقية البشر، متحررين من ماضي دماء صعب الاحتمال. فأهلهم، أصدقاء دائمون، وجيران مسالمون، أخذوا يقتلون بعضهم بعضاً ما بين عشية وضحاها؛ وعلى الأغلب من خلال التضارب بالسواطير. فهذه البربرية لا يمكن تصورها، وذاكرة هذه الأحداث المأساوية غير قابلة للاحتمال بحيث نفهم الرغبة في الانصراف عنها. إذ كيف يمكن الإطلالة على جهنم هذه التي لا يمكن تعقلها؟ إذ إن الظلمات قد تغرقهم في لجّتها. وحيث إنهم عاجزون عن فهم هذه الفظائع، واستيعابها، فهم ينبذونها وكأنها سم قاتل. فهم بدورهم بحاجة كي يستمروا، أو كي يعيشوا ببساطة في الحاضر، إلى ترك الماضي حيث هو، بعيداً وراءهم، قابع تحت غطاء متين وسميك.

غاييل فاي يفهمهم، حتى ولو انتابه الشك أن موقفهم هو السليم: إذ بالنسبة إليه وحده الشغل على الذاكرة يمكن أن يتيح إمكانات العيش معاً وإعادة تأسيس مستقبل. تتجاوز هذه الجرائم ضد الإنسانية القابلية للفهم وتفرض علينا أكبر قدر من التعقل، إذ من الصعب معرفة أي خيار، الذاكرة أم النسيان، سوف يتيح إعادة الارتباط بالحياة بعد عبور جحيم من هذا القبيل.

الثمن النفسي للتجنب

يتعين على كل حال دفع الثمن الذي لا مفر منه حين تجنب الماضي والذكريات الأليمة أو الصدمية. إذ ليس من السهل تجاهل الماضي. فهذا الأخير يحملق فينا، ويصر، ويرد الهجوم. إذ يفرض استبعاده جانباً صراعاً دائماً، قد يصبح لا واعياً، وآلياً، ولكن بالتأكيد ليس مجانياً: فهناك دوماً ثمن نفسي يتعين دفعه في أحد الأيام. وإذا استطعنا التقدم من خلال تجنب الماضي، فسوف يتحول دربنا سريعاً إلى طريق صاعد ومُضْنٍ. فالطاقة المبذولة في هذه المعركة الداخلية لن تلبث أن تستنفدنا، ومع التعب تبدأ ردود الفعل: التوتر، العدوانية وحتى الوقوع في حالة الاستنزاف النفسي. قد نكسب بعض المعارك، ولكننا لن نخرج منها سالمين. وقد نخسر الحرب في النهاية. ذلك أن التجنب هو فخ قد يحاصرنا. وهو يفعل ذلك في عنف تجاه أنفسنا أولاً، وضد هذا الماضي الذي هو جزء منا، سواء شئنا أم أبينا، ومن ثم ينتهي الفخ بأن يتغلب علينا. إذ نعتقد أننا هزمنا صدماتنا، وتخلصنا منها، وإذا بفخ التجنب يتكشف: فيعود الماضي بقوة أكبر من قوة قمعنا له، وإذا به يصرعنا في لحظة ضعفنا الأشد، حيث تُستَنْزَف النفس في هذه المعركة الطويلة. فتجاهل ماضينا هو استراتيجية خطيرة.

وفوق ذلك، فإذا كانت الروحية الحداثية تتضمن جاذبية بالتأكيد، وإذا كانت تشكل دعوة للحرية مشوبة ببعض اللامبالاة، وإلى عيش الحاضر بدون حدود والانطلاق بثقة نحو المستقبل، إلا

أنه يتعين أن نبدي بعض التعقل بصددها. إذ إن مساراً من هذا القبيل قد يتخذ أحياناً شكلاً كاريكاتورياً، وإيديولوجياً: بمعنى أنه يكفي اتخاذ قرار إرادي وحازم، كي يصبح ماضينا وراءنا بشكل نهائي، وملفه مُقْفَلاً إلى الأبد. تتجلى هذه الإيديولوجية حالياً بأشكال متعددة، إذ نجدها في نظريات التنمية الذاتية التي تدعونا إلى صرف النظر عن انفعالاتنا السلبية، من قبيل الأسف، ومشاعر تأنيب الذات، أو ذكريات خيباتنا، وبحيث ننمّي المشاعر الإيجابية عوضاً عنها. كما نراها تطل برأسها، خفية، في تلك التعابير المقتضبة لأولئك الذين يختزلون كل اهتمام بالماضي في نوع من اجترار الكلام الفارغ، أو في ذلك النجاح الذي يلقاه القول المنسوب خطأً لفولتير، والذي نصادفه على القمصان الرياضية، أو على الأكياس، أو مطبوعاً على فناجين الشاي والذي يقول: «لقد قررت أن أكون سعيداً لأن ذلك مفيد للصحة». الصيغة مغرية، ومحببة ولكنها «مختلة» إذ إننا لو فكرنا فيها سنجد أنها تتضمن الفرضية التي تذهب إلى القول بأن سعادتنا تقوم على قرار إرادي، وأن كل ماضٍ مؤلم يمكن كنسه بحركة يد رافضة، وأن سعادتنا لا تتوقف إلا علينا وعلى موقفنا تجاه الحياة، وعلى قدرتنا على تغيير نظرتنا للأمور، وعلى قوة إرادتنا. وكما أنه قد يكفينا، تبعاً لهذه الإيديولوجية الحداثية، أن نتعلم رؤية «نصف الكوب الملآن» وليس «نصفه الفارغ» كي نكون سعداء، كذلك ليس علينا سوى اختيار النظر بعيداً أمامنا بدلاً من اختيار النظر في المرآة العاكسة للرؤية الخلفية كي نشفى من اجترار آلام الماضي ونستعيد صحتنا. ومهما

بدت جاذبية هذه الآراء قوية، إلا أنها تنفي تعقيد حياتنا الإنسانية. يتوافق معظم المعالجين النفسيين - بمن فيهم المحللون الكلاسيكيون الفرويديون واللاكانيون «وخصومهم» المزعومون السلوكيون منهم كما المعرفيون الذين يقترحون علاجات نفسية قصيرة المدة - يتوافقون على هذه النقطة أي أن: إيديولوجية من هذا القبيل يمكن أن تكون خطيرة. فأن نتوجه بدون وعي نحو المستقبل، «بدون الالتفات إلى الوراء» يضاهي التعرض لخطر عودة هذا الماضي بقوة أكبر بمقدار تجاهله.

أثر الدب الأبيض

في عمله بعنوان **ذكريات شتاء عن مشاعر صيف** المنشور في العام 1863، يبدي دوستويفسكي ملاحظة مذهلة تقول: «حاول أن لا تفكر في دب قطبي، وسوف ترى أن هذا الدب الشيطاني سوف يخطر في ذهنك في كل دقيقة». تساءل عالم النفس الأميركي دانيال ويغنر، في ثمانينيات القرن الماضي، والحيرة تنتابه، عما إذا كان بالإمكان إثبات هذه الفرضية بواسطة تجربة علمية، فجمع عدداً من المتطوعين في غرفة فارغة وطلب إليهم أن يركزوا انتباههم على أي شيء كان ولكن ليس دباً أبيض. وتعين عليهم أن يدوسوا على جرس منذ اللحظة التي يخطر هذا الحيوان على ذهنهم. وبسرعة كبيرة تعالت أصوات الأجراس محدثة جلبة كبيرة.

ولقد طُبِّقَت هذه التجربة التي أثبتت ما يسميه علماء النفس

«أثر الدب الأبيض» على مجموعتين ضابطتين بعد ذلك. كان يتعين على المجموعة الأولى أن لا يفكر أفرادها بدب أبيض، وعمل كل ما بإمكانهم عمله لتجنب هذه الصورة؛ بينما طُلِبَ من المجموعة الثانية التفكير إرادياً بالدب الأبيض؛ وفي كل يوم تعين على كل فرد من هذه المجموعة تسجيل تواتر فكرة الدب الأبيض إلى ذهنه. وبعد عدة أيام، أظهرت النتائج بوضوح أن أعضاء المجموعة الأولى رأوا الدب الأبيض يخطر على ذهنهم بوتيرة أكبر بكثير من أعضاء المجموعة الثانية. ولقد أُجرِيَت صيغة مختلفة من هذه التجربة قبل ذهاب الأعضاء إلى السرير والنوم، ولقد حفلت أحلام هؤلاء بصورة الشيء الذي كان من المفترض تجنبه.

ومن خلال استخلاص دروس هذه التجارب والرغبة في تعميقها، قامت كل من جنيفر بورتون وإليزابيث كيسي من كلية هاملتون في نيويورك بمحاولة فهم أفضل للعلاقة ما بين التجنب واضطرابات المزاج. وهكذا طلبتا إلى مجموعة من المفحوصين أن يحددوا الفكرة الأكثر إزعاجاً التي يكوّنونها عن أنفسهم ذاتها. وقامتا من ثم بتقسيم المجموعة إلى مجموعتين فرعيتين، وطُلِبَ إلى المجموعة الأولى تركيز انتباههم على طرد هذه الفكرة من أذهانهم، ولم تعط أي تعليمات للمجموعة الثانية سوى متابعة حياتهم العادية طوال الأحد عشر يوماً مدة التجربة. وفي نهاية كل يوم، كان يتعين على كل فرد أن يدوّن تكرار حضور هذه الفكرة المزعجة في ذهنه، والإجابة على أسئلة عامة حول حالته المزاجية. أثبتت النتائج أثر «الدب الأبيض»: فأفراد المجموعة

الأولى كانوا أكثر انشغالاً وبشكل دال بهذه الفكرة السلبية كما أنهم أظهروا بعد أحد عشر يوماً أنهم أكثر اكتئاباً من أفراد المجموعة الثانية. وهكذا فالرغبة بكبت الأفكار السلبية أو تجنبها كانت لها آثار سلبية على المزاج. والواقع أن أحد موضوعات تجنبنا الرئيسة هو تجنب ماضينا. وكلما أمعنا في محاولة مسحه، حاول الظهور. . . وبشكل مزعج.

في مقالته المطولة بعنوان **التصالح مع ماضينا** يؤكد جان-لويس مونستيس، المعالج النفسي المتخصص بمسألة ضغوط ما بعد الصدمة والباحث في مركز الأبحاث الفرنسية أن موقف نبذ الذكريات يندرج ضمن ما يسميه علم النفس «التجنب»، وأن هذا الأخير هو غير منتج في أغلب الأحيان. ويشرح هذا الباحث قائلاً إنه كلما أمعنا في محاولة الهروب من ماضينا، عجّل في اللحاق بنا. وكلما حاولنا تجنب الذكريات المؤلمة، والانفعالات السلبية، أو حتى الصور الصدمية، ازداد تعرّضنا لإعطائها المزيد من القوة.

يصر جان-لويس مونستيس على أهمية أثر بروز ماضينا الذي تم تجنبه من جديد في علاج صعوبات استئناف حياتنا بعد صدمة اغتصاب، أو محاولة اغتيال، أو قصف مدفعي، أو حادث سير، أو عدوان، أو كارثة طبيعية. وما يصدق على أفكار بسيطة وغير عنيفة تتدخل في تجربة الدب الأبيض، يصدق بدوره وبقدر أكبر، في إطار تجربة الأفكار السلبية التي قام بها بروتون وكيسي، وهو يصدق أكثر من ذلك بالنسبة إلى ذكرى مثقلة انفعالياً أو عاطفياً.

ويعلمنا جان-لويس مونستيس أنه كلما كانت الصدمة أشد، أصبح

فخ التجنب أكثر خطورة؛ إذ كلما استهلك التجنب مقداراً أكبر من قوى الطاقة، برزت الصدمة من جديد وبعنف أشد.

«يبذل ضحايا كارثة ما غالباً جهوداً هائلة كي لا يفكروا في الصدمة، ولا يتذكروا، أو يتحدثوا عنها. كما يتم تجنب ذكر الأماكن والأشخاص التي تثير ذكريات الكارثة. ويبدو أن الطاقة المبذولة في هذه الحالات من التجنب هي على قدر الصدمة المعاشة والخوف الذي عانوا منه». ويبين هذا الباحث أنه، في غالبية الحالات، فإن «الإرادة العنيدة للنسيان تتناسب مع إمكانية عودة ظهور الذكريات الصدمية. [. . .] وغالباً ما تعاود الذكرى الظهور المفاجئ حتى بعد أن حاول الضحايا عدم العودة إلى التفكير بما خبروه».

يعاين سيمبرون الأمر ذاته، حيث وجد نفسه عاجزاً عن الكتابة عن تجربته في معتقلات الموت، فهو يكشف أنه خلال سنواته من فقدان الذاكرة الإرادي، وإذا بالكوابيس المتكررة تدهمه مع إلحاح الحاجة لتحسس جسد قرينته كي يتأكّد أنه لم يعد هناك في معتقل بوخنفالد، وأن كابوس الاعتقال قد انتهى. «فهل حلمت بحياتي في بوخنفالد؟»، فقد وصل به الأمر إلى هذا الحد بحيث لم يكن باستطاعته أن يميز أياً من حياتيه في المعتقل وما بعده هي «الحقيقية». ولا تلاحقه هذه الصور وهذه الذكريات المفاجئة لحياته في المعتقل أثناء نومه فقط. فحتى في يقظته، ورغم حياته المليئة جيداً، تنتابه تلك الذكريات بانتظام، حيث يتذكر قطعة الخبز السوداء تلك بمثابة وجبة فريدة والتي كان يحاول مضغها بأقصى ما

يمكنه من البطء، وتلك المراحيض التي تقزز النفس والتي كانت رغم كل شيء المكان الذي يشعر فيه بالراحة، وكأنه محمي من عنف المعتقل، خصوصاً تلك الروائح التي تعاوده من الماضي كي تملأ أنفه، أي روائح دخان مكان حرق جثث المعتقلين، وروائح عطور كتائب SS النازية. . .

ولكي يوثق كلامه، يعدد جان-لويس مونستيس ذكر حالات عملية من ممارسته، وخصوصاً حالة إحدى مريضاته التي كانت راشدة في فترة العلاج والتي تعرضت للاغتصاب بانتظام ما بين سن السابعة والرابعة عشرة. إذ اعتقدت زمناً طويلاً أنها ستجد السلام في النسيان، ولكن ومع الوقت أخذت تعاودها وبمزيد من التكرار ما حاولت أن تكبته بكل قواها: كوابيس، خواطر مشاهد سريعة للاغتصاب، اضطرابات جنسية متفاقمة بحيث أصبحت تعيق حياتها أكثر فأكثر. ومع مرور السنين، عاودت ذاكرتها لحظات ذات دقة متزايدة - ذكرى أماكن، ومشاهد، وكلمات، وروائح مصحوبة بمخاوف ولحظات ذعر وذهول. وبينما كانت على قناعة أن صحتها النفسية تتوقف على قدرتها على النسيان وعلى محو ذكريات سنوات الجحيم السبع، وجد جان-لويس مونستيس أنها بدأت عملية شفائها في اليوم الذي قبلت فيه بأن هذا المحو لذكريات الاغتصاب كان مستحيلاً: «لقد عبرت مرحلة أولى من الشفاء حين توصلت إلى الاستنتاج أنها لن تتمكن أبداً من نسيان تلك الفترات المؤلمة. وأعتقد لسوء الحظ أنها كانت على حق في ذلك، [. . .] إذ الوصول إلى هذا الاستنتاج يشكل الخطوة الأولى لإعادة بناء

حياتها». قد تكون نجحت في أن تنسى طوال هذه السنوات، إلا أن ثمن هذا النسيان تمثل في تعب نفسي دائم. إذ كان يحدث لها، على سبيل المثال، أن تقضي نهايات أسبوع كاملة في سريرها، وأن تستغرق بدون سبب واضح في نوم طويل وعميق غير عادي. وقد توضح حالتُها حقيقةً عامةً تبعاً لهذا المعالج النفسي: فإذا كان كبتاً من هذا القبيل يبدو ضرورياً في بعض الحالات، كي يتمكن المريض من الصمود لمدى قصير أو متوسط، فإن هذا الكبت يمكن أن يولّد على المدى الطويل وضعية نفسية تتجاوز القدرة على الاحتمال. يشير جان-لويس مونستيس إلى اللحظة المحددة التي انطلقت فيها مريضته في عملية تحررها، عندما نطقت الكلمات التالية: «في الواقع، ليس بالإمكان أن ننسى»، وكأنها تخفّفت من أثقالها أخيراً من خلال السماح لذاتها بأن تتوقف عن الصراع ضد ذاكرتها. وكأنها أصبحت تحس بأنها قادرة على العيش مع ذكرى ما قاسته من معاناة، وأخذت أخيراً تفكر في إمكانية «عقد صلح مع ماضيها»، وأن تتوقف عن محاربته وأن تفتح له الباب كي تستقبله وتعطيه مكانه في الحاضر.

الذاكرة الصدمية

بمناسبة حركة MeToo لتحرير كلام النساء، سمعنا العديد من الشهادات التي تذهب نفس المنحى: إننا بصدد نساء اعتقدن بدورهن أنهن نجحن أن «ينسين»، إلا أنهن علقن بفخ ماضيهن بمثابة فتيات مغتصبات أو معتدى عليهن.

أبدت بعضهن موقفاً إرادياً بدا في البداية أنه ناجح: إذ قررن أن لا يفكرن في الأمر، واعتدن على طرد صور الصدمة ما إن تبرز في وعيهن من جديد، وعشن تجارب جديدة سعيدة صالحتهن مع الحياة، وعشن في النهاية فترة طويلة من الزمن ينتابهن الشعور بأنهن قلبن الصفحة، وذلك قبل أن يعود ماضيهن إلى مطاردتهن. اتخذت عودة هذا الماضي الذي تم تجنبه أشكالاً متعددة: الغرق المفرط في العمل، صعوبة بالإخصاب والحمل، فقدان النشوة الجنسية، عودة بعض الذكريات على شكل خواطر مفاجئة، اضطرابات الأكل بالغة الشدة، نوبات قلق لا تفسير لها، خواطر انتحار - وحتى محاولات انتحار - واكتئاب عميق... ومع ذلك فلقد أظهرن قدرات ملحوظة للتمتع بمزاج طيب وللتمتع بالفرح، والتعطش للوجود، ورغبة في الإقدام، وهي تلك الصفات التي ذكرناها باعتبارها من مقومات الروحية الحداثية بأفضل ما فيها، إلا أن ذلك كله لم يكن كافياً، إذ استمر ماضيهن في التأثير عليهن، ولو بشكل خفي أحياناً، كي ينتهي بتوليد أعراض؛ فالماضي لم يمض.

بعضهن الآخر لم يقمن حتى بمجهود واعٍ لمنع انبثاق ماضيهن من جديد، ذلك أن لاوعيهن تولى كبت تلك الخبرات المؤلمة وانفعالاتها، كي يحميهن منها، نظراً لعنف ما عشنه، ونظراً لما تعرضن له مما هو فوق الاحتمال. الشهادات غفيرة حول أولئك الفتيات اللواتي تم اغتصابهن من قبل أحد أفراد العائلة خلال مراهقتهن، أو حتى طفولتهن، واللواتي لم يحتفظن عن هذا

الاغتصاب بأي ذكرى واعية ولزمن طويل، فعنف الصدمة جعل من الضروري كبتها. حتى يأتي اليوم الذي برز فيه هذا الماضي من جديد، ووجدنَ أنفسهن مذعورات وفاقدات للسيطرة، حيث كن عاجزات عن إعطاء معنى لمؤشرات عودة بروز الذكريات التي لم يعد بإمكانهن تذكرها. فهذا النوع من عدم الفهم والاستيعاب يمكن أن يزيد من خطورة أعراضهن، ويدفعهن في حلقة مدمِّرة. ويبين العنف الناجم عن ذلك إلى أي مدى لا يمكن التجنب الدائم لهذا الماضي الصدمي. فمن الجوهري إذاً الانخراط في علاج نفسي بغية الشغل على مواجهة الذاكرة وصولاً لاستعادة طعم الحياة وفتح أبواب المستقبل. إذ إن الهروب من هذا الماضي - سواء اتخذ هذا الهروب شكل محاولات تجنب واعية، وإرادية، أو هو اتخذ شكل كبت لاواعٍ بالمعنى الحرفي - فإن هذا الهروب نادراً ما يتيح التحرر من ذلك الماضي.

ومن بين ضحايا التجارب الصدمية، ثلثهم فقط تظهر عليه أعراض اضطراب الضغوط التالية للصدمات (PTSD) والتي تتمثل بما يلي: لمحات تذكر خاطفة وعنيفة تعاود المصاب، كوابيس متكررة، صعوبة العودة إلى التمتع بالحياة، صعوبة تحمل الوضعيات التي تذكّر بالصدمة، التوتر والهياج الدائم، القلق والاكتئاب [ويشعر الواحد من هؤلاء أن حياته قد فسدت ولا خلاص له من هذه الحالة]. أما الآخرون فيبدون قادرين على استئناف حياتهم العادية، بعد مرور فترة زمنية متغيرة حسب الحالة. فمن أين يأتي هذا الفارق؟ ذلك ما يتساءل عنه مونستيس في عمله

بعنوان **التصالح مع ماضينا**، حيث يشكل جوابه الواضح اعتراضاً بارزاً على إيديولوجيا الحداثة: فالأشخاص الذين لديهم أفضل الفرص لتجاوز الصدمة هم تحديداً أولئك الذين لا يتجنبون المشاعر المؤلمة المصاحبة للصدمة؛ والذين لا يفعلون أي شيء على الإطلاق لتجنب التفكير في الحدث ثانية. وهكذا فإننا نعيش بشكل أفضل مع ماضينا الصدمي من محاولة الهروب منه.

الإدمان على الكحول من أجل النسيان

غالباً ما يشرب المدمن كي يهرب من ماضيه، أو ينسى قطيعة أو فشلاً، أو إهانة، أو حداداً على عزيز؛ فهو يشرب كي يخفي مأساة وجوده. يعمل الشرب في البداية جيداً: إذ يتيح له الهروب من همومه، وطمس الذكريات المؤلمة. ولكن هذه المهلة لا تعدو كونها قصيرة المدة: حيث يعاود الماضي الحضور، وبقوة أشد، مما يتطلب باستمرار المزيد من شرب الكحول كي يسكته ويتذوق من جديد وهم التخلص منه. ولكن الفخ يطبق عليه، متمثلاً في الإدمان على الكحول والتجنب في آن واحد. وكونه قد نجح في الهروب قصير المدى من ماضيه وتجنب الذكريات المؤلمة، سوف يحدث تأثيراً عكسياً: إذ ستصيب الصدمة عندها كائناً أكثر ضعفاً. ويمكن أن تظهر على المدمن في بعض الحالات «متلازمة كورساكوف» على اسم الطبيب العقلي الروسي الذي أثبت هذه الحالة في نهاية القرن العشرين من خلال دراسة آثار الإفراط في شرب الفودكا. تتميز هذه المتلازمة بنوع من العته [الجنون]،

واضطرابات التعرف، وخصوصاً اضطراب خطير في الذاكرة، وعلى وجه الخصوص تذكّر الأحداث الراهنة، أي تلك القدرة على تكوين ذكريات جديدة، وإلى تذكّر الخبرة المعاشة الراهنة. تتميز حالة العجز عن تذكّر الحاضر عن الذاكرة الاسترجاعية التي تتيح الحفاظ على الذكريات القديمة، والتي غالباً ما لا تتأثر بالإفراط في شرب الكحول. ويسبب الإدمان الكحولي المزمن فقراً في فيتامين B1 وتدهوراً دماغياً في قرن آمون [الهيبوكامب] والتي تقوم، كما سبق أن رأينا، في مرور ذكريات الذاكرة قصيرة المدى إلى الذاكرة طويلة المدى. وهي معاينة مفارقة ومأساوية أن «ينجح» المدمن في النسيان جيداً. . . وإنما فقط نسيان ما عاشه للتو، وليس الذكريات القديمة لجروحه الوجودية، وصدماته ووصماته. والأسوأ من ذلك أنه يترك لشياطينه كل الحرية كي تعاوده وتدفعه إلى الرغبة في الغرق في الكحول من جديد. وتصبح الوضعية أكثر قابلية لعدم الاحتمال لأن تكوين ذكريات ذاتية جديدة، كما سوف يتم بيانه، يشكل إحدى وسائل حسن العيش مع ماضيه المؤلم. . . فمن خلال رغبته في تناسي ماضيه في الإدمان على الفودكا أو الخمرة، أو الويسكي أو سواها، فإن المدمن يحكم على ذاته عملياً على عيشها من جديد.

العمل من أجل النسيان

يشبه منهك نفسه في العمل، ويسمى في الإنجليزية المدمن على العمل (Workaholic)، المدمن على الكحول: فهو يبحث عن

الملاذ في العمل، هارباً من بعض الذكريات أو الأفكار من خلال الاستغراق في نشاط لا حدود له. فهو منهمك، ومنشغل، ومستنزَف كلياً في قائمة طويلة من المهام الحاضرة والمستقبلية. وهنا أيضاً تنجح الطريقة في مرحلة أولى: إذ يكون مأخوذاً كلياً في نشاط مهني، مما يكسبه اعترافاً بجهوده يعمل بمثابة بلسم، فمدمن العمل يتمكن من الهروب من ماضٍ اختار أن يتجاهله. وكما يبينه أ. ج. شين، الأستاذ في كلية طب جامعة لييج [بلجيكا] في دراسته حول مختلف أشكال الإدمان على العمل، فإن ما يميز مدمن العمل عن العامل المتفاني ولكنه معافى، يعود إلى عجزه عن التوقف في حين أن أهدافه المهنية قد تم تحقيقها. فالمدمن على العمل لا يعرف كيف يستفيد من وقت فراغه ولا من عطله الموسمية، فهو يضحي بنوعية حياته على مذبح إله الكد والنصب. إننا بصدد فرط استثمار مهني معتبر بمثابة استراتيجية واعية إلى حد ما للهروب من ماضٍ مؤلم، أو حياة عائلية أو عاطفية مولدة للضغوط أو غير مُرْضِيَة. فإمكانية عطل نهاية الأسبوع أو الفرص الموسمية تثير القلق لديه، وفكرة أن يكون لديه وقت فراغ يتركه مرتبكاً، فيفضل أن يستنزف نفسه في العمل. هناك العديد من الطرق التي تقود إلى الإنهاك، إلا أننا هنا، وكما يذهب إليه البروفسور أ. ج. شين، نحن بصدد أكثرها إشكالية، إذ فرص الشفاء في هذه الحالة هي من أكثرها ضعفاً. ولكي يفلت من هذا الهروب إلى الأمام، يتعين على الشخص الغارق في عمله أن يعي اضطرابه السلوكي ويقبل أن تتم متابعته من قبل اختصاصي. ولكن نفاذ البصيرة هذا غالباً ما يعوزه،

عندما يكون السلوك القهري مدفوعاً بالرغبة في تجاهل ذكريات مؤلمة أو صعوبات علائقية أو أسرية. وعندها تكون الطريق نحو الشفاء أكثر طولاً من حالة مدمني العمل الذين يستنزفون في شغلهم بسبب نزعة كمالية، أو وسواس الإنجاز، أو لأنهم يتركون أنفسهم تلتهمهم آليات منظَّمة سامّة.

هذا النوع الآخر من مدمني العمل يدفعون بدورهم ثمن أثر الارتداد: إذ لا تلبث أن تبرز «أفكار دخيلة» على حين غرة، وفي اللحظة الأسوأ، خلال الانخراط في العمل، أو لحظة الخلود إلى النوم، أو حين يتراخون أخيراً بمناسبة عطلة من عدة أيام. إذ يكتشفون عندها مرارة ماذا يعني «مرهق وغارق في العمل»؛ وهذه المرة، ليس من خلال الفيض المستمر للمهام الملحة الشكلية التي يمكنها الانتظار، ولكن من خلال الفيض الذي يغرقهم نفسياً، بسبب هجمة عودة المكبوت. فالانطباع الذي لديهم عن السيطرة على واقعهم لم يكن سوى نوع من الوهم، إذ تأتي بعض أشكال الإجهاد النفسي من هذا المصدر. وغالباً ما ينهار مدمن العمل ليس لأنه يجهد نفسه بكثرة العمل، بل لأن هذا العمل يتيح له الهروب من تاريخه الشخصي، وأن يبقى على مسافة من مشكلات سوف يتعين عليه مجابهتها عاجلاً أم آجلاً.

ولأننا نستطيع أن نتبنى استراتيجيات إلهاء وصرف الانتباه فعالة على المدى القصير، من قبيل فرط النشاط، استهلاك الكحول أو المخدرات، الجري اللاهث وراء الملذات. . . ، فإن التجنب

يبقينا في وهم أنه بإمكاننا ببساطة قلب الصفحة، والتوقف عن التفكير في الأمر مرة واحدة وإلى الأبد. ولكن في واقع الأمر، كلما بالغنا في البحث عن محو عنصر من ذاكرتنا، فإننا لا نفعل سوى المزيد من التركيز على ذلك وتعزيزه. وعندها سيصبح ذلك الدبَّ الأبيضَ الذي شكّل الاختبار الذي أجراه دانيال ويغنر، وسواء أكانت العملية واعية أم لاواعية.

فضائل الفشل

في حالة الفشل بالتحديد، يجعل التجنب من المستحيل استخلاص دروس مفيدة. ففي إحدى كتبي السابقة بعنوان **فضائل الفشل** بَيَّنْتُ بجلاء الشروط المختلفة الواجب توفرها كي يمكن تحويل الفشل إلى تقدم، وفي صدارتها يوجد كل من: غياب إنكار الفشل وكذلك تحليله المتأني، وهما أسلوبان من تقبُّل الفشل، وطريقتان لعدم الهروب منه على وجه التحديد، أي طريقتان لتجنب التجنب ذاته. وإذا استبعدنا ذكرى هذا الفشل، بدون القيام بتحليله، فإننا نختبىء وراء سيناريوهات خيالية حيث يبدو أن لا شيء من ذلك قد حدث (وهو ما نسميه «أفكاراً مناقضة للواقع» من قبيل القول بأنني ما كنت لأتعرض لهذا الفشل لو أنني. . .)، فإننا نخلق بالتالي وضعية إنكار تجعل من المستحيل أي تعلم من الفشل. والأكثر إشكالية أيضاً، أن نعرض أنفسنا لخطر تكرار نفس الخطأ وبالتالي أن نعيش الفشل نفسه من جديد. ومن خلال تكرار نفس التجربة بمثابة لعنة فإنها تصبح أكثر فأكثر إيلاماً وخطراً.

«فالخطأ إنساني وأما الاستمرار فيه فهو شيطاني»، كما يقول سينيكا، من خلال اقتباس مَثَلٍ شعبي حافل بالحكمة، وسبق لشيشرون أن ذكره وحتى أن القديس أوغسطين سبق أن تبناه. فمهما كان مؤلماً، فالفشل يشكل جزءاً لا يتجزأ من مسار الحياة، وإنما تكرار الفشل هو المشكلة أكثر منه ذاته. فنحن لا نعرف كل شيء بالغريزة: فأخطاؤنا مليئة إذاً بالعِبَر ويجب أن تقودنا نحو نجاحاتنا المستقبلية. فلماذا نكررها إذاً بدون توقف؟ من المحتمل أن ذلك يعود إلى أننا فضلنا أن نبقيها في الماضي، وأن ندير لها ظهورنا تجنباً لعيش تلك اللحظات المزعجة. وهكذا حين نكرّس طاقتنا لنسيانها بدلاً من تحليلها واستخلاص الدروس منها، فإننا نترك الباب مفتوحاً لعودة الأخطاء ذاتها.

مثال علاقتنا بأخطائنا وخيباتنا بالغ الدلالة ويشكل دعوة إلى إعادة التفكير في علاقتنا مع ماضينا وفي الذكريات السيئة التي يحفل بها. إننا غالباً ما نشكو من استمرار تلك الذكريات، ولكن إن هي ظلت محفورة فينا إلى هذا الحد، أوليس ذلك كي يتيح لنا تجنب تكرارها وكأنها منبهات تحذرنا؟ فإذا نحن أردنا أن نحتاط من عودة الأسوأ، يتعين علينا البدء بتذكره.

أهناك حبة للنسيان؟

يمكن أن تفسر صعوبات وأخطار الرغبة في الهروب من ماضينا أيضاً وعلى وجه الخصوص من خلال واقعة أثبتها علماء الأعصاب مؤخراً إذ يقولون: إنه ليس بإمكاننا على كل حال محو

ذكرياتنا. إذ كما سبق أن رأينا، فالذكرى ليست معطى منقوشاً على موضع محدد من دماغنا، فهناك ذكرى منذ اللحظة التي تبرز فيها واقعة إلى وعينا وبمختلف الوسائل، ومن خلال تقاطعات عدة خيوط من قبيل الانفعال الذي شعرنا به في تلك اللحظة، رائحة أو لون من نوع ما يذكراننا بها، أو فكرة صادرة عن ذلك الحدث وأصبحت مألوفة لنا، أو مكان ما. . .، كما يمكن لهذه الذكرى أن تترابط أيضاً مع ذكريات أخرى تجعلها تنبعث من جديد. وباعتبار أننا لن نتمكن أبداً من المعرفة المسبقة لما يمكن أن يكون له، من تجربتنا المعاشة، القدرة على إعادة تذكرها، فمن المستحيل بالتالي أن نقوم «بمحوها». وبالتأكيد، هناك أثر عصبي لهذه الذكرى، شبيه بمسار من الارتباطات العصبية التي تسمى انطباعات عصبية، إلا أننا لا نعرف أن نحدد موضعها في هذا المجموع من 85 مليار عصبون التي تشكل دماغنا. وحتى لو توصلنا يوماً ما إلى ذلك، مما يبدو قليل الاحتمال، فإننا لن نعرف كيف نمحوها إرادياً.

تقع استحالة محو بعض الذكريات المحددة هذه في صميم قصة فكاهية مرحة كتبها هيرفيه لوتيلييه بعنوان **ويليبالد والتر أو الذاكرة في موقعها**، والتي ألهمت ميشيل غوندري مسلمة فيلمه بعنوان **إشعاع الشمس الأبدي للعقل الناصع**.

إذ توصل ويليبالد والتر، الطبيب الاختصاصي في فقدان الذاكرة، إلى تحديد موضع الذاكرة في الدماغ. وحيث إنه رسم خريطة جد دقيقة للدماغ، فلقد طور «حبة للنسيان» يفترض بها أن

تثريه: إذ إن «كل إنسان لديه شيء يود نسيانه: من قبيل خطأ ما سابق ما زلنا نخجل منه، أو وضعية ما وجدنا أنفسنا فيها موضع سخرية، أو بكل بساطة الملامات الأزلية (من قِبل الأم، أو الزوجة، أو الاثنتين معاً). ففقدان الذاكرة الانتقائي يتيح محو الماضي أخيراً، وبالتالي تغيير الحاضر». وهكذا فإن منموزين التي يتقاسم وإياها ويليبالد والتر عشقاً غرامياً منذ ثلاثة أسابيع، تقرر أن تتركه. فيعيش أياماً حافلة بالغم الرهيب ومشاعر النبذ، ومعتقداً أنه يتعرف على منموزين في كل امرأة يصادفها في الشارع، فيرى «في إحداهن ثنية طرف شفتيها، ويرى في الأخرى لون شعرها الأحمر، بينما يرى في الثالثة نفس المشية الشبقية التي كانت تميز حُبَّه الجميل...». ولكن الدكتور والتر سرعان ما قرر أن معاناته قد طال مداها: فما كان منه إلا أن جرب حبة النسيان على ذاته. وحين كان بصدد صنع هذه الحبة انتابه قلق شديد. فكيف يتأكد من أن مقادير تكوين هذه الحبة هي الصحيحة؟ وهو بالتأكيد حدد أثر منموزين في قشرته الدماغية ولكن ألا توجد ذكرى عشيقته في مكان آخر كذلك، في الأطباق التي كانت تحبها على سبيل المثال، أو في الأفلام التي شاهداها سوياً؟ وإذا محا ذكرى وجهها أو وركيها، أفلا يكون قد محا أيضاً ما علمته إياه قصة الغرام هذه، وما عرفه عن نفسه بالمناسبة عينها؟ وخصوصاً كيف يمكنه أن يتأكد أنه لا يمحو سوى ذكرى حبيبته؟ «فالمقادير الدقيقة جداً التي وضعها في الحبة قابلة لأن تمحو من مجال التذكر الأسابيع الثلاثة الأخيرة بدون أن تذهب أبعد من ذلك في الزمن.

وتمثل ذعر الدكتور في أن يكون قد أساء تقدير المقادير في حبة النسيان هذه وبالتالي محا من ذاكرته العديد من الشهور، أو حتى ذكريات العديد من السنوات المتموضعة في نفس المكان الفيزيقي من دماغه. لأنه إذا أراد ويليبارد أن يمحو من ذاكرته الآنسة منموزين، فهو أراد بالتأكيد أن يمحوها وحدها، وليس بالطبع ما كان عليه هو، ولا وجوه أصدقائه، أو أسماء أقاربه، وبالتأكيد لن يريد أن ينسى رقم بطاقة الائتمان خاصته، والرقم السري الذي يفتح بوابة منزله. . .».

من خلال شاعريته العبثية، يحيلنا هيرفيه لوتيلييه إلى جان-لويس مونستيس الذي يكتب قائلاً: «لا تشتغل الذاكرة بمثابة مكتبة عملاقة يكفي فيها أن نلقي بأحد الكتب جانباً كي نرتاح. فذكرياتنا مجمعة في فئات، وهي تتقاطع فيما بينها، وغالباً ما تتبادل التأثير. فدماغنا لا يترك بسهولة يخرج ما سبق له أن تركه يدخله». وهكذا، فحتى لو تمكن العلم يوماً ما من تحديد موضع للذكريات، وتصنيف وموضعة كل ذكرى، واكتشف وسيلة لمحو الذكريات «غير المرغوبة»، فإن ذلك سوف يؤثر بالضرورة على مجموعة كاملة من الذكريات الهامشية المرتبطة بتلك غير المرغوبة. وفوق ذلك، سوف تبقى دائماً الطريقة التي أثرت فيها علينا هذه الذكريات الزائلة، والطريقة التي بُنِينَا فيها من خلالها. وحيث إنه لا يمكن مجرد تصور إمكانية إلغاء ذكرى معينة - ولو نظرياً ومن خلال تصور إمكانية اختيار «الشبكة العصبية الصحيحة» التي يتعين كبحها - وحتى لو تمكنا من ذلك، فإننا لن نستطيع تغيير واقعة كوننا قد

تغيرنا من خلال ما مررنا به من تجارب وذكريات. إننا لا نستطيع الهروب من ماضينا لسبب بسيط يتمثل في أنه هنا، في كياننا، وأنه قد أثر علينا. حتى عندما نعتقد أننا تحررنا منه.

العودة إلى رانس - هل هي تحرر من الماضي؟

يشرح ديدييه أريبون في كتابه **العودة إلى رانس** أنه بنى ذاته من خلال التحرر من ماضيه، والهروب من طفولته، ومن عنف أبيه وكل المحيط العمالي الذي جعل منه منبوذاً بسبب حبه للكتب ولمثليته الجنسية وحوّله إلى نوع من العدو الداخلي. ويصف في الصفحات الأولى من روايته رد فعله على خبر وفاة والده: «قالت لي أمي: «اتصلت بي العيادة للتو. والدك مات منذ ساعة». أنا لم أكن أحبه. ولم أحبه أبداً. كنت أعرف أن أيامه وساعاته كانت معدودة ولم أحاول حتى أن أراه لمرة أخيرة. [. . .] فالهوة التي حُفِرَت بيننا عندما كنت ما أزال مراهقاً تعمقت مع مرور السنين بحيث أصبحنا بمثابة غريبَين عن بعضنا. كنت على الأقل أعتقد ذلك، أو طالما تمنيت أن أعتقد ذلك، إذ اعتقدت أن بإمكان المرء أن يعيش بعيداً عن عائلته وأن يخترع كياناً لذاته من خلال إدارة الظهر لماضيه ولأولئك الذين ملأوا هذا الماضي».

«أن يخترع المرء كيانه من خلال إدارة الظهر لماضيه» يمكن أن يشكل شعار إيديولوجية الحداثة هذه: أي التقدم إلى الأمام بدون الالتفات إلى الوراء. إلا أن كل كتاب ديدييه أريبون، وحتى عنوانه ذاته - **العودة إلى رانس** - لا يعدو كونه رواية هذه

الاستحالة. ومع أنه أصبح «منشقاً عن طبقته الاجتماعية»، ومفكراً معروفاً في العالم أجمع، وكاتب عمل واسع الانتشار تم تكييفه للمسرح على كل خشبات أوروبا، فإن ديدييه أريبون يبقى مدموغاً بهذا الماضي الذي لم يتوقف عن تلوين حاضره والتطفل عليه. وذلك بالتأكيد عبر تلك الذكريات التي تفرض نفسها عليه، وأكثر من ذلك عبر ذلك الشعور في أنه ليس في موضعه أبداً في عالم البرجوازية الثقافية التي أصبحت عالمه بدون أن ينتمي إليها حقاً، وكذلك في استمرار «هذا الخجل الاجتماعي» الذي لم يتمكن من التخلص منه، وكذلك، ويا للمفارقة، في ذلك الشكل من الوفاء لطبقته وللعالم الذي أتى منه: «كنت أشعر دوماً بشيء من الحرج، ومن الحقد حتى، عندما كنت أسمع من حولي الكلام بازدراء أو بوقاحة عن الناس الشعبيين، وعن نمط حياتهم، وطريقة عيشهم. فأنا قد أتيت في نهاية المطاف من هذه البيئة. كما كنت أشعر بالحقد المباشر إزاء العدائية التي يعبّر بها المحظيون وذوو المكانة على الدوام تجاه الحركات الاجتماعية، والإضرابات العمالية».

وحتى لو أنه عبّر بقسوة شديدة تجاه طبقته الاجتماعية، وتحديداً حول «طريقة عيش» أبيه أو إخوته، فإنه يصبح من جديد الابن والأخ لهؤلاء حين يتم احتقار ذويه من قبل البرجوازية. لقد بنى نفسه من خلال التنكر لشطور كاملة من طفولته - من قبيل جلسات العشاء حيث لم يكن يُسمَح للأطفال والإخوة بالكلام، وأنه يتوجب عليهم أن يكونوا سعداء بمجرد أن يتوفر لهم ما يأكلونه، وأبيه الذي ينهال بالسباب أمام شاشة التلفزيون. . . - ولكن يكفي أن يسمع

هذه الكلمات المزدرية لتعود إليه هذه المشاهد ولكن بوجه جديد: إذ تخبره من أين أتى ويرفض أن ينسى كل ذلك.

هذا هو الموضوع الحقيقي لكتاب **العودة إلى رانس** وذلك ما يعطيه قوَّتَه: إذ يروي ديدييه أريبون الطريقة التي يعود فيها الماضي حيث نعتقد أننا قد تحررنا منه. إذ يكتب قائلاً: «إن ما تم انتزاعنا منه، أو ما أردنا أن ننتزع أنفسنا منه، يستمر في أن يكون جزءاً كاملاً مما نحن عليه [. . .]. فآثار ما كنا عليه في طفولتنا، وطريقة تنشئتنا الاجتماعية، سوف تستمران حتى ولو تغيرت الظروف التي نعيش فيها في سن الرشد، حتى ولو رغبنا في الابتعاد عن هذا الماضي، وبالتالي، فالعودة إلى الوسط الذي جئنا منه - والذي خرجنا منه بكل معنى الكلمة - هي دوماً عودة إلى الذات، ولمّ شمل ذاتٍ تم الحفاظ عليها بقدر ما تم التنكر لها». ومهما نجحنا بالخروج عن وسطنا الاجتماعي، وحتى ولو أنكرناه جزئياً، فذلك لا يعني أبداً أن ماضينا أصبح خلفنا. وروايات حياة المنشقين عن طبقتهم الاجتماعية حاضرة كي تبين لنا الحقيقة.

وهذا ما نفهمه أيضاً عند قراءة العمل بعنوان **كما نوجد** وهو نص أدبي وتفكير عميق حيث تروي عالمة الاجتماع كوثر حرشي رحلتها من طبقة اجتماعية إلى أخرى. إذ بالنسبة إلى بنت العائلة المغربية المهاجرة هذه، فإن قضايا الهوية والذاكرة هي مكانية قبل أن تكون زمانية. فوالداها يعيشان من أعمال التنظيف، ويتكلمان فرنسية رديئة، ومع ذلك وبفضل حبهما لها وبفضل تفاني أمها ولقاءات موفقة مع المعلمين، ستنجح كوثر حرشي في الارتفاع فوق

بيئتها، وترتقي في المجتمع: إذ ستصبح كاتبة وعالمة اجتماع. ولكي تنجح تعين عليها أن تنتزع نفسها من بيئة ولادتها، ومن الحي الذي كبرت فيه في ضواحي ستراسبورغ. وتمكنت من الالتحاق بثانوية نخبوية، وتعين عليها أن تأخذ حافلة النقل المشترك للذهاب إلى دروسها، بينما كل شباب الحي الآخرين يعيشون قريباً من المعهد الذي يدرسون فيه. وهكذا أخذت تكتشف وجوهاً أخرى من المدينة، وأوساطاً أخرى تحديداً. وفيما بعد، كان عليها أن تغادر ستراسبورغ نفسها كي تلتحق بالصفوف التمهيدية للجامعة في باريس، بينما سيبقى الكثير من الأولاد في مدينتهم، وحيّهم في الضواحي.

فيزيقياً، بدأت كوثر حرشي في ترك حيها في كل صباح، ثم في ترك ستراسبورغ ذاتها للذهاب إلى باريس. مكانياً، التنقلات واضحة: فالوصول إلى النقطة ب يعني أننا لم نعد في النقطة أ. ولكن الأمر مختلف زمانياً: إذ ليس بإمكاننا ترك النقطة أ نهائياً كي نصل إلى النقطة ب. فالنقطة أ بالأمس تظل حاضرة اليوم في النقطة ب. فالسفر في الزمن ليس كالسفر في المكان. فالزمن يستمر، والماضي لا يمضي، ولا هو يُمحى في الحاضر. وهو ما يبينه لنا عمل كوثر حرشي بعنوان **كما نوجد**: صحيح أن كوثر حرشي انتقلت من حيها إلى الأحياء الراقية، وتركت الضاحية حيث نشأت، وسافرت من مدينة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، إلا أن المسافة لا تتلازم مع الابتعاد الزماني: أي في عملها كعالمة اجتماع، وفي معاركها السياسية وانخراطها في الحركة النسوية،

هي تبقى بنت تلك العائلة المهاجرة. إذ لم تتلاشَ ذكريات طفولتها في ضواحي ستراسبورغ في الماضي، ولكنها تعاود البروز باستمرار لتغذية ما هي عليه اليوم. إنها تتذكر حالة الضيق التي عاشتها أول مرة دعيت فيها في الليسيه إلى عيد ميلاد في بيت برجوازي كبير، إذ كانت كل الفتيات في حالة انطلاق وحرية حركة وقفزن في حوض السباحة، بينما بقيت هي محرجة وفي كامل ملابسها على حافة الحوض تتكلم مع سيدة الدار التي استقبلتها. وهي تتذكر الملاحظة العنصرية التي لم تكن مؤذية على كل حال من قبل إحدى الأستاذات، كما تتذكر اكتشافها لعلم الاجتماع في صف نهاية الثانوية، والذي كان بالنسبة إليها بمثابة كشف كبير. وكلما تذكرت أكثر، أخذ عملها كامل معناه، وتماسكه، وأكد ضرورته، فأصولها، والأماكن التي عاشت فيها تستمر حاضرة في عالمها وستبقى حية فيها إلى الأبد.

يتوصل زلاتان إبراهيموفيتش إلى نفس النتيجة في سيرة حياته المؤثرة، حيث يروي كيف أن كرة القدم أنقذته من الجنوح والسجن، ومسيرة حياته بدءاً من حي روزنغارد حيث ترعرع، وهو أحد أحياء السويد الأكثر فقراً، إلى أكبر نوادي كرة القدم عالمياً. ويختم بهذه الكلمات: «يمكنك إخراج شخص ما من حي روزنغارد، ولكن لن يمكنك أبداً إخراج حي روزنغارد من هذا الشخص».

من غير الممكن إذاً أن يتحرر المرء من ماضيه. فقد يمكن

اتخاذ مسافة من ماضينا العائلي، ومن أصولنا الاجتماعية: إلا أنها سوف تستمر رغم ذلك في التأثير علينا، ومن المحتمل أنها سوف تستمر في ذلك بقدر ما نتظاهر أننا نستبعدها. وينطبق الأمر ذاته على الماضي الواعي، وكذلك على الماضي الأكثر خفاءً المنقوش في جسدنا، والذي يبدو في الظاهر أكثر بعداً أو لاواعياً، إلا أنه يمكن أن يعود من جديد في الحاضر وبشكل عاصف.

تاريخ من *العنف* - عندما ينبثق الماضي من جديد

يبين ديفيد كروننبرغ في الفيلم بعنوان **تاريخ من العنف** كيف يمكن للماضي أن يقفز في الحاضر. نكتشف في هذا الفيلم مواطناً مسالماً في مدينة صغيرة من ولاية إنديانا، اسمه توم ستول يمثل دوره فيغو مورتنسن. إنه أب أسرة، وزوج طيب، ويدير منذ سنوات عديدة مطعماً متواضعاً ولكنه يشتهر بطعامه وجوّه المرح. وفي إحدى الأمسيات يقتحم المطعم مجرمان في لحظة الإقفال. مخموران، ومفرطا العنف، لم يكونا يريدان الحصول على غلة الصندوق فقط، وإنما كانا يستعدان لارتكاب مجزرة. إلا أن الأمر باغتهما. ففي أقل من ثانية أجهز توم ستول عليهما. إنه بطل بالطبع، فلقد أنقذ العاملين معه وأقام نوعاً من العدالة السريعة.

تصدّر توم ستول وسائط الإعلام، وافتخار كل من زوجته وابنه والقرية. إلّا أن الأسئلة برزت بعد ذلك. أين تعلم أن يقاتل بهذه البراعة، وعلى استخدام الأسلحة بهذه المهارة المحترفة؟ كيف يمكن لرجل هادئ ومسالم أن يتحول إلى قاتل قادر على

الإجهاز على الحياة بهذه البرودة وبمهارة نادرة المثال؟ يحاول توم ستول التقليل من أهمية الأمر: فلقد حالفه الحظ، وردود الفعل السريعة والفاعلة. . . إلا أن الشكوك بدأت تترسخ في هذه القرية الصغيرة. وفي هذا الوقت وصلت سيارة سوداء كبيرة نزل منها رجل مافيا مشوه وأعور، ولعب دوره في الفيلم الممثل إد هاريس. دخل رجل المافيا المطعم وخاطب توم منادياً إياه باسم جوي. نكتشف عندها ماضي توم هذا. فلقد كان صاحب المطعم المسالم هذا منذ وقت طويل مضى رئيس عصابة مشهوراً بعنفه المفرط. والاسم الذي اتخذه بغية تغيير حياته كان اسم أحد ضحاياه. وهكذا فرب العائلة الحنون والزوج العطوف ورئيس المطعم المتفاني كان إذاً مجرماً لا يرحم: إنه جوي كوزاك، أخ ريتشي كوزاك الذي لم يكن سوى أحد رؤساء الجريمة المنظمة. وعلى الرغم من السنوات المديدة من الهروب من الماضي، وتغيير هويته إلى حياة جديدة بعيداً عن المدينة التي عاث فيها عنفاً وفساداً، وفي حين أنه كرس حياته كلياً خلال كل هذا الوقت لبناء وجود مطابق تماماً «لإعادة اختراع الذات» هذا والذي يحظى ببالغ تقدير الحداثيين، فلقد كان يكفي، رغم كل ذلك، مجرد اقتحام المطعم من قِبل هذين القاتلين، كي يعود كل تاريخ عنفه في الآن واللحظة، وكأنه حدث في صبيحة هذا اليوم ذاته الذي قضى فيه على هذين القاتلين.

يبرهن فيلم **تاريخ من العنف** وبشكل مذهل على ذلك في مجرد مشهد حاسم: فالماضي قابع هنا، متربص، وجاهز

للانقضاض علينا. حتى عندما نهرب منه، ونظن أننا دفناه إلى الأبد.

كما أن قدماء العشاق يَخْبرُون أحياناً نفس الظاهرة. فمثلاً قد يلتقي من جديد بعد سنوات عديدة كائنان أحبا بعضهما. فلقد تقطعت بينهما الأسباب، وقصة الحب القديمة هذه قد طواها النسيان. تجمعهما المصادفة، وكل شيء يعاود من جديد، وكأنهما انفصلا البارحة. فرائحة الآخر، والمعرفة السابقة بجسده، وبطريقته في المداعبة والشعور باللذة، ونعومة بشرته المغرية، وخصوصية حركاته. . . وكل تلك الشبقية الفائتة تعود إليهما من جديد وكأنهما لم يعيشا شيئاً بين اللقاءين، وكأنهما كانا هما ذاتهما قبل الفراق. كل شيء حاضر من جديد، يتصف بالحيوية والزخم كما في اليوم الأول. لم يتغير شيء؛ وبقي الأساسي على حاله، جاهزاً للانبثاق من جديد. فالقلب والجسد لا ينسيان.

وبالطبع، فمن الممكن دوماً الهروب من الأمكنة والأشخاص المرتبطين بماضٍ مؤلم، وعدم العودة إلى ذلك المطعم الذي كان مسرح نهاية قصة حبنا الأول، وأن لا نطلب طبق الطعام ذاته الذي كنا نحب تقاسمه معاً، كما من الممكن كذلك قطع الصلات مع من كانوا أصدقاءنا المشتركين. مئات الخطط يمكن التفكير فيها لمن يبحث عن الهروب من ماضيه، ومن يود تجنب بعض الذكريات. إلا أن هذه الجهود لا طائل من ورائها، إذ يمكن لذكرياتنا أن تستيقظ بالعديد من التفاصيل الصغيرة التي لا يمكننا تجنبها جميعها من قبيل: نغم معين على الراديو، رائحة معينة، تعبير ما، أو اسم

قرية صيفية. . . وبمعزل عن حالات وعينا، تبقى وقائع ماضينا حاضرة في ذاكرتنا ولا يمكننا أبداً التوقع المسبق لكل المناسبات التي توقظ الذكريات النائمة.

ولأن التجنب خطر، والنسيان مستحيل، يتعين علينا إذاً تعلم التعايش مع ماضينا، وعلى «التصالح» معه وليس على الهروب منه ومقاومته. فصدماتنا، وذكرياتنا المؤلمة على وجه العموم تسبب لنا مقداراً أكبر من الألم عندما نحاول نبذها مما تسببه عندما نفتح الباب لاستقبالها.

إننا ننفق مقداراً هائلاً من الطاقة في محاولة استبعاد ما نود نسيانه من تاريخنا: إذ إننا نخترع مهاماً ملحة، وقوائم لا تنتهي مما يجب القيام به مما يطغى على حياتنا ويحدد كيفية عيش أيامنا، كما أننا نتوه في أنواع من الإلهاء الفارغ، أو نغرق أحياناً في أنواع مدمرة من الإدمان، وكل ذلك بدون أن نفهم أن منطق التجنب هذا ليس بدون طائل فقط، وإنما لا جدوى منه. فهو يستنزفنا نفسياً ويقودنا إلى الفشل. أردنا الهروب من الماضي كي نعيش مستقبلنا وها هو هذا الماضي يعود ويفسد علينا وجودنا بقوة موازية للطاقة المبذولة في استبعاده. إننا نشبه ذلك العاشق المصدود الذي يشقى في سعيه لإطفاء جذوة الهوى الذي يتآكله - «توقف عن التفكير فيها، تناساها!» - وإذا به ينفخ على جمر حبه الخائب. فمن خلال الادعاء بأننا لا نبالي بماضينا فإننا لا نتوقف عن إعادة إحيائه - تذكّرنا هذه الصميمة بما أسماه فرويد «التنكر»: فالقول «أنا غير

مهووس بماضيَّ» يبين أنني مهووس فعلاً بهذا الماضي، تماماً كالقول «أنا لست بكاذب» ما هو سوى اعتراف بالخداع الذي يجعلني مذنباً. فمن يقول الحقيقة لن يدّعي أبداً أنه ليس بكاذب جهاراً نهاراً. فالكائن المتحرر من ماضيه فعلاً لن يجاهر عالياً وبقوة أن ماضيه لم يعد يهمه. تماماً كمن يعاني الأرق والذي كي ينام يركز كل انتباهه على محاولة الحصول على النوم، وهو بهذا سوف يضمن بأنه لن يتمكن من النوم، نحن بهذا نقيس حدود مذهب الإرادة: فهنا كما في سواه من الحالات، لا يكفي أن نريد كي نستطيع تحقيق ما نريده. إذ كلما أردنا أن ننسى، نصبح أقل قدرة على النسيان. وعلى غرار تلك الزنابير التي نحاول طردها، والتي تستمر بالطيران حولنا بلا كلل، فإن ذكرياتنا السيئة لن تدعنا نكنسها بعيداً بحركة من يدنا.

نفهم بشكل أفضل أخيراً لماذا تؤثر علينا أغنية جاك بريل إلى هذا الحد: **يجب أن ننسى، كل شيء يمكن أن يُنْسَى...** إنه يحاول في النهاية أن يقنعها، وكذلك أن يقنعنا، وأن يقنع ذاته على وجه الخصوص. إلا أنه يعرف جيداً أن ذلك غير ممكن. إذ لا يمكن نسيان كل شيء. ومن هنا ربما هذه الشاعرية المميزة. فهو يغني النسيان المستحيل، كما سوف يغني النجم الذي لا يدرك.



الفصل السادس

الاستناد إلى ماضينا

لا يمكننا الهروب من ماضينا، فيتعين علينا إذاً أن نتعايش معه. ويدعونا برغسون فيلسوف الذاكرة أن نعيش مع «كل ماضينا» بكامل مداه. قد يبدو هذا الاقتراح مبالغاً فيه، وحتى جذرياً. أن لا نهرب من ماضينا، فليكن، ولكن أن نستعيده بكامله إلى الحاضر؟ يبدو ذلك مثاراً للتساؤل. ومما لا شك فيه أن عدداً منا غير مستعدين للإقدام على هذه الخطوة، حتى ولو كنا على دراية كيف نقوم بذلك. يقودنا برغسون، مع ذلك، على طريق مليء بالشغف سوف نقوم باكتشافه معاً.

تتمثل الوصية البرغسونية عملياً في دعوة إلى أن نكون نحن أنفسنا بكامل مداها، على الأقل في اللحظات الحاسمة من حياتنا. ذلك سيكون هو الشرط الضروري حين اتخاذ قرار سوف يعطي اتجاهاً جديداً لوجودنا، وكي نعرف ماذا نرغب، وماذا نريد حقاً. ووسيلة الوصول لتحقيق ذلك. ويشرح برغسون الأمر قائلاً إن الرغبة الأصيلة، المتوائمة تماماً مع أنفسنا تشمل كل تاريخنا

وتقودنا إلى هدف يتخذ معنى عميقاً بالنسبة إلينا. كذلك فإن إرادتنا لن تكون على هذا القدر من القوة، والتصميم، إلا عندما نريد شيئاً يتلاءم معنا حقاً، والذي يجد صداه فينا، ومع تاريخنا وهويتنا. وأفعالنا لا تأخذ كل معناها إلا حين تستقي من هذه الرغبة الحقيقية، وهذه الإرادة العميقة، وبالتالي تندرجان في مسار تنغرس جذوره في ماضينا. هذا ما يقوله برغسون حين يكتب في **التطور الخلاق**: «مما لا شك فيه أننا لا نفكر إلا مع جزء صغير من ماضينا؛ ولكن نحن لا نرغب، أو نريد، أو نفعل، إلا مع ماضينا بأكمله، بما فيه ثنايا روحنا الأصيلة».

خلال محاضرة قدمها في مدريد، يؤالف الفيلسوف بين عناصر فكرة إعادة استيعاب كل ماضينا كي ننطلق نحو المستقبل تحت مفهوم «التلخيص الجامع والخلاق». إنه «تلخيص جامع» لأننا نكون بصدد الإحاطة المتجددة بكل ماضينا، والاستناد إلى مجمل موروثنا، وأن نقرر ونتصرف ونحن نحمل معنا كل درب حياتنا؛ وهو «خلاق» لأنه عبر هذا الخيار، ومن خلال هذا العمل، فإننا ندفع بتوجه جديد لوجودنا؛ إننا نُخْلَق خلقاً جديداً.

تحدثتُ مرة مطولاً مع مدير سلسلة مخابز شدني بقوة مساره المهني غير المألوف، والذي يوضح تماماً المفهوم البرغسوني. فلقد كوّن هذا الرجل نفسه من خلال قطيعة مع إطاره العائلي، وخصوصاً مع أبيه، وهو حرفي وتاجر، صاحب مخبز من الأكثر شهرة في هذه المدينة من بورغونية الفرنسية. ففي سن العشرين، تملكته الرغبة بتغيير المكان والذهاب بعيداً عن منطقته وعن أسرته

وعن مخبز والده. فقد تكوّن لديه الشعور عندها أنه إذا بقي في بلدته فلن يصير أبداً سوى «ابن فلان» ويسير على خطى والده. ولقد وضع لنفسه خيارين: إما أن يتبع الطريق المرسوم الذي سار عليه أبوه، أو يغادر ويتخذ مساراً آخر، بغية تحقيق ذاته. وبالتالي فقد ذهب إلى باريس للدراسة في مدرسة للفنون التطبيقية. اشتغل لبعض الوقت في شركة ناشئة بمثابة مصمم للرسوم والأشكال، وذلك كبداية مهنية حيث أصبح فيها مديراً في النهاية. لاقت هذه الشركة بعضاً من النجاح إنما في ميدان محدد - وهو البرامج الحاسوبية - التي لم تكن تجذبه البتة. فلقد كان ينجز عمله ويقوم بالمهام المطلوبة منه بدون أن يتألق، وبدون أن يشعر بلذة حقيقية في هذا العمل. وعلى مشارف الثلاثينات، أخذت تنتابه الشكوك. ألم يكن التفكير الذي قاده إلى هذا الخيار الحياتي مجرد خيبة؟ إذ قرر بمحض إرادته أن ينصرف عن مجال والده، ولكنه ابتعد بذلك عن العالم الحرفي الذي كان يحبه. فوظيفته الحالية ولّدت لديه الشعور المحبط في أنه لم يحقق شيئاً ملموساً، وأنه انخرط في سلسلة من الاجتماعات والمراسلات بدون أن يكون لأيامه معنى حقيقي، وبدون أن يعرف تحديداً ماذا يفعل في أيامه. وبالمقابل فإن أباه قارب على التقاعد المستحق عن جدارة، فتكونت لديه شيئاً فشيئاً الفكرة: بأنه يمكن أن يعود فيتولى العمل العائلي، ولكن بعيداً عن الانغماس في العجين والأفران، وإنما من خلال تنفيذ رؤيته الخاصة لعمل العائلة. وقاده الوقت إلى مراجعة وضعيته وإعادة النظر فيما سبق له أن رفضه بشكل متسرع قبل عدة سنوات

خلت: أي أن يحل محل والده، بدون أن يختزل عمله في القوالب المحددة سابقاً، وإنما على العكس من خلال تطوير هويته الذاتية انطلاقاً مما ورثه من مصلحة أبيه مع فرض صبغته الخاصة على العمل. عاد إذاً إلى المخبز وطور منظومة من التوزيع سبق لوالده أن رفضها؛ فأقام نظام تعاون مع بعض مطاعم المدينة، واستفاد من معرفته بالتصميم الغرافي بغية تغيير الهوية البصرية للمخبز، وأنشأ موقعاً على الإنترنت مطبقاً على عمل المخبز العائلي الريفي ما تعلمه في الشركة الناشئة. وهكذا انخرط في منطق تطوير وتنمية أتاح له افتتاح مخابز أخرى في المدن المجاورة، وتحول بالتالي إلى رئيس مؤسسة أعمال. ولكنه إن كان قد نجح إلى هذا الحد، فإنما يعود ذلك إلى ما حمله معه من كل ذكريات الطفولة بجانب والده، حيث كان يذهب معه إلى العمل في فرص نهاية الأسبوع الدراسي. ولقد أحب كثيراً عطر الخبز المحمر في الفرن ونكهة الكرواسان الطازجة. لقد كانت تلك الروائح الشهية تملأ حياته. وهناك أيضاً تعلَّم واستوعب معنى العمل المتقن الذي يميزه راهناً. ولم يكن واعياً لذلك عندما كان في سن العشرين، إلا أنه ورث مع ذلك مفهوم **المهنة** الحقيقية: أن يعمل شيئاً مميزاً بيديه نتائجه ملموسة، سواء في نظره أم في نظر الآخرين. وأن ينتج، كل يوم، شيئاً ملموساً، يعطي معنى لما يقوم به. ويضاف إلى ذلك التمتع بالرضى الذي يوفره للزبائن السعداء تماماً بالخبز الذي يفتح شهيتهم.

نحتاج أحياناً إلى وقت طويل كي نعي ما ورثناه، وما تلقيناه

خلال طفولتنا، وشبابنا، مما نُقِلَ إلينا بشكل علني من قبل والدينا أو أجدادنا، أو على الأغلب مما تمثلناه مما قدموه لنا من مثال، وما استوحيناه من طريقتهم في التصرف وتصور حياتهم. وهو انتقال صامت بتأثير من العادات. فهو طوال طفولته، كان يرى والده يذهب إلى مخبزه منشرح الصدر فرحاً، ومن ثم حاملاً معه إلى المنزل الخبز الفرنسي والكرواسان وكأنه يقول «تذوقوا هذا!». وغالباً ما كان خلال تجوله في المدينة يتلقى التحيات من المارة الذين يتوقفون للإشادة بجودة خبزه وحلوياته الصغيرة. ولقد تأثر بعمق، وأكثر مما خيل إليه، بمدى صدق ثنائهم على عمل هذا الأب. وإلى كل ذلك يعود نجاح توليه زمام المؤسسة الأبوية، وإلى التوليف الذي تمكن من إنجازه ما بين ذكريات الطفولة وتجاربه المهنية الخاصة. فلقد استعاد مجمل تاريخه وأبدى قدرته الإبداعية كي يخترع أسلوبه الشخصي في أن يكون خبازاً. وإذ توجه نحو المستقبل، فقد أصبح المخبز العائلي سلسلة من الأفران التي تحمل مع ذلك دوماً بصمة ماضيه: إذ لم تغير هذه المؤسسة اسمها. اسم العائلة هذا الذي بدا، قبل أكثر من عشر سنوات بقليل، ثقيل الوطأة لهذا المقاول السعيد، وهو اليوم يشكل مصدر افتخاره.

كي يتوصل إلى العثور على طريقه وأن يحقق ذاته فيه، قام هذا الرجل بحركتين أساسيتين: فهو انفتح أولاً على ماضيه بكامل مداه. فخلال فترة من الشك، وعدم الرضى عن مهنته، ترك ماضيه يعاود الحضور، وأدرك كل ما كان ميراثه يشكله بالنسبة إليه.

واكتشف فيه أكثر مما كان يعتقد: أي معنى العمل الحرفي والتجارة، والإعجاب بوالده. . . تشكل هذه الحركة الأولى حركة استقبال.

ومن ثم الإحاطة بكل تاريخه وما صنعه هذا التاريخ من شخصه، فاستند إليه كي ينطلق: فلقد عاد وتسلم المخبز وطوره، محولاً إياه من تجارة محلية إلى سلسلة من الأعمال متوجة بالنجاح. تشكل هذه الحركة الثانية حركة عمل فاعل.

- زمن استقبال: كي ندرك ما جعله ماضينا منا.
- زمن عمل فاعل: كي نقرر ماذا نحن فاعلون.
- زمن استقبال: كي نتحقق من مدى ما ورثناه.
- زمن عمل فاعل: كي نصبح مؤسسين.

تقول الحركة الأولى إننا ثمار ماضينا، وتقول الثانية إننا نتجاوز مجرد ثمار ماضينا.

يجري ديدييه أريبون الحركة المزدوجة ذاتها في عمله بعنوان **العودة إلى رانس**. فهو يستعيد ماضيه، ويعود إلى طفولته، ومراهقته، واكتشافه للعلوم الإنسانية، ولمثليته الجنسية، والخجل الذي ولّده محيطه فيه، واختياره الهروب، ومن ثم عودة كل ما أراد أن يتركه وراءه. لقد انفتح كلياً، وبصدق وأصالة وبدون التلطي بالمظاهر، على كل ذلك. ذلك هو زمن الاستقبال. وهو يستعيد ماضيه من خلال كتابة أفضل كتبه، وهو الكتاب الذي سَبَّب شهرته وألهم منافسيه. ذلك هو زمن العمل الفاعل. وهكذا «**العودة**» **إلى**

رانس، هو إذاً استعادة كاملة خلاقة لماضيه: وشكل ما من إطلاق أعماله وحياته. إذ يبدأ بأن يقول لنا: هذا هو ماضِيَّ الشخصي، وهذا ما جعلني أكون من أنا عليه. ويضيف من ثم: ولكنني لا أُختَزَل بمجرد هذا الماضي. إذ من خلال أعماله، يخلق غير المسبوق.

من خلال الانفتاح الصادق وكامل المدى على ما ورثناه، سوف نجد الانطلاقة كي نخلق الجديد. إننا نستقي المزيد من القوى بمقدار ما نوسع مجهودنا للوصول إلى الأمانة لتاريخنا، من موقع هويتنا الخاصة، وبمقدار الاستمرار على الاختراع كل يوم. يجب عمل الأشياء على طريقتنا كي نجعلها كبيرة، والسماح لتاريخنا ولماضينا أن يتركا صداهما اليوم وغداً.

وعندما نفصل ما بين زمن الاستقبال وزمن العمل الفاعل، فإننا ربما نفصل ما بين الأشياء إلى حد ما. ولكي نكون أكثر دقة وإخلاصاً للفكرة البرغسونية القائلة بالتآني [التزامن]، يتعين بالأحرى الكلام عن زمن استقبال يعاش كاملاً كي يتحول إلى زمن عمل فاعل. إذ منذ أن تقبَّل كلياً هويته، وعرف ذاته بمثابة ابن أبيه الخباز، واستمد من ذلك قوة تحريرية، فإن قدرة ابن هذا الخباز على الفعل قد تضاعفت عدة مرات. والأمر ذاته بالنسبة إلى ديدييه أريبون؛ إذ من خلال كتابته **العودة إلى رانس** وفي صميم هذا العمل ذاته، استقبل ماضيه كاملاً.

«التلخيص الإبداعي» لزلاتان إبراهيموفيتش

لقد قرأتُ برغسون منذ ما يقرب من عشرين سنة، عندما حضرت، بأمي عيني، إشهاراً مبهراً لنظرية برغسون حول التلخيص الإبداعي.

ولأول مرة في حياتي، حضرت مباراة كرة قدم، بمثابة هدية عيد ميلاد لابني البالغ حينها عشر سنوات من العمر. أنا لم أهتم حقيقة أبداً بهذه الرياضة؛ لحين اللقاء بين فريق باريس سان جرمان وفريق باستيا في باريس، إذ إن الإنجازات الكروية لم تجد لها أبداً صدى في نفسي. إلا أن حدثاً خاصاً سوف يغير كل هذا. كنا جالسين لجهة فريق باستيا، وبدأت المباراة منذ أقل من عشر دقائق، حين هاجم فريقُ سان جرمان. وكان زلاتان إبراهيموفيتش محاصَراً بين مدافعَين قويَّين ولكنه تمكن من دفع الكرة في المرمى بركلة تركت الحارس عاجزاً ومذهولاً. كان هذا الهدف روعة في الجمال والسيطرة، إذ يعود في الآن عينه إلى تقنية كرة القدم والفنون القتالية. لقد نفّذه زلاتان بسهولة مذهلة في حيويتها تحت أعيننا المبهورة التي التقطت مساره وكأننا في حالة تصوير بطيء. وثار الجمهور على المدرج في صخب مجنون. وأبدى زلاتان ابتهاجه المفرط. وفجأة ليست جمالية هذه الرياضة وحدها هي التي أذهلتني، وإنما بدت لي هذه الحركة فوق ذلك بمثابة حركة برغسونية صافية.

تتمثل الحقيقة التي بدت لي في أن مجرد حركة يمكنها أن

تلخص مجمل تاريخ شخص ما، شريطة أن ينخرط كلياً فيما يفعله. فلا يمكنه بلوغ قمم كهذه في المهارة إلا إذا حمل معه كل تاريخه، وأن يكون كلي الحضور في اللحظة الراهنة، مزوداً بكل غنى مسار حياته. ومن المعروف عن زلاتان أنه ليس من أولئك الذين يأبهون للقواعد. فهو يحب ممارسة رياضة التايكواندو بنفس حبه لكرة القدم، وفي هذه الرياضة القتالية كما في كرة القدم هو يستند إلى غريزته أكثر من استناده إلى التحليل. وهي إحدى خصاله الشخصية التي ربما اكتسبها في حي روزنغارد حيث يتعين على المرء معرفة كيف يستجيب وبسرعة. فآلاف الساعات التي راكمها في التدريب، والتمرين وإتقان اللعب سواء في الملعب أم في صالات الرياضة أتاحت له اكتساب ثقة تامة في حدوسه [جمع حدس]. كل شيء حاضر هنا، سواء من تعلُّمه وتدريبه، أم من ماضيه، وقد تجمّع كله في تلك الحركة التي من خلالها سوف يختط مستقبله بمثابة أسطورة كروية. هذا العمل الفني الكروي يشكل صورة أخاذة لمفهوم برغسون للتلخيص الإبداعي.

في الواقع، وفيما يتجاوز قوتها البصرية، فإن حركة كهذه توضح عملية إعادة التذكر المعقدة التي جعلتها ممكنة. وهو كي يصل إلى هذه النتيجة، لا بد من استدعاء ذاكرات المدى الطويل الثلاث كي تعمل بتآزر: الذاكرة الظرفية طبعاً (أي ذاكرة الأعمال المماثلة التي تمت محاولتها في الماضي) ولكن أيضاً الذاكرة الدلالية (أي الفكرة التي كوّنها زلاتان عن كرة القدم، وعن

المخاطرة، وعن الحياة، وباختصار عن القيم التي توجهه) وكذلك الذاكرة الإجرائية (أي آلاف ساعات التدريب). «نعم أنا أعتقد أن حياتنا الماضية حاضرة هنا والآن، ومحفوظة في أدق تفاصيلها، وأننا لا ننسى شيئاً...». يأخذ تأكيد برغسون هذا في عمله بعنوان **الطاقة الروحية** عندها كامل معناه. نعم، حياة زلاتان الماضية حاضرة هنا والآن، ومنسقة كلها عندما يبلغ هكذا قمة فن كرة القدم، ويدفع بكامل ماضيه في عمق شبكة أهداف الخصم.

رؤية جديدة للحرية

قاد مفهوم التلخيص الإبداعي برغسون إلى تعريف غير مسبوق للحرية. إذ لا تقوم الحرية بالنسبة إليه على غياب القيود، وإنما هي تتمثل في طريقة أن نكون نحن ذاتنا في صميم هذه القيود: فأن تكون حراً، لا يعني أن لا يكون لك أي ماضٍ، ولا أن تقطع مع هذا الماضي، وإنما في أن تجد الطريقة الملائمة في أن تحمل معك هذا الماضي كي تقوم ببناء مستقبلك.

يكتب برغسون في مقالته **حول المعطيات المباشرة للوعي** قائلاً: «نحن أحرار عندما تنبع أفعالنا من كامل شخصيتنا، وعندما تعبّر عنها، وعندما يكون لها معها ذلك الشبه الذي لا يُعرَّف عنه والذي نجده أحياناً ما بين الفنان وعمله الفني». إلّا أننا نادراً ما نطرح سؤال حريتنا بهذه الصيغة. فسؤال الاختيار إنما يخطر تلقائياً في الذهن. وذلك على غرار ابن الخباز هذا في لحظة من حياته المهنية، أو ديدييه أريبون الفتى، حيث نطرح على أنفسنا ما إذا كنا

أحسنا «اختيار» حياتنا. فخياراتنا تظل مشروطة دوماً بطبقتنا الاجتماعية، ووضعيتنا الاقتصادية الأولى، وكذلك بموروثنا الجيني، وحتى بمجرد الصدف. . . إذ إن طرح السؤال بهذه الصيغة هو إشكالي منذ البدء. وهنا يصبح طرح برغسون هاماً وذا معنى. فهذا السؤال بالغ البساطة والقوة كاشف بشكل خاص: هل إن أفعالنا تشبهنا، وهل تعطي وحدة لاحقة لما سبق لنا أن عشناه؟ وهكذا فإن الفعل الحر هو أكثر من مجرد خيار «واع» قائم على التفكير والإرادة؛ إذ أياً كان مجموع الأسباب المعقدة، ومهما كانت العوامل والمؤثرات التي قادتنا إلى التصرف بطريقة معينة، فإن فعلنا يظل حراً لأننا «نجد أنفسنا» فيه. إذ فيه تُعَبِّر هويتنا عن ذاتها، وكأن حياتنا كلها وجب أن تقودنا إلى هذه النقطة، وإلى اتخاذ هذا القرار. وفوق ذلك كله، فإن فعلنا يلقي إضاءة جديدة على الدرب الذي سلكناه ويعطيه معناه.

فطرح السؤال في هذه الصيغة بإمكانه مساعدتنا على التوجه في الوجود، وأن يشكل الدليل على درب حريتنا. فزلاتان لم يتحرر من تقيدات كرة القدم، ولا من قوانين الفيزياء، فهو حر لأن الهدف الذي سجله في المرمى يشبهه ويجمع شتات كل وجوده.

وذلك الرجل الذي استعاد عمل العائلة يبين اللحظة التي لمع فيها خياره: «لن أكون خبازاً «كما كان أبي». بل سأتولى المؤسسة العائلية على طريقتي الخاصة». ولقد فهم أنه ليس بحاجة أبداً أن يقطع الصلة بالميراث العائلي، بل على العكس: إذ تعين عليه تبنّي هذا الميراث كي يحقق مشروعه بحرية.

وإذا كان قد تبنى، من جانبه، ميراثه من خلال الانخراط في النهاية في مسار والده ذاته، فمن الممكن أن نفعل الشيء ذاته من خلال تغيير عالمنا المهني كي نحمل إليه القيم التي انتقلت إلينا.

فأنا ابن أم طبيبة وأب صيدلي خبير في علم السموم، قد أصبحت أستاذاً للفلسفة وكاتباً، بعيداً جداً عن عالم العلاج. ومع ذلك فأنا لم أقطع مع موروثي. إذ فهمت مبكراً جداً، ومنذ أن كنت طفلاً، لماذا كانت أمي تحب مهنتها إلى هذا الحد: إذ كانت بالنسبة إليها تحمل أكثر المعاني نبلاً، أي الإصغاء إلى معاناة الناس وعلاجهم. ولقد قادني هذا الفهم لاحقاً إلى وعي ليس أقل أهمية: فإذا لم نجد في مهنتنا معنى عميقاً، فإن التكرار الذي لا مفر منه للمهام وما يولده من ملل يومي سوف يصبحان عسيرَي الاحتمال. كانت أيام عمل أمي طويلة، وكانت تضطر أحياناً لعدم تناول وجبة الغداء، وكان المرضى يتوالون بوتيرة كانت تبدو لي مرهقة، ومع ذلك، وإذا كنت أحس أنها تعاني أحياناً من شيء من الضجر، فإنها لم تجعلني أبداً أشك في حبها للطب. كانت مدفوعة برسالة مهنية حقيقية تتيح لها التغلب على كل المعاناة، حيث كانت تعرف منذ سن الثالثة عشرة أنها سوف تصبح طبيبةً عامة. إذ إن قراءة **كتاب سان ميشيل** لألكس مونت، الذي يروي قصة طبيب باريسي من أوساط النخبة والذي فتح عيادة في كابري لعلاج الفقراء قد أشعلت في نفسها شرارة لم تنطفئ بعدها أبداً.

كان مثالها حاسماً في تحديد مساري، إذ علمني أن المهم ليس المهنة التي نمارسها، بحد ذاتها، وإنما المهم هي الدلالة التي

تعطيها لحياتنا. وعندها فحتى توالي الأيام المتشابهة لن تثقل علينا بوطأتها. وإنما على العكس، فهذا التكرار الرتيب يتحلى بشيء من الجمال عندما يكون في خدمة معنى الحياة. وذلك ما خبرته يومياً على مدرجات الليسيه حيث كِنت أُدَرِّس. إذ من خلال مهنتي كأستاذ للفلسفة، وحتى في طريقة تدريسي، فأنا حقاً ابن أمي الطبيبة، والذي يحتذي مثالها.

كذلك كان هو الحال مع والدي، الذي كان يكرر لي بلا ملل أنه من الهام أن نمارس عملاً نتقدم فيه ونتعلم طوال مسارنا. أي أن نكبر ونكتسب مهارة مهنية، ونتقدم كل يوم من خلال ممارسة عملنا، وذلك هو السبيل الأفضل للوقاية من الملل، والحفاظ على شعلة النشاط. إذ فاجأ قراري أن أصبح أستاذاً للفلسفة وكاتباً والِدي. حتى أنه ربما كان قلقاً بعض الشيء عندما توليت عملي الأول في شمال فرنسا، في ليسيه فينيلون دو كامبري، رافضاً مساراً مهنياً في الأعمال وأجراً أعلى بكثير. إلا أنه لم يتخلَّ مع ذلك عن مبادئه، وكان يذكّرني دوماً أن الخيار المهني يعود إليَّ بالتأكيد، وكان يشجعني إذا كنت قد وجدت في هذا المسار حياة توفر التقدم، والاعتراف بأهمية عملي. وكانت كلماته تجد لها صدى في نفسي بمزيد من القوة إذ كانت تشكل المثال نفسه الذي قدمه طوال حياته في مجاله المهني. إذ إن أبي طور أشكالاً من التحليل في علم السموم فرضته بمثابة خبير مرجعي على المستوى الوطني.

تدفعني هذه القاعدة الجميلة منذ ذلك اليوم، حيث أصبحت حياتي كأستاذ وكاتب تقودني دوماً إلى المزيد من القراءات،

واللقاءات غير المنتظرة، كما يعبّر لي طلابي وقرائي عن المزيد من التقدير مما لم أكن أطمح إليه يوماً. لم تكن لدي الرغبة يوماً في أن أصبح طبيباً أو صيدلياً، كما لم أُبدِ أبداً أي استعداد علمي، ومع أني اتخذت طريقاً مختلفاً كلياً عن مسار والِدَيّ، إلا أني أحس تماماً أنني وريث ما نقلاه إليّ، والذي عشته على طريقتي الخاصة، في مهنة أخرى، وفي شغف آخر، وفي عوالم أخرى غير عوالمهما.

فن حسن الميراث

يتعين علينا بالتالي أن نستوعب ميراثنا من خلال استقبال ما أدى إلى تكويننا وبطريقة تقودنا إلى التعبير عن تفردنا. فمن خلال الإقلاع عن محاربة ما هو قائم، فإننا نتحرر ذاتياً ونتيح لأنفسنا أن نصبح نحن ذاتنا. ومن أجل الوصول إلى ذلك، غالباً ما يتعين علينا اتخاذ مسافة ما، وشكلاً من الابتعاد الذي، ويا للمفارقة، يعود فيقربنا من ذوينا ثانية من أجل إعطاء أفضل ثماره. وقد تتخذ خطوة الابتعاد هذه أشكالاً مختلفة: إما طريقة مغايرة من ممارسة نفس المهنة كما هو حال الخباز، أو اتخاذ مسافة نقدية كما هو حال ديدييه أريبون، أو تغيير العالم المهني كما في حالتي، وغالباً ما يتخذ الأمر ابتعاداً جغرافياً... ولكن المبدأ يبقى هو ذاته، أي مبدأ المُنْخُل: إذ لن يبقى من الموروث سوى الأساسي. حيث تتيح خطوة الابتعاد تلك اتخاذ جوهر هذا الموروث.

توفر لنا عائلة نواه، المتمثلة بثلاثة أجيال من الأبطال الأعلى شأناً، في ثلاثة أنواع مختلفة من الرياضة التدليل على ذلك. فهناك زكريا نواه بطل كرة القدم الفائز بكأس فرنسا في العام 1961، وهناك يانيك نواه، بطل التنس والفائز في دورة رولان غاروس في العام 1983، وهناك يواكيم نواه، لاعب كرة السلة، والمدافع الأفضل لفريق الاتحاد الوطني لكرة السلة في العام 2014 والذي لعب لصالح اثنين من أهم فرق كرة السلة الأميركية. فكل واحد من هؤلاء الثلاثة تميز في مجاله الرياضي من خلال تنمية اتجاهه الخاص به (فمثلاً لم يسمح يواكيم نواه أبداً، وخلافاً لوالده، لمسرات الحياة أو معاناتها أن تؤثر على مسيرته المهنية). وكل منهم، على طريقته الخاصة، أسهم في استمرار الموروث العائلي المشترك: أي حب الرياضة، والتوق إلى الانتصار، وثقافة «السماء هي حدودنا»، وكذلك الاستعداد الجيني. ولكن في كل مرة، وفي كل جيل، تعين، بغية استمرار شعلة الموروث، إجراء خطوة الابتعاد هذه: من قبيل تغيير المجال الرياضي، أو الابتعاد الجغرافي. إذ منذ سن الثانية عشرة، ترك يانيك نواه الحضن العائلي والكاميرون كي يلتحق بفرع دراسة التنس في ليسيه البارك أمبريال في نيس. كما ابتعد يواكيم عن والديه كي يذهب إلى الولايات المتحدة في العمر ذاته تقريباً: إذ هناك يتم إعداد أفضل لاعبي كرة السلة. وهو انفصال سوف يتيح له أيضاً قطع الصلة مع صورته بمثابة ابن سيسيليا رودي، ملكة جمال السويد في العام 1978، ويانيك نواه، تلك الشخصية المفضلة من قِبل الفرنسيين

بسبب فوزه في بطولات كبرى لكرة المضرب، وكذلك الفائز بكأس ديفيس بمثابة رئيس فريق، والذي تحول من بعد إلى مُغَنٍّ ناجح.

يتطلب منا العيش مع ماضينا أحياناً أن نتباعد عنه، وأن نقارب آفاقاً جديدة كي نوجد خارج نطاق نظرة الآخرين التي تختزلنا أحياناً في تاريخنا، وفي أسلافنا... وللمفارقة، فالدرب الذي نسير عليه هو على الأغلب الأقصر لاستعادة هذا الماضي. عبثاً عَبَرَ يواكيم نواه المحيط الأطلسي ذهاباً إلى أميركا، فهذا الفتى الذي يسدد الضربات إلى سلال المباريات بدون توقف يشبه كثيراً ذلك الفتى الآخر الذي كان هو أيضاً يتمرن، قبل بضعة عقود، طوال ساعات على تسديد ضربات الكرة. وحين ربح نهائي مباراة رولان غاروس في مواجهة ماتس ويلاندر في العام 1983، سارع يانيك نواه إلى الارتماء في أحضان والده: «يا أبي!» تلك كانت أولى كلماته للتعبير عن فرحته بالانتصار. فهو يعرف كل ما يدين به لهذا الأب. وذلك لا يقلل مطلقاً من جدارته الذاتية. فهو كان يعرف جيداً كم حمله ماضيه باعتباره سليل أسرة نواه، إلا أنه هو ذاته تحديداً الذي حمل ماضيه نحو الحصول على لقب البطولة.

ذهب ابن الخباز إلى باريس كي يُقَدِّر أخيراً مدى تعلقه بقيم والده. كذلك فإن ديدييه أريبون عبثاً حاول أن يحكم بشكل قاس على ذويه، وحين وجد نفسه بعد عدة سنوات، بعيداً عن ضواحي رانس، في وسط البرجوازيين الذين يحكمون باحتقار على السترات الصفراء [حركة احتجاجية في فرنسا] أو المضربين، كان يشعر

بانتمائه إلى هذا الوسط بشدة وانفعال. تماماً كما أننا لا نشعر أننا فرنسيون إلا عندما نكون في الغربة.

النغم الداخلي لشخصيتنا

تعبِّر حريتنا عن ذاتها، تبعاً لبرغسون، في قراراتنا وأفعالنا الأكثر ذاتية، مما يجسد شخصيتنا، وهويتنا، ضمن وسط من الضغوطات والمؤثرات التي نرتضيها، ونستقبلها، وليس في الهوام المتمثل بأننا انتزعنا أنفسنا من كل الإرغامات. نجد المزيد من الحرية حين نستقبل موروثنا بالرضى، مما نجدها في القطيعة الصريحة. إلا أنه ليس سهلاً على كل حال أن نكون نحن ذاتنا في الموروث، بل يتعين علينا أن نتعلم الإنصات لذاتنا، وتحديد ما يترك صداه في نفوسنا، ويثير اهتمامنا، وسرورنا، ويولّد فينا الرغبة في أن «نتعلق» بهذا الموروث.

يستعمل برغسون في عمله بعنوان **الفكر والواقع المتحرك** تعبيراً جميلاً، «النغم المستمر لحياتنا الداخلية»، وذلك كي يشير إلى تلك اللحظة التي نصادف فيها نشاطاً يتلاءم معنا ويقدم لنا مجالاً للتعبير عن جديد: فنكون عندها كمن يستمع إلى نغمه الداخلي الحميم. إذ يكتب قائلاً: «ليس هناك من جوهر جامد ولا حالات متمايزة عن بعضها تمر كما يتتابع مرور الممثلين على خشبة المسرح. كل ما يوجد هو ذلك النغم المستمر لحياتنا الداخلية – وهو نغم يستمر ولسوف يستمر، بلا انقطاع، من بداية وجودنا الواعي إلى نهايته. فشخصيتنا هي هذا ذاته».

ولكي نعبّر عن شخصيتنا بكامل مداها، يتعين علينا أولاً، تبعاً لبرغسون، أن نعثر على «نغم حياتنا الداخلية». فالفنانون الذين ينتقلون في أعمالهم من مرحلة إلى أخرى مختلفة، على غرار دوبوفيه أو بيكاسو، أو أولئك الذين يتناولون نفس الموضوع من كتاب إلى آخر، ناسجين عملهم حول فكرة مركزية على غرار موديانو، يوجهون سمعهم إلى ذلك النغم الذي يعطي لشخصيتهم طابعها الخاص. ولكل منا نغمه الداخلي الخاص، كما يقول برغسون، حتى ولو لم نكن فنانين، وحتى لو كان هذا النغم خافتاً أحياناً، يطغى عليه ضجيج الحياة اليومية، أو يطمسه صخب الحياة الاجتماعية، أو العائلية. ولكن كيف السبيل للعثور على هذا النغم الداخلي، والتعرف عليه؟ وكيف نعرف متى نعبّر عن نغمنا الذاتي حقاً، وبحيث تصبح أفعالنا «شبيهة بنا»؟

يتصف الجواب الذي يقترحه برغسون على ذلك ببساطة مذهلة: فالمتعة التي نجدها في عملنا تفصح عن ميلنا الذاتي. إذ يجد نشاط ما صداه عبر ما يولّده من سعادة لدينا، وذلك الرضى الذي يوفره لنا؛ إذ من خلاله، أحس أنني سوف أنطلق وأتجسد وأعبّر عن ذاتي، وسوف أتيح «لهذا النغم المستمر لحياتنا الداخلية» أن يُسْمِع صوته. يتيح هذا السرور تحمّل الصعاب، والعقبات؛ إذ يشكل البوصلة الأكثر موثوقية.

أتذكر أنني شعرت بلذة من هذا القبيل عندما كنت طالب فلسفة

في السوربون. لقد بدأت بالعلوم السياسية حيث كان يستهوني التاريخ والقانون والاقتصاد، ولكن بدون أن يولّد أيٌّ منها الفرح في التعلم، وتحولت من ثم إلى مدرسة التجارة حيث بدا لي كل شيء مملاً وفارغاً من المعنى. إذ لم أجد مكاني في هذه الاختصاصات. ولقد تغير كل هذا حين التحاقي بكلية الفلسفة، وخصوصاً خلال هذه التدريبات على كتابة المقالات الفلسفية التي كانت تقام صباح الأحد، من الساعة الثامنة حتى الثانية بعد الظهر، إذ هناك عثرت على ما يناسبني. فليس ما يوفر السرور عادة أن تستيقظ فجر الأحد كي تذهب إلى الكلية وتنكب خلال ست ساعات على معالجة موضوع فلسفي، حيث لم تكن قاعات السوربون الكبرى مرحبة البتة، كما كانت شديدة البرودة شتاءً، وكانت بعض الموضوعات مستعصية على العلاج، ولا تثير الإلهام، وكان لدي الانطباع أحياناً أني لا أفهم شيئاً مع حصولي غالباً على علامات سيئة للغاية. إلا أني كنت أحب ساعات التفكير الفلسفي الطويلة تلك، حيث إن عبور باريس في صباح الأحد الباكر حين يكون كل الناس ما زالوا نياماً، واكتشاف الموضوع والأعصاب مشحونة، وبدء المعركة معه، وتقليبه على مختلف وجوهه، واكتشاف أصدائه، ومن ثم اكتشاف الإشكالية وترتيب الأفكار والحجج، وإطلاق العنان للأفكار، والمباشرة في الكتابة أخيراً، نكتشف عندها أن الساعات الست تمر بلمح البصر عندما نحب أن نفكر ونكتب. وهكذا وجدت طريقي الذي سوف يجعلني أنطلق وأتقدم.

عندما أعاود التفكير بصباحات الآحاد تلك في السوربون، أفهم

ما أراد برغسون التعبير عنه بقوله «النغم المستمر لحياتنا الداخلية»: نعم كان شيء ما يترك صداه في ذاتي في صباحات تلك الأيام، فتلك الموسيقى العذبة كانت «أنا ذاتي»، وكانت حياتي الداخلية تتفتح وملكاتي تنمو، وشخصيتي الحقيقية تعبّر عن ذاتها، ولو على حياء، ولكن ذلك كان يكفيني وقتها. كذلك هو الحال حين وجدت نفسي لأول مرة أمام صف نهاية الثانوي: فرغم التوجس والتردد، وحتى تعليقات الطلاب الساخرة، فلقد شعرت بسرور غامر في أن أكون هناك، وكنت أحس أنني متحمس لما أنا فاعل، إذا جاز القول؛ فهذا السرور لا يمكن أن يكذب.

كذلك هو الحال بصدد السرور الذي يشعر به ماتيو شْدِيد على خشبة المسرح خلال استعراضاته المذهلة فهي لا تخيب: صحيح أنه ابن المغني لويس شديد ووريث أجداده، إلا أنه رغم ذلك وخصوصاً يَحس أنه في جلده عندما أصبح ذلك المغني البارع. لقد ورث ماتيو اسم العائلة، ولكنه لا يُخْتَصَر بمجرد حمل هذا الاسم. وحين يجمع على خشبة المسرح كل من أبيه وأخيه وأخته وكلهم موسيقيون، تكتمل الحلقة: إذ سيشعر أنه هو ذاته كلياً في إخلاصه لموروثه.

يشكل السرورُ الذي نحصل عليه مما نفعل بوصلةً على درب هذا التلخيص الإبداعي، ومؤشراً إلى طريق حريتنا.

تتمثل حركة التلخيص الإبداعي هذه فيما يلي: زمن استقبال، وزمن عمل فاعل، والسرور بمثابة البوصلة الموجهة.

ميراث الضحايا المؤلم

أنا ما أرث، إلا أنني لا أُخْتَزَل في ذلك. يمكن لهذه الجملة، في بساطتها الجلية، أن توضح حالة الضحية. فمهما كانت المأساة التي عشناها، والتي تحددنا بمثابة ضحايا، فإننا لسنا مجرد ما فعله هذا الحدث فينا. «فأن نكون ضحية» لا يشكل البتة جزءاً من جوهر وجودنا، فكوننا ضحية يرجع إلى حادث صادم، وليس إلى هوية ذاتية. تشكل هذه الفكرة لب كل أعمال سيمون فايل، وكتاباتها، وخصوصاً سيرتها الذاتية بعنوان **حياة**، وكذلك كل ما أنجزته، وكل عطاءاتها السياسية والاجتماعية. إذ إنها رُحِّلَت إلى معتقل أوشفيتز في سن السادسة عشرة، وكانت ضحية بربرية النازية التي سلبتها والديها وأخيها، إلا أنها رفضت أن تُعَرَّف بمثابة معتقلة، وأن يتحول كيانها إلى مجرد ضحية رعب الاعتقال؛ إذ كان ذلك بمعنىً ما سوف يكرس انتصار جلاديها. ولذلك سوف تقاتل من أجل ما تعتقد به، وسوف تصبح محامية ووزيرة دولة من بعدها، ونجحت في اعتماد القانون الذي يشرع الإجهاض الاختياري في فرنسا، وأصبحت من ثم رئيسة البرلمان الأوروبي. إذ سوف تصاحبها على الدوام تجربة الموت، وما عانته من أهوال الاعتقال وخسارة ذويها؛ سوف تتقدم سيمون فايل دوماً وهي تعي أن هذه التجربة سوف تغذي معاركها وتلهم قيمها. إلا أنها لن تترك نفسها تختزل في مجرد تلك الشابة الناجية من معسكرات الاعتقال.

لا يعني أخذ كل ما ورثناه في الحسبان أنه يتعين علينا قبوله تلقائياً وجعل تاريخنا يُعَرِّفُنا. إذ تدلنا فكرة التلخيص الإبداعي لدى

برغسون السبيل الذي يتعين علينا اتباعه أي: الاستقبال بنشاط، والانفتاح عليه، إنما من خلال استيعابه. وهكذا نخرج في الآن عينه من «وضعية الضحية» أو من «التنافس التذكري»: إذ إن هذه الحالة الأخيرة لا معنى لها إلا بين الضحايا الذين يتركون أنفسهم يُعَرَّفون أساساً من خلال المأساة المعاشة.

تشهد الكاتبة المسرحية شارلوت ديلبو، وهي بدورها ناجية من معسكرات الاعتقال، على طريقتها على إمكانية الخروج من الماضي، إذ تبين في ثلاثيتها بعنوان **أوشفيتز وما بعده** كم أن العودة إلى الحياة بدت لها أولاً تافهة. إذ طغت حالات التطرف عملياً في أوشفيتز: حيث كان هناك من ناحية أولى وحشية الأذى، والبرد والجوع، ولكن من ناحية أخرى، وعلى العكس وضد كل شيء، كانت هناك الصداقة التي لا تخيب، والتعاضد والتساند، وأريحية أولئك الذين لم يعد لديهم شيئاً يملكونه. إذ كان الجلادون جلادين حقاً وبشكل شائن، وكان الضحايا ضحايا لا حول لهم، ومع ذلك فالمبادرات الطيبة كانت تبدو فائقة العطف، بحيث كان جحيم حياة المعتقلين مجبولاً بمعجزات يومية، ولحظات من المشاعر الإنسانية العميقة والصادقة: من قبيل ذاك الصديق الذي يعطيك نصيبه من الحساء ولو ضحى بحياته، ونسخة من مسرحية **عدو البشر** لموليير مخبأة في كم أحدهم والتي يتم تبادلها بجلال ديني، وشعاع شمس يخترق الغيوم الملبدة حاملاً قليلاً من الضوء في قلب الظلمات. . .

وتكتب نانسي هيوستن حول هذا الموضوع، بالرجوع المباشر إلى أعمال شارلوت ديلبو ما يلي: «إنها لمفارقة مذهلة تجربة

معسكرات الاعتقال تلك: إذ عندما نخرج منها، هذا إذا أمكن الخروج، **فإنها تثير الحنين**. إذ لا يمكننا أن نمتنع عن التساؤل، في كل مرة نلتقي فيها إنساناً آخر: هل كان هذا الشخص سيمد لي يد العون، وهل كان سيقتسم كسرة خبز معي؟ وهذا الآخر ألم يكن ليشيح بوجهه عني عندما يرى ترحيلنا إلى المعسكر؟ إذ يكاد يكون مستحيلاً بعد ذلك العودة إلى طريقة النظر القديمة». ينغلق «حنين» من هذا القبيل على الناجين بمثابة فخ: إذ كل تعاطف، وكل سخاء، وكل شجاعة تبدو، خارج معسكرات الاعتقال، مفرغة من مادتها، ومن حقيقتها، كما يفقد الحاضر نكهته في مقابل عنف الماضي الرهيب.

توصلت شارلوت ديلبو وبعض أصدقائها الناجين، والذين جمعت شهاداتهم في عمل بعنوان **مقدار أيامنا** إلى اعتبار تجربتهم في معسكر الاعتقال بمثابة «الحياة الوحيدة الحقة». لقد تجاوزوا المحنة إلا أنهم ظلوا أسرى الماضي.

نجحت شارلوت ديلبو في النهاية في الشفاء من هذا «الحنين»، وإعادة الارتباط بالحياة الراهنة، وانتزاع ذاتها من قوة الانفعال القصوى لمحنة معسكر الاعتقال. لقد فهمت، كما تكتب نانسي هيوستن أن «الحقيقة القصوى في تطرفها ليست حقيقة الحياة ذاتها». وعندها فقط أمكنها الانفتاح من جديد على مسرّات الحاضر، وعلى كل ما تحمله الحياة «العادية» بكل بساطتها وطلاوة هدوئها من شاعرية، وعلى ما تسميه «جمالية الناس العاديين». وهكذا تكون قد تعلمت على أن تبني ذاتها، وتعرف الحياة الحقة،

بمعزل عن الرجوع إلى تجربة الترحيل والاعتقال، أو على الأقل بدون أن تهيمن عليها تجربة الاعتقال هذه وتسحقها. وبالطبع بدون أن تحجب شيئاً مما عانت منه. وكذلك بدون أن تنسى كم أحبت الحياة قبل الحرب، وقبل الاعتقال بمثابة مقاوِمة وترحيلها إلى معسكر الاعتقال، حين كانت طالبة فلسفة في السوربون، ومنخرطة في الشبيبة الشيوعية، وسكرتيرة رجل المسرح الكبير لويس جوفيه. وتكتب نانسي هيوستن عنها أنها «كانت شغوفة بالعطور النادرة، وتوصي على ملابس ذات موضة صارخة، وتحب المطبخ المميز، ونبيذ بوردو المعتق... وفي كل مساء وحين تتناول وجبة العشاء منفردة في شقتها الصغيرة المطلة على جبل سانت جنفييف، كانت دلبو تفتح زجاجة شامبانيا صغيرة وترفع كأساً احتفاءً بالحياة». وبالطبع كانت تأخذ تلك البادرة نوعاً من الانتقام من النازيين الذين أرادوا حرمانها من جمال العالم ومسراته اليومية، ولكن هذه البادرة كانت تمثل الاحتفاء بالجمال بحد ذاته وتلك التفاصيل الصغيرة التي تعطي معنى للوجود.

الانطلاقة الحيوية

ترتكز فلسفة التلخيص الإبداعي على نوع من الميتافيزيقا: فالحياة، تبعاً لبرغسون هي عبارة عن «انطلاقة حيوية» وهي قوة خلق أساسية، ونبضة في صميم الكائن الحي ذاته، وكل الكائنات الحية. في عالم من الصيرورة، كل شكل في الحياة هو خلق فريد، خارج كل توقع، ويُطَوِّر من خلال متعضى [كائن حي] خاص شكلاً

نوعياً من هذه النزعة الخلاقة للحياة ذاتها والتي تخترع ذاتها بدون توقف، سواء في تلك النبتة المتسلقة على الجدران متجاوزة العوائق، أو في كلب الراعي الذي يعيد، وحيداً، تجميع عشرات الأغنام، أو في الجرأة والابتكارية التي نبديها أحياناً، على غرار موهبة كبار الفنانين أو كبار العلماء. ويمكن لصيغ تعبير قوة الحياة هذه أن تتنوع، ولكن لكي تعبّر دوماً عن الحياة والتي يعرّفها برغسون في عمله بعنوان **التطور الخلاق** بمثابة «خلق مستمر لمستجدات غير متوقعة». وهكذا ننطلق جميعاً من انطلاقة حيوية وحيدة تحمل شخصيتُنا أثرَها، بمثابة تفرع أو تخصيص من الأصل. تتخذ الانطلاقة الحيوية منحى خاصاً لدى كل منا، وبهذا المعنى فإننا نُعَبِّر جميعاً عن قسط من هذه الحياة، ومن هذه القوة الميتافيزيقية التي يصفها برغسون بأنها إلهية.

وكما يكتب برغسون في عمله بعنوان **التطور الخلاق**، فإن شخصيتنا هي أكبر من مجموع ماضينا، ومن «تكثيف التاريخ الذي عشناه منذ ميلادنا». إنها هويتنا، وإنما المدفوعة إلى الأمام، والمخترقة بقوة الحياة هذه التي تدفعنا إلى التصرف، والخلق. ومن خلال التلخيص الإبداعي نعبّر عن شخصيتنا. وبفضله نحقق ذاتنا بمثابة أفراد فريدين منطلقين إلى المستقبل.

ولكي نسهم في قوة الحياة هذه، ونشارك في هذا «الخلق المستمر لمستجدات غير متوقعة»، يتعين علينا أن نكون قادرين،

على مستوانا الشخصي، على عيش حياة خلاقة، وأن نتجنب سهولة الوقوع في التكرار، وأن نترك مجالاً للمستجد. وعندها سوف نشعر في ذواتنا، وفي صلب شخصيتنا ذاتها، بانتشار قوة الحياة تلك التي تبحث دوماً عن اختراع ذاتها من جديد، وتجاوز كل ما يقف عقبة في سبيلها. تشكل هذه الانطلاقة جزءاً مكملاً منا، ومن كينونتنا، ومن جوهرنا. ولا يمكننا بالتالي خسارتها. ولكن قد يحدث أن ننقطع عنها، من خلال الانخراط في اليومي، ومن خلال مقاومة التغيير، والاستعصاء على كل ارتجال، وبالتالي من خلال تجنب لحظات الخيار الوجودي ومقاومته. وكذلك الأمر فإننا نقطع الأواصر مع قوة الحياة هذه من خلال قطع الصلة مع ماضينا، إذ هي تعبّر عن ذاتها في الواقع من خلال مسار مستمر طالما أنها عملية «خلق مستمر لمستجدات غير متوقعة».

كذلك هو الحال مثلاً عندما ننخرط في قصة حب جديدة. نشعر جيداً عندها أنه يتعين علينا إعادة اختراع أنفسنا، والانفتاح على الجديد، والتجريب، والتقويم، وإلا فإننا قد نعرض هذه العلاقة للفشل، بسبب قصور الحيوية والابتكار. إلا أن الحد الآخر هو بدوره ضار. إذ أن نبدأ بداية جديدة مع إحداهن لا يمكن أن ينجح إذا نحن انقطعنا عن أنفسنا، وعن حياتنا السالفة، وعن أولئك الذين كانوا جزءاً منها، كما إذا انقطعنا عن كل ما أَسَّس لتكوين شخصيتنا. سوف نتعرض عندها لخطر أن نجد أنفسنا في المأزق كذلك: إذ عندما تذهب نشوة الجدة، فسنجد أنفسنا وقد تملكنا الماضي من جديد؛ سنشعر عندها بالحاجة إلى إعادة الصلة

معه من جديد، وبالتالي مع أنفسنا. فحركة الحياة ليست عبارة عن هروب إلى الأمام، وإنما هي تطور يتطلب خلق الجديد انطلاقاً من الدرب الذي قطعناه.

وإذا لم نكن جزءاً من حركة الحياة ذاتها هذه، أي القوة التي تدفع وتطمح إلى التعبير عن ذاتها بدون توقف، فإن ماضينا يبدو لنا عندها بمثابة وزن يُثْقِل علينا: إذ ربما يمكننا استعادته، ولكن ليس بطريقة خلاقة. وبدون هذه الحركة، وهذا الالتزام في السير نحو المستقبل، سوف يصبح تاريخنا بمثابة وزن ميت، وسنرى أنفسنا وقد سُحِقْنَا وجُمِّدْنا: وعندها فالاستعادة سوف تؤدي بنا إلى صورة جامدة، مكررة ومعادة، نتماهى بها بدون إمكانية إعادة اختراع ذاتنا. وسوف نخسر عندها حريتنا. وسوف نشعر أننا سجناء في جوهر كينونتنا بمثابة ابن طبيبة أو ابن خباز، كما قد نسجن في مكانتنا بمثابة ضحايا. إنه حقاً التقدم إلى الأمام، وأن تحملنا الانطلاقة الحيوية التي تدفع بنا نحو المستقبل، هو ما يتيح لنا استعادة مبتكرة وخلاقة. ويلخص برغسون كل ذلك بالقول «إنها حركة دائمة إلى الأمام، تجمع كامل ماضينا وتخلق المستقبل، تلك هي الطبيعة الجوهرية للشخص».

يعبّر برغسون في نهاية عمله بعنوان **منبعا الأخلاق والدين** عن تمنٍّ قد يبدو غريباً للوهلة الأولى: «فلتتجسد حتى على كوكبنا المتمرد الوظيفةُ الجوهرية للكون، والذي هو عبارة عن آلة لصناعة

آلهة». وباعتبار أن الانطلاقة الحيوية تحرك الكون، فإن كل حياة، حتى أصغرها شأناً، ومنذ أن تُجَسِّد هذه الانطلاقة الحيوية، فإنها تشكّلها من خلال قدرتها الخاصة على الخلق، فتصبح عندها حياةً إلهيةً. نفهم هنا المعني الأكثر عمقاً للفلسفة البرغسونية: إذ من خلال استماعنا لنغم شخصيتنا الحميمة، ومن خلال تحقيق ذواتنا في كامل مداها، وبزخم، وكوننا ورثة ماضينا ومؤسسي مستقبلنا، وقادرين على استيعاب كل حياتنا المعاشة في تلك الحركة التي تدفعنا نحو المستقبل، فإننا نصبح بمثابة آلهة كاملة التجلي.

السخاء

يتيح لنا الاتصال بهذه القوة الميتافيزيقية وبحركة الحياة هذه، تبعاً لبرغسون، استرجاع ماضينا بطريقة خلاقة. وإذا كانت هذه الانطلاقة الحيوية تعبّر عن نفسها في صلب إبداعنا، فإنها تدفعنا كذلك كي نتوجه إلى الآخرين، وإلى العالم، وإلى المستقبل. إذ هي تدعونا إلى تحمّل قسطنا من المسؤولية وتغذي تجليات سخائنا. وهكذا، تصبح الانطلاقة الحيوية قوة تدفع بنا إلى الخروج من التمحور حول ذاتنا: إذ تتخللنا حياة أكبر من مجرد شخصنا، وهذه الحياة تخرجنا من التمحور حول ذاتنا، وتصرفنا عن تاريخنا الخاص في الآن عينه الذي تجعل هذا التاريخ الخاص يبعث أصداءه خارجاً عن ذاتنا. ونشعر تماماً عندها أن هذه الحياة التي تنبض فينا ليست وقفاً علينا فقط، وأننا لسنا مجرد أفراد معزولين: إذ نحن نَمُتُّ إلى كلٍّ نتضامن معه. وعندها يصبح من الأسهل علينا

حمل تاريخنا معنا كي نتقدم إلى الأمام وندرجه في رواية أوسع مدى.

يشكل الفنانون والعلماء، تبعاً لبرغسون، النماذج الكبرى للحياة: فالانطلاقة الحيوية التي تعبّر عن ذاتها بقوة خاصة من خلالهم تخرجهم عن التمحور حول ذاتهم بشكل مثالي سعياً وراء هدف سامٍ يتجاوز مجرد الحصول على الاعتراف والتقدير الشخصي: أي البحث عن الجمال أو الحقيقة. فمن خلال وعيهم بأن الحياة التي تتخللهم تتابع من خلالهم شيئاً يتجاوزهم، هم يضعون أنفسهم في خدمتها. والفرح الذي يشعرون به من خلال إسهامهم يتجاوز بما لا يقاس مجرد الرضى الأناني. ويأخذ عملهم بعداً فائق السخاء يسهم في استعادة ماضيهم الخلاق، وذلك من خلال تجسيد جهودهم الماضية وأبحاثهم التي لم تنجح وكذلك نجاحاتهم، تجسيدها حاضراً ومستقبلاً. إذ بدون هذا السخاء، فإن لحظات فشلهم وشكوكهم سوف تثقل جداً عليهم، بما يهدد بدفعهم إلى الاستسلام بدلاً من الإسهام في رغبتهم بالنجاح.

تتيح لنا حركة الحياة هذه، من خلال جعلنا كائنات غيرية وسخية، أن نخرج عن التمحور حول ذاتنا: فيمكن للسخاء أن يكون بالتالي حاسماً في علاقتنا بماضينا، وبالعبور من زمن الإستقبال إلى زمن العمل الفاعل الذي سبق أن أشرنا إليه.

وإذا تمكنت شارلوت ديلبو وسيمون فايل من العيش مع

ماضيهما بمثابة ناجيتين من معسكرات الاعتقال كما سبق أن رأينا، فإن ذلك يعود أيضاً إلى أن كتاباتهما موجهة نحو الآخرين، وأن لديهما همَّ تقديم الشهادة والرواية، وعمل كل شيء كي لا ننسى أبداً، وكي لا يتكرر هذا البلاء. أتاح لهما هذا السخاء المتمثل بالاهتمام بالآخرين - أولئك الذي ماتوا في المعسكرات واللتان تحييان ذكراهم وكذلك الآخرين الذين ترويان لهم بغية إيقاظ وعيهم - أتاح لهما إذاً أن لا تعيشا في الماضي، وإنما التعايش معه، وحمله معهما بغية بناء المستقبل.

أتذكر محادثة أجريتها مع شابة في نهاية محاضرة قدمتُها عن الميراث. إنها ابنة طبيبة جراحة تعمل في عيادة خاصة، ولقد تعثرت هذه الفتاة طويلاً في تحقيق رغبتها في أن تصبح طبيبة. إذ خلال سنوات كلية الطب الأولى، لم تكن لتتحمل ذلك الشعور بأنها تتبع خطى أمها؛ إذ إن ميراثها كان يزعجها. إلا أنها كانت مصدومة بفضيحة وجود خواء طبي هائل في بلد متقدم كفرنسا، وفهمت تدريجياً، خلال دراستها وخصوصاً خلال دورات تدريبها إلى أي حد كان البعد الاجتماعي والإنساني في عملها هاماً بالنسبة إليها. ولقد أحست برغبتها تتأكد في أن تصبح طبيبة عامة، وليس اختصاصية على غرار أمها، وأن تفتح عيادة في الريف. فاهتمامها بالآخرين وسخاؤها دفعاها إلى الخروج من التمحور حول ذاتها: إذ بإزاء مأساة كل أولئك الفرنسيين بدون رعاية طبية، اتخذ تاريخها الشخصي وعلاقتها بأمها فجأة أهمية أقل، كما أعطتها رغبتها في

أن تكون مفيدة القوة والعزم على حسن تنفيذ مشروعها، وأن تطور أخلاقيات مهنة خاصة بها، وكذلك أن تُثَمِّر ميراثها العائلي على طريقتها الخاصة.

إذ عندما نعرف إلى أين نحن ذاهبون، وعندما ننطلق فوق ذلك نحو هذا الهدف بكامل دافعيتنا وموهبتنا، فإننا سوف نضيع القليل من الوقت في التساؤل حول من أين أتينا.

يولد الاهتمام بالآخرين، تماماً كالاهتمام بجماليات الأعمال الأدبية والفنية الكبرى والعالم، ذلك الخروج من التمحور حول الذات الذي يتيح لنا أن نتعايش جيداً مع ماضينا، وأن نحمله معنا على درب حياتنا. إذ بدون ذلك، يمكن لماضينا أن يثقل علينا كثيراً، ويهيمن على حياتنا. ليس أفضل من الخروج عن التمحور حول الذات كي نتجنب اجترار الماضي، وليس أفضل من الانفتاح على حركة الحياة هذه والتي هي سخية في جوهرها، إذ إنها تحملنا جميعنا إلى ما يتجاوز ذاتنا.

وهكذا نتوصل إلى تعريف كامل لحركة التلخيص الإبداعي، وإلى هذه الطريقة البرغسونية للعيش مع ماضينا: أي زمن استقبال، وزمن عمل فاعل، والسرور بمثابة بوصلة، وحركة الحياة والسخاء بمثابة محرك.

الفصل السابع

التدخل في ماضينا

تقدم لنا الحياة أحياناً الفرصة لأن نلقي نظرة أخرى على ماضينا، وأن نغيّر إدراكنا لهذا الماضي. ويمكن أن يكون العنصر المطلق لذلك إما مناقشة مع أحد الأجداد، أو لقاء يفتح أمامنا منظورات جديدة، أو تعاطف جديد تجاه من سبق أن سبب لنا ضرراً ما، وكذلك مرور الوقت الذي يخلق مسافة تحمل السلام معها... أو بكل بساطة، فرح العيش من جديد، وفترة أكثر سعادة تعيد تلوين الماضي. وقد لا نتمكن أحياناً من إدراك الأسباب، إلا أن تاريخنا يبدو لنا بوجه آخر، إذ قد نفهم شيئاً عن طفولتنا سبق أن أفلت منا، أو أن نعيد تأويل فشل بطريقة إيجابية، وننجح أخيراً في التقليل من وطأة حيف لحق بنا، وإذا بنا، في كل هذه الحالات، وقد استعدنا سلامنا الداخلي، وتحررنا.

وكما رأينا، فإن كل ذكرى هي إعادة بناء: إذ لا نستعيد أبداً الماضي كما كان فعلاً، وإنما نحن نستقبل إعادة زياراتنا لهذا الماضي أو إعادة تأويلاتنا له.

وتقودنا الحياة من تلقاء ذاتها أحياناً إلى النظر بتعاطف أكبر مع الأمس، علينا ذاتنا وعلى أقاربنا، كما على حالات فشلنا، وعلى اللقاءات المحبَطة، وعلى تاريخنا. إلا أنه يحدث أن لا تقدم لنا الحياة الشروط الضرورية للصفح عن الأمس. إذ أحياناً تكون الأحقاد، والآلام، أو الخيبات عنيدة، ونصطدم عندها بالذكريات ذاتها، والمعاتبات ذاتها، ومشاعر الندم ذاتها. نريد التحرر من سجن الماضي هذا، والوصول إلى تلك المرونة الذهنية التي تتيح الخروج من صيغة التكرار، إلا أننا نفشل. وهكذا نظل غارقين في اجترارات الماضي. إذ تجعل بعض الصدمات الماضية من الضروري التدخل في ماضينا، وبمساعدة علاجية. الفنيات التي ستعرض في هذا الفصل مستخلصة في جلها من «علاجات إعادة تعزيز الذاكرة»، إلا أنها ترسم أيضاً طريقاً للتدخل في الماضي يستطيع أن ينفذها كل منا بمفرده. إنها ليست مقطوعة الصلة، على كل حال، مع بعض الممارسات الفلسفية المعروفة منذ القدم. تقوم هذه الفنيات على الطريقة التالية: التدخل في الذاكرة من خلال تعديل الانفعال أو التأويل المرتبطين بها.

تغيير قاعدة الحياة الضمنية المرتبطة بالذاكرة

أول التطبيقات العلاجية الجديدة التي سوف نطرحها تهدف إلى إعادة التعامل مع الماضي بغية توقيف طابعه المسمم للوجود. تستند هذه الطريقة، على غرار الطريقتين الأخريين «لإعادة تعزيز الذاكرة» والتي سندرسها لاحقاً، إلى قدرتنا على استخراج ذكرى

من ذاكرتنا طويلة المدى كي نعالجها من خلال ذاكرتنا العاملة، وذلك قبل أن «نعيد إرسالها ثانية» إلى ذاكرتنا طويلة المدى. وهي تتضمن أحدث الاكتشافات حول عمل الذاكرة - وخصوصاً الفصل التشريحي ما بين ذاكرتنا الظرفية (أي الوقائع التي نتذكرها)، وذاكرتنا الدلالية الضمنية (أي الأفكار أو قواعد الحياة التي سبق لنا استخلاصها). وهي تنطلق بمثابة نقطة بداية من واقعة سبقت الإشارة إليها في هذا الكتاب: «إذا كنا عاجزين عن محو ذكرى من ذاكرتنا الظرفية، نستطيع بالمقابل محو أو إعادة تأويل قاعدة حياتية ضمنية في ذاكرتنا الدلالية، وتفكيك هذه «الحقيقة الانفعالية الموروثة من ماضينا والتي تعيقنا».

فالذكرى بحد ذاتها ليست إذاً هي العنصر الذي يعيقنا: وإنما النظرة إلى العالم، وإلى الحياة، أو إلى نفسنا ذاتها والتي بنيناها انطلاقاً من التجربة المعاشة هي ما يمنعنا من التقدم. إذ لا تصدر المشكلة مثلاً عن ذكرى حالات غضب صادرة عن والد متسلط، وإنما هي تصدر عن تلك القاعدة الحياتية التي استخلصناها من تلك التجربة: فنحن نريد دوماً أن نتصرف على النحو المناسب وأن نرضي الجميع كي لا يغضب أحدٌ منا أبداً، وبالتالي نحن نتهرب من المواجهة، وننقاد حين يثبت أحدٌ ما ذاته بقوة، ونبخس من ذاتنا عند أقل ملامة تُوجَّه إلينا.

يعرض كل من صوفي كوتيه وبيار كوزينو، وهما اختصاصيان في إعادة تعزيز الذاكرة في كل من فرنسا وكيبك الكندية، يعرضان

حالة مريضة تعاني من نوبات هلع، وشره وأرق مضن، وكذلك من تقدير متدنٍّ لذاتها، وكلها أعراض ميل مفرط إلى الكمال لا تعيها المريضة في ذاتها. ومع ذلك، تصيبها نوبات الهلع هذه (تنفس قصير وسريع، آلام في الصدر، تعرُّق مفرط. . .) دوماً عندما يتكون لديها الانطباع بأنها قد لا تكون قادرة على أداء عمل متقن، أو عندما يخيل إليها أنها لن تستطيع احترام الوقت المحدد لأدائه: فيشلها الخوف تماماً، وتعجز عن القيام بأي شيء. وكان يتعين على المريضة، خلال جلسات العلاج، أن تصف بدقة كاملة ما تحس به خلال نوبات القلق هذه، ويتعين عليها الاقتصار على القيام بوصف مفصل للأعراض الفسيولوجية لهذه الضغوط مفرطة الشدة مع السعي إلى الابتعاد عن أي تأويل لحالتها، وإنما يتعين عليها أن تقدم عرضاً دقيقاً ما أمكن عن أحاسيسها. وعندها تدعوها المعالجة إلى محاولة ربط هذه الأحاسيس بمشاهد أخرى من حياتها أدت إلى توليد ردود فعل مماثلة. وبذلك تتمكن المعالجة صوفي كوتيه من أن تجعل مريضتها تسافر في ماضيها. وهنا تعود إليها الذكريات ثانية: فحين كانت طفلة، كانت تتصبب عرقاً بنفس الطريقة، وتشعر بأن ضربات قلبها تتسارع جداً عندما كان أبوها، المتسلط بشدة، يصرخ عليها بعنف بسبب نيلها علامة متوسطة على أحد واجباتها المدرسية، أو إملاء فيها أخطاء، أو تسميع درس بشكل رديء. كانت هذه المواقف من حياتها الماضية مؤلمة، إنما ما كان يهم المعالجة صوفي كوتيه كان في مكان آخر: أي في قاعدة الحياة، التي ترسخت في ذاكرتها الدلالية والتي عادت المريضة فاستخلصتها أثناء العلاج.

وعلى خلاف المحللة النفسية التقليدية، كانت صوفي كوتيه تطلب من مريضتها أن تحدد قاعدة الحياة هذه، وتعبّر عنها وحتى أن تصفها كتيبةً. وكانت تتمثل قاعدة الحياة هذه في القول: «يتعيّن عليَّ أن أكون دوماً كاملة الإتقان، ولا مجال للعيب عَلَيَّ، وإلا فلن أتمكن من أن أكون موضع تقدير ولا موضع محبة». يستهدف علاج إعادة تعزيز الذاكرة إلى كسر العلاقة ما بين الظروف المعاشة وقاعدة الحياة المستخلصة منها. ولهذه الغاية، تضع المعالجة مريضتها في مواجهة تجارب متناقضة تبرز خطأ هذا المبدأ المقرر، وتكشف عن خطئه الأساسي أو، على الأقل، طابعه المبالغ فيه. في هذه الحالة، تعبّر المريضة عن تقدير صادق لرئيستها المرتبية، وترى فيها أنموذجاً للفاعلية، والسهولة، والكاريزما. وتصرح كيف أنها ورغم ارتكابها لخطأ ما خلال أحد عروضها، فإن أحداً لا يبدو أنه أشار إلى هذا الخطأ وحاسبها عليه، وكل الناس استمروا في الاستماع إليها بانتباه. وهي ملاحظة مرت عليها المريضة بسرعة. وعرضت عليها صوفي كوتيه مع ذلك أن تقارن ما بين هذا الحدث الخاص وقاعدة حياتها، وتقود المرأة الشابة إلى التحقق من التناقض ما بين الأهداف المتطرفة بإفراط والتي تفرضها على ذاتها، وبين واقعية الهفوات التي تبديها تلك الرئيسة التي تمدح جدارتها. ألم تبدُ رئيستها أكثر كاريزماتية بمقدار ما تقبلت خطأها بابتسامة؟ وعندها طلبت صوفي كوتيه من مريضتها أن تعود إلى ذلك المشهد من طفولتها الذي تم بيانه أعلاه - أي صراخ وتأنيب والدها لها على غلطة بسيطة على دفترها، لدرجة أنها خافت أن يصفعها - ثم أن تعاود من جديد قراءة

قاعدة الحياة التي سجلتها على ورقة. وتتمثل هذه القاعدة فيما يلي - «يتعين عليَّ أن أكون دوماً كاملة الإتقان، ولا مجال للعيب عليّ، وإلا فلن أتمكّن من أن أكون موضع تقدير ولا موضع محبة» - قد تنطبق هذه القاعدة على أبيها ربما، ولكن، وكما أثبتته تجربة التقارب مع الواقعة مع رئيستها، فإنها أبعد من أن تكون صالحة لكل الوضعيات. وليس هناك أي مبرر أن نجعل منها قاعدة عامة، ونتمسك بها بشكل أعمى. ذكرى الأب هذه التي أدخلتها في حالة تشويش، مولد للضيق دائماً سوف يعاد عندها تعزيزها: أي إعادة إرسالها إلى الذاكرة طويلة المدى ولكن منفصلة عن قاعدة حياتها شديدة التصلب في ذاكرتها الدلالية.

تتيح بعض الفنيات العلاجية الذهاب حتى أبعد من ذلك من خلال تعديل تلك القاعدة من الذاكرة الدلالية وحتى إزالتها نهائياً: وبالتالي فالظروف المؤلمة من ماضينا تتوقف عندها تماماً عن إعاقة حاضرنا.

لقد رأينا أن دماغنا مرن وذكرياتنا حية. فمعناها ليس محفوراً على رخام أعصابنا أو وصلاتنا العصبية. وهو ما يوفر وسائل الانطلاق لكل من يريد أن يتعايش بشكل أفضل مع ماضيه. فإمكانية العودة هذه إلى ذكرياتنا واستخلاص قاعدة حياة مختلفة منها، واستبدال واقعة انفعالية معوقة في دماغنا، وباختصار أن نعيش ماضينا بشكل مغاير، تشكل أحد تجليات مرونتنا الذهنية التي تستغلها طرائق إعادة تعزيز الذاكرة.

«إذ كل ما تم تعلمه يمكن إطفاؤه»، كما يختصر هذا الأمر عالم النفس الأميركي بروس إيكر، المرجع الأساس لهذه الطريقة العلاجية في أميركا. وسوف يخبرنا المستقبل فيما إذا كانت هذه الطرق العلاجية والتي تعطي نتائج أولية جد مشجعة، سوف تحافظ على نجاحاتها مستقبلاً، إلا أن هناك على كل حال شيئاً أكيداً: إنه بمقدورنا أن نعدل دماغنا، وبالتالي فليس هناك أي سبب للاستمرار في التمسك بحقيقة انفعالية تفسد علينا حياتنا. إذ إن تغيير النموذج هو جذري في هذا المقام: إذ لم نعد بصدد القبول بماضٍ يستحيل تغييره، ولكن نحن بصدد إمكانية تغيير الماضي كي نتعايش معه بشكل أفضل.

إعادة اختراع الرواقية(*) من قبل العلاجات الراهنة

أما الفنية الثانية لإعادة التعزيز التي سوف ندرسها هي فنية «التعود» على الذكرى السيئة، والتي تذكرنا بالحكمة القديمة خصوصاً: الرواقية. فلقد طور كل من سينيكا (Sénéque) وإبيكتيتوس (Epictète)، وكذلك مارك أوريل (Marc Aurèle) منذ ما يقرب من 2000 سنة خلت طريقة للوصول إلى حالة السكينة والعيش بسلام: وتتمثل في التأمل المنتظم حول ذكرياتنا الأكثر

(*) الرواقية (Le Stoïcisme): مذهب فلسفي يوناني أنشأه الفيلسوف زينون في أثينا في القرن الثالث قبل الميلاد. وتدور حول مبدأ الفضيلة والسلام والإخاء، وكبح النفس من الانقياد للذة والخوف من الألم، وذلك عبر تغليب التفكير العقلاني - المترجم.

إيلاماً بغية إبطال فعل العنف والشحنة العاطفية فيها. فهذا الانتباه المتكرر والمتفكر حول أحداث ماضينا يؤدي إلى التعود عليها والتعايش معها بشكل أفضل. لا تتدخل ممارسة فلسفية من هذا القبيل، كما جرى الحال في الحالة العلاجية الأولى، في المعنى الذي ربطناه مع الذكرى، وإنما تتدخل في الشحنة الانفعالية المرتبطة بها، وصولاً إلى إبطال تأثير هذه الشحنة. على أن مبدأ التدخل مشابه على كل حال حتى ليمكننا الذهاب إلى القول إن الرواقيين هم من اخترع طريقة «إعادة تعزيز الذاكرة»: أي الذهاب للبحث عن ذكرى معينة في ذاكرتنا طويلة المدى، وإعادة الشغل عليها في الذاكرة قصيرة المدى، وإعادة تعزيزها، بعد أن تم تغييرها، في الذاكرة طويلة المدى.

إذ يوصي سينيكا، في رسالة موجهة إلى بوليبوس إثر وفاة أخيه، أن لا يتجنب ألمه ولا ذكرى أخيه المتوفى. إذ غالباً ما تقودنا خسارة عزيز إلى الرغبة في الاحتفاظ بصورة إيجابية عنه في الذاكرة، صورة وجهه البشوش والسعيد، أكثر من ذكرى صورة الجثة، والملامح الغائرة التي تحمل معالم الألم أو المرض. ولكن ما العمل؟ نصيحة الرواقيين جد عملية على هذا الصعيد، مع أنها قد تبدو مضادة للحدس: إذ إنهم يقترحون علينا الاستدعاء المستمر للصورة الأكثر إيلاماً، أي صورة الجسد الميت للكائن المحبوب، أو صورة وجهه المتألم في لحظات حياته الأخيرة، وذلك بغية إبطال العنف الانفعالي المصاحب لها، وطابعها الذي يفوق

الاحتمال. وفي الواقع، فإن محاولة تجنب هذه الذكريات السيئة سوف يقودنا حتماً إلى المعاناة من أثر الارتداد الذي سبق لنا أن حللناه.

وبالتالي فالحكماء الرواقيون كانوا إذاً أول من فهم فضائل عدم التجنب، وحتى فضائل التعرض السلبي: علينا أن نتصدى لأشد ما يخيفنا ومواجهته وجهاً لوجه، كي نتعود على التعايش معه والانفصال عن الأثر الانفعالي السلبي الذي يمكن أن يحمله. إنهم يدعوننا، على سبيل المثال، إلى التفكير في الموت بقدر ما يمكننا ذلك، وموتنا القادم تحديداً، تماماً كموت الأحباب الذين أخذتهم الحياة منا، وصولاً إلى التآلف مع الموت، وتحويله إلى صاحب لنا، أو على الأقل صاحب قابل للاحتمال. وهكذا يكتب مونتين، مقتبساً من الحكمة الرواقية، في الفصل العشرين من الكتاب الأول من **مقالاته** أنه اعتاد على الاحتفاظ «بالموت على الدوام ليس فقط في الخيال، وإنما في الفم؛ ولا أستعلم إرادياً عن أي شيء آخر إلا عن موت الناس: ماذا كان كلامهم، وكيف كانت وجوههم، وأي هيئة كانت لهم».

يمكننا جميعاً ممارسة هذا التمرين الرواقي - المتمثل بالتعود على ما يرعبنا بغية السيطرة على خوفنا - في التعامل مع ذكرياتنا الصعبة أو المؤلمة. وحيث إنه لا جدوى من الهروب منها، فلماذا لا نتبع إذاً المذهب الرواقي ونضرب لهذه الذكريات مواعيد

منتظمة: ولندعوها إلى جلسات مواجهة متكررة مع وعينا. ذلك أن تأملاً من هذا القبيل حول ماضينا يمتلك قوة تغيير علاقتنا بهذا الماضي.

فالاكتشاف المسبب للّوعة لهذه الرسالة على شاشة هاتفنا المحمول والتي تثبت أنه خاننا أو أنها خانتنا، مما يؤكد مخاوفنا؛ والصورة شبه القاتلة لتلك القائمة من الناجحين في امتحان ما وحيث لا يظهر اسمنا فيها؛ وهذه المكالمة الهاتفية ذات الكلمات التي تجمد الدم في عروقنا والتي تعلن لنا ما لم يمكن لنا تصوره، أو موت قريب... ما زالت أصداء هذه الأحداث تتردد في نفوسنا... كل هذا حاضر، وحَيّ وكأنه حدث بالأمس، والانفعالات تخنقنا تماماً كما حدث في اليوم الأول تقريباً. يُعَلِّمُنَا الرواقيون أنه كي نعيش في سلام، يتعين علينا أن نتقبل ما لا يمكننا تغييره. لقد فهموا هذا العنصر الأساس كي نعيش مع ماضينا: وحيث إن ما مضى هو هناك وسيبقى، فيتعين علينا تعلم التعايش معه من خلال تغيير المشاعر التي ترتبط به، وبواسطة ممارسة تأملية إرادية.

يقسم سينيكا حياتنا إلى ثلاثة أطوار في عمله بعنوان **عن قصر الحياة**: يتمثل الطور الأول فيما نحن بصدد عيشه الآن، والذي يتصف بقصر مدته؛ ويتمثل الطور الثاني فيما سوف نعيشه، والذي يتصف بحالة عدم التأكد؛ ويتمثل الطور الثالث فيما سبق أن عشناه وهو في الآن عينه أكيد وغير قصير. فحياتنا الماضية تبعاً لسينيكا

هي «حياتنا الحقيقية»، والوحيدة التي تخصنا فعلاً. وتتوقف سعادتنا وحكمتنا على قدرتنا على النجاح في العيش بسلام مع جميع الأطوار. وأولئك العاجزون عن الالتفات إلى الوراء والنظر إلى الخلف سوف يجانبون، تبعاً له، الحياة المليئة. وحيث إنهم يعتقدون أنهم يعيشون في الحاضر، فهم لا يرون أن كل ثانية تمر هي تلحق بالأمس. ولا يقول بروست في الواقع شيئاً آخر عندما يكتب في عمله بعنوان **الزمن المستعاد**: «إن الحياة الحقة، أي الحياة التي تم اكتشافها أخيراً وجلاء معالمها، وبالتالي فالحياة الوحيدة التي تعاش بكامل مداها، هي الأدب تحديداً». فمن خلال الأدب، ومن خلال البحث الذي ينخرط فيه، يعود بروست إلى تاريخه بغية «تسليط الضوء عليه» ويدعونا جميعاً إلى تنمية ذكرياتنا، وعيشها من جديد بغية إعطائها كامل قوتها ومداها.

يطلب الرواقيون إلينا أن نتذكر الزمن الذي انقضى، وأن نقبل فعلاً ما قد كان. يكفي مسار الحياة أحياناً لتهدئة ذكرياتنا، وجعلها قابلة للاحتمال، ومألوفة؛ ولكن من خلال ممارسة التأمل يقترح الرواقيون علينا أن نعاود تولي شؤون وجودنا بنشاط، والتدخل في تاريخنا من خلال تعبئته والشغل الواعي عليه، تماماً وكأننا نستعيد فيلم الماضي ولكن من خلال تخفيض صوته في كل مرة.

يعزز العِلْمُ الحالي المذهب الرواقي، إذ من خلال تذكر إحدى الذكريات نحن نعرف الآن أن هناك جزئين من الدماغ ينشطان معاً:

الهيبوكامب والأميجدالا. وكلاهما متموضع في المنطقة الحوفية من الدماغ، ولكن ليس في نفس الموضع كما أن لهما وظائف مختلفة. فالهيبوكامب (قرن آمون) تحتفظ بالوقائع: إنها الذاكرة الظرفية، بينما الأميجدالا تحتفظ بالانفعالات المتعلقة بهذه الوقائع: إنها الذاكرة الانفعالية. ففي مرحلة أولى يكون الانفعال المرتبط بالذكرى قوياً جداً؛ إذ يتجسد الحدث المعاش بمزيد من القوة، وبالتالي تكون الذكرى أكثر نصوعاً، بمقدار ما يكون الانفعال أكثرة حدة. ولكن إذا عاودنا الرجوع إلى هذه الذكرى بشكل إرادي ومتكرر، سوف يكون بإمكاننا كسر علاقتها بالانفعال تدريجياً، ونعيد تعزيزها من خلال تثبت الواقعة في ذاكرتنا الظرفية، في حين أن التعود على التفكير فيها سوف يبدد الانفعال تدريجياً. وهكذا سوف نصبح قادرين، كما يدعونا إليها الرواقيون، على أن نتذكر أحداث متزايدة الوطأة من حياتنا بدون أن ترتعد فرائصنا. ونفهم بالمناسبة اللبس الذي غالباً ما قام حول الرواقيين: إنهم يدعوننا إلى أن نصبح رواقيين مثلهم، أي «أقوياء» ليس من خلال تجنب آلامنا وتجاهلها في نوع من اللامبالاة المتعالية، وإنما على العكس من خلال القبول بها، والاستمرار في استقبالها حتى الوصول إلى التعود عليها، وأن نفهم بالتالي أنها تكون جزءاً من طبيعة الأمور.

الشدائد التالية للصدمات(*)

ولكن يحدث أحياناً أن تطاردنا بعض الصور الصدمية بدون أن نتمكن من الحد من شحنتها الانفعالية. فإذا كنا من الناجين من محاولة اغتيال، أو أننا نجونا من تسونامي أو زلزال شديد، أو اكتشفنا جثة أحد الأقارب الذي انتحر، فإننا نتعرض لخطر أن لا نتمكن من استيعاب هذه الصدمات، حتى مع كل الإرادة الرواقية الممكنة، وحتى لو تفرغنا يومياً لتأمل هذه الذكريات الصدمية. ويبدو أن بعض طرق العلاج المكرَّسة للصراع ضد الشدة التالية للصدمة من قبيل طريقة علاج الصدمات (EMDR)(**) قد تم ابتكارها بروحية رواقية وترمي إلى الهدف ذاته في النهاية: أي أن نتوصل إلى العيش مع ذكرى أسوأ الأحداث. فخلال جلسة العلاج بهذه الطريقة، يطلب المعالج من المريض أن يعود إلى المشهد الصادم (من قبيل انهيار سقف المنزل خلال زلزال شديد، أو لحظة دخول المطبخ واكتشاف جثة والده. . .)، ووصفه، والتوقف عنده مع متابعة حركة قلم رصاص يحركه المعالج جيئة وذهاباً أمام

(*) الشدائد التالية للصدمات (Post-traumatic stress) أو اضطراب الشدائد التالية للصدمات (PTSD) هو نوع من الاضطراب النفسي الناتج عن التعرض لصدمات تفوق قدرة الشخص على تحمّلها والتعامل معها، من قبيل صدمات الزلازل الكبرى، والمعارك الحربية المرعبة - المترجم.

(**) EMDR: Eye Movenment Desensitization and Reprocessing
العلاج بإزالة الحساسية وإعادة الشغل على الصدمات من خلال حركة العينين الجانبية وضعت في الأصل من قبل فرانسين شابيرو في العام 1987 وذلك للتخفيف من الكرب المرتبط بالذكريات الصدمية - المترجم.

عينيه. وخلال بضع جلسات فقط من تطبيق هذه الطريقة، ينجح العديد من المرضى في تحمّل ذكريات كان من المتعذر احتمالها حتى حينه: إنهم لم ينسوا شيئاً من مشاهد ماضيهم هذه، ولكنهم توصلوا إلى العيش معها. فلقد كانت تشلهم قبل العلاج وتعاودهم بمثابة لمحات صاعقة؛ فتصبح الآن صوراً قابلة للاحتمال.

التعود من هذا القبيل هو ما يبحث عن الحصول عليه آلان برونيه الباحث في علم النفس في جامعة ماك جيل في مونتريال في كيبك - كندا، والذي طور طريقة علاجية مُجَدِّدَة مخصصة للمرضى الذين يعانون من الشدة التالية للصدمة. وإذا لم يفت عليها الزمن بعد للحكم على مدى مصداقيتها، إلا أنها قد استُخدمت بنجاح نسبي مع الناجين من مجزرة الباتاكلان في باريس، وفي نيس، وكذلك في خليج الكاراييب بعد عاصفة إيرما، وفي لبنان بعد انفجار المرفأ في بيروت ومع بعض المراهقين السوريين اللاجئين في المخيمات. يُطلَب من المريض الذي يتابع جلسات العلاج الست «لطريقة برونيه» أن يروي في كل مرة المأساة التي عاشها، خلال ساعة كاملة، بأكثر ما يمكن من التفاصيل، مع تناوله قبلاً حبة دواء «Propranolol» تؤثر على الأميجدالا وتعمل على الحد بقوة من الانفعال المرتبط بهذه الذكرى. وها نحن أولاء ثانية بإزاء عملية إعادة تعزيز: حيث تستعاد ذكرى الصدمة، وتعالج، ويعاد تعزيزها بحيث تصبح مترابطة مع انفعال مخفف، ثم تعاد من جديد إلى الذاكرة طويلة المدى. ثلثا الناجين من مجزرة باتاكلان أو نيس من الذين اتبعوا طريقة برونيه وجدوها فعالة، إذ أكد الجميع أنهم

لم ينسوا شيئاً من مشاهد المجزرة، والأجساد على الأرض، ولحظات الهلع والذهول. إنهم ما زالوا يتذكرونها دوماً، ولكن ما كان يشكل «أسوأ ذكرياتهم» لم يعد الآن مصطبغاً بالعنف غير القابل للاحتمال؛ فقد أصبح بإمكانهم الآن أن يتقدموا «مع» وليس «رغماً عن» الصدمة. وذلك ما يغير كل شيء. ذلك أن الشدة التالية للصدمة يمكنها أن تصاحَب بعارضٍ يتخيل للمرء معه أنه ليس هو ذاته: فقدان الشهية، تعذر النوم، غياب الرغبات بما فيها الرغبات الجنسية من بين رغبات أخرى، نوبات قلق في أماكن مغلقة أو عند أقل ضجة مشبوهة. . . صحيح أن الضحية قد أفلتت من الأذى، إلا أنها ترى نفسها سجينة حالة استنفار دائم، ويقظة مفرطة ومنهكة للقوى. إن علاجاً من هذا القبيل قادر على تحريرنا خلال ست جلسات فقط ومدفوعة من قبل الضمان الاجتماعي يحمل الكثير من الوعود. إذ لسنا مجبرين على العيش ونحن نحمل «عبء أسوأ ذكرياتنا»، كما يؤكده آلان برونيه: فبإمكاننا أن نتخفف منها، ونستعيد ذاتنا المضيعة ونستعيد كذلك مذاق الحاضر.

العمل على تدخّل شخص وهمي في ذكرياتنا: فنيات استبدال الوالدية

هناك طريقة ثالثة للتدخل في ماضينا: وتتمثل في الفنيات المسماة استبدال الوالدية وتُستخدَم فيما يسميه علماء النفس العلاج بالصمائم. إذ نحظى أحياناً بفرصة العيش في الحاضر بحالات سعادة مُرْضِيَة، من قبيل قصة حب جميلة أو صداقة تصحح بذاتها

جروحات طفولتنا. وترجع حالات الشفاء «الإعجازية» تلك إلى نوع من السفر في الماضي، حيث نعاود الاتصال مع الطفل الذي كنّاه، والمسمى أحياناً «الطفل الداخلي»، والذي يشعر بالعزاء والرضى. فالمُعاش الجديد، واللقاء المطيب للخاطر يفعلان بمثابة مرهم يعالج جروح الطفولة ويغير القناعة التي ترسخت فيها. فالطفل المنبوذ من قبل والديه يكتشف أنه يستطيع هو أيضاً أن يكون محبوباً لذاته وبدون شروط. والمراهق الذي طالما تعرض للخيانة وللتجريح من قبل صداقات زائفة يتبين له أن بإمكانه لقاء شخص صادق، وموثوق، يمكنه الاعتماد عليه. وهكذا يمكن أن تلتئم جروح الماضي وما يرافقها من شكوك بحيث تجعلنا نتقدم بثقة واطمئنان.

وإذا لم يحدث الشفاء بذاته وتلقائياً، فبإمكاننا أيضاً التوجه مباشرة إلى الطفل الذي سبق لنا أن كنّاه والذي يستمر فينا. ونعود عندها إلى إدراك سابق، وكأننا نبغي إصلاحه بشكل بعدي ونتحرر منه بالتالي. وما يقوله لنا علماء النفس حول وجود هذا «الطفل الداخلي» فينا يمكن أن يتضح من خلال فكرة برغسون حول التآني: فإذا كانت مختلف طبقات ماضينا تتعايش جميعها معاً في الحاضر، عندها سيكون طفلنا الداخلي حياً فينا راهناً. ومن خلال ما نوفره له من عناية وانتباه، سيكون بإمكاننا إعادة لعب أوراق ماضينا، وإعادة إطلاق لعبة وجودنا بمهارة أكبر ونقبل عندها ما كانت عليه طفولتنا بدون أن نجمد مستقبلنا في مصير لا شفاء منه.

يصبح هذا الحوار الخصب مع الطفل الداخلي حاسماً في فنية العلاج بالصمائم. تتمثل الطريقة، خلال الجلسة العلاجية مع المعالج، في تصور شخصية محبة وحانية، تدعى شخصية «استبدال الوالدية»، تتدخل في صميم الظرف المؤلم الذي تمت إعادة تذكره. يأتي الشخص الذي يتدخل في المشهد الماضي، والذي يقوم المعالج بوصف كلماته وحركاته خلال غوص المريض ثانية في انفعالات طفولته، يأتي كي يصحح سلوكاً والدياً سيئاً، ويحمل للمريض، أو بالأحرى للطفل الذي كانه، الاهتمام، والحماية، أو الطمأنة التي كانت تنقصه.

يقدم المعالج النفسي المعرفي جيفري يونغ، من ضمن العديد من الحالات الأخرى الهامة، حالة مريض يعاني من صميمة نبذ والدي. وهكذا تتشوش علاقاته الغرامية بحالة من الخوف المذعور من النبذ مما يدفعه إلى تبنّي سلوكات تعرّض علاقته للخطر: من قبيل الحذر، والغيرة، والنزعة التملكية... وحين لا تجيب حبيبته على اتصاله، سواء بسبب عدم انتباه أو انشغال بأمر آخر، يشعر رأساً بأنه متروك، وقد تعرّض للخيانة. ولا يتنبه هكذا أنه يعيد من جديد لعب جروحات طفولته العاطفية من خلال هذا السلوك المرضي. وما قاده إلى تطوير صميمة النبذ هذه تمثل في أمه المتباعدة عنه عاطفياً، وغالباً ما تكون غائبة عن المنزل، ومنهمكة كلياً بمهنتها في المحاماة، ومستغرقة في عملها، وهمومها أو مغامراتها العاطفية حتى عندما تتواجد في المنزل. يثير المعالج مشهداً ماضياً يتمثل فيما يلي (الأم تعود متأخرة

مساءً، وتنصرف لوقت طويل إلى قراءة بريدها، قبل أن تقبّل ابنها ذا السنوات الأربع والذي تأخر طويلاً عن النوم كي يراها)، ويُدخل على هذا المشهد شخصاً من الحاضر، وتحديداً حبيبته الحالية المسماة ستيلا (كما يمكن أن يكون هذا الشخصُ المعالِجَ نفسه، أو جدةً محبة وحانية، أو المريض نفسه وقد أصبح راشداً. . .) وعندها يعطي الكلام لحبيبته ستيلا التي تخاطب أم المريض قائلة: «يا سيدة، صحيح أن لديك هموم عملك، ويحدث أن تعودي من العمل إلى البيت متأخرة، إلا أن لديك صبياً صغيراً بعمر أربع سنوات انتظرك لساعات طوال كي يحظى بشيء من اهتمامك وحنانك قبل أن يذهب إلى النوم. من حقه أن تعانقيه وتأخذيه بين ذراعيك قبل مراجعة بريدك، إنه حقه الأولي والبديهي كطفل صغير. . .».

أثبتت فنية «استبدال الوالدية» هذه جدواها، وهي تقوم على اكتشاف أساس لطريقة عمل جهازنا العصبي: ذلك أن دماغنا الانفعالي لا يفرّق حقاً ما بين تجربة معاشة وتجربة أخرى متخيلة. وإذا كان المريض لا يخلط عقلانياً المشهدين معاً (إذ إنه واعٍ أن حبيبته ستيلا لم تسافر في الماضي كي تخاطب أمه)، في حين أن الدماغ الانفعالي ليس كذلك، فهو مغاير للدماغ العقلاني. فما سبق أن عاشه المريض قبل عدة عقود من السنين، وما حدث للتو خيالياً خلال جلسة العلاج، يختلطان فيما بينهما في المنطقة الحوفية من الدماغ. وذلك يشبه قليلاً عندما يسيل لعابنا عند التفكير في طبق شهي مفضل: فالطبق لا يحتاج أن يوجد أمامنا عملياً كي يبدأ لعابنا

بالسيلان. كذلك فإن المشهد المعاش خيالياً لا يحتاج أن يكون حقيقياً كي يعمل بمثابة مرهم لجروح طفولتنا في دماغنا الانفعالي. وبعد أن أدخل المعالج ستيلا في مشهد الماضي، طلب من مريضه أن يعاود رواية المشهد الأصلي، وبدون ستيلا هذه المرة، وأن يعيشه ثانية لكي يدعمه على أسس جديدة. وفي هذه الحالة أيضاً، لا يتقدم المريض من مجرد نسيان ماضيه، ولا من خلال التوصل إلى القبول به كما هو، وإنما من خلال السفر في ذكرياته، ومن خلال **التدخل** فيها، بتوجيه من معالجه في استكشافه هذا، ومصاحباً كذلك في هذه المغامرة بشخص «اسبدال الوالدية». ولقد تعين عليه، كي يتعلم العيش مع ماضيه، أن يعثر على ذلك الطفل الذي كانه فيحدب عليه ويرعاه.

*

تُعلِّمنا هذه الأمثلة الثلاثة من التدخل في الماضي الشيء ذاته في النهاية، وتحمل لنا الأمل ذاته: وهو أن ماضينا ليس سجناً أبدياً، ولا يسجننا في أي مصير محدد. إذ بدون أن نتنكر له، وبدون أن نخضع له كذلك، بإمكاننا إقامة صلة معه أكثر مرونة: بإمكاننا تحويل التمثلات، والمبادئ والأفكار التي ألصقها بنا وتخفيف وطأة الانفعالات المرتبطة بها، وعلاج الجروح التي سبّبها لنا.

وهنا تبقى إشارة برغسون الكبرى: إننا لا نستطيع التقدم إلا إذا كنا نحن ذاتنا كلياً، وإلا إذا حملنا ماضينا معنا في حركة

الحياة. ونحن نتمكن من تحقيق ذلك بشكل أفضل بمقدار ما نكون قادرين على التحرر من المعوقات التي فرضت علينا خلال مجرى تاريخنا وما مررنا به من امتحانات حياتية، سواء تعلق الأمر بقاعدة حياة معيقة لتقدمنا، أو تعلق بذكرى يتعذر تحمّلها، أو بجرح نفسي طفلي بالغ الأثر. يتخذ التلخيص الإبداعي الذي قال به برغسون هنا معنى أكبر مدى، يتضمن تدخلات نشطة في صلب ماضينا ذاته. ومن خلال سفرنا هذا في تاريخنا، نكون أكثر من أي وقت مضى أطفاله، ونصبح في الآن عينه أكثر قليلاً مؤلِّفيه: ونتعلم بذلك كيف نجد الطريقة الأفضل لرواية هذا التاريخ لأنفسنا. وهكذا يصبح مشروع برغسون المنادي بأن نعاود الإمساك بماضينا بغية بناء مستقبلنا ذات راهنية غير مسبوقة.

برغسون، وفرويد، وبروست، محامو ما هو غير قابل للنسيان

يكتب الفيلسوف بول ريكور قائلاً: «برغسون وفرويد هما المحاميان الكبيران لما هو غير قابل للنسيان». ونرغب من جانبنا بإضافة اسم بروست أيضاً. هؤلاء الثلاثة معاصرون بعضهم لبعض. فأفكارهم وأعمالهم تندرج ضمن فترة خاصة من تاريخ الأفكار، وحتى التاريخ ذاته: حيث تحتل الذاكرة، وسؤال علاقتنا بالزمن فجأة صدارة المشهد. ففي اللحظة ذاتها، من بداية القرن العشرين، يطور كل من الفيلسوف والطبيب والكاتب، أفكاراً متماثلة وإنما باستخدام كلمات مختلفة، وكل تبعاً لنبوغه الخاص: «غير القابل

للنسيان» لا يعني بحال الجامد. فعصور ماضينا، والظروف التي عبرناها، وما تركته من آثار تظل حية فينا. وفي دينامية تاريخنا هذه، تتواجد مختلف اللحظات وللغرابة بشكل متآنٍ. وهكذا فبمقدورنا التدخل في ماضينا.

أوجه الشبه في هذه النقطة ما بين كتابات كل من برغسون وفرويد تثير فينا العجب، مع أنهما لم يلتقيا أبداً. إذ يكتب فرويد في عمله بعنوان **ما وراء علم النفس** أن «اللاوعي لا يعرف الزمن»، ويذهب برغسون من جانبه إلى القول بأن «حياتنا الماضية حاضرة فينا، ومحفوظة في أدق تفاصيلها» في ذاكرتنا، وذلك بصرف النظر عن التسلسل الزمني. ويعني هذا، بالنسبة إلى فرويد على سبيل المثال، أن واقعة عشناها أطفالاً، قبل نصف قرن، يمكنها أن تحدث آثارها في حياتنا النفسية وكأنها حدثت بالأمس، وبالنسبة إلى برغسون فإن ما عشناه قبل مدة طويلة جداً من الزمن يمكن أن يتم استدعاؤه في فعلنا الحر تماماً كأي أحداث أكثر جدة بكثير. كذلك هو الحال بالنسبة إلى بروست فالبحث عن «الزمن المفقود» والعثور عليه ثانية، يعني أن نتمكن من تلمّس شيء فائق الحياة، وفائق الإحساس به، من ماضٍ جد قريب، أو حتى من الحاضر. فالتمدد على أريكة التحليل بالنسبة إلى فرويد، والإصغاء إلى نغم حياتنا الداخلية بالنسبة إلى برغسون، والتوقف عند إحساس ما واستقبال بقايا الذكريات التي يثيرها بالنسبة إلى بروست، في كل هذه الحالات الثلاث: نحن دوماً بصدد الانفتاح على تاريخنا

وسماع صداه، وبصدد شكل من التدخل في ماضينا ما يفتح السبيل لمتابعة تاريخنا.

التحليل النفسي الفرويدي، العودة المستفيضة إلى ماضينا

يطمح التحليل النفسي الفرويدي لأن يحقق دفعة واحدة أنماط التدخلات الثلاثة في ماضينا مما سبق أن طرحناه أي: أن نرى ماضينا بشكل مغاير كيما نتعايش معه بصيغة أفضل، والتعود على الذكريات السيئة كي نجعلها قابلة للتحمل، وعلاج جروح الطفولة. ويقترح فرويد العلاج بالكلام بمثابة طريقة لذلك: حيث ننطلق تلقائياً من تداعيات حرة للأفكار، بمعنى أن نقول على أريكة التحليل الأشياء كما تتداعى، وليس كما نريد لها أن تأتي، وبدون أن نحظر أي فكرة، وبدون أن نمنع أي فكرة. فأن نعود إلى ماضينا ونفكك خيوطه يستلزم أحياناً وقتاً يوفره لنا التحليل النفسي، على العكس من العلاجات المختصرة.

نضع اللوم على أبينا، ونكتشف أننا لم نكن منصفين. أو أن نمثلن والدينا، وننظر إليهما ببصيرة جديدة. وإذ كنا نعتقد أننا الابن البكر المثالي، الحامي والمعتني، فإذا بنا نعرف الآن أيضاً أننا حسودون، ومجروحون لمجيء أخ أصغر. هذا الوعي الشافي يهدئنا، ويخلصنا أحياناً. ويدفع بنا هذا الغوص الناجح في ماضينا نحو المستقبل. وحين يفتح لنا التحليل النفسي هذا الدرب، يتجلى بمثابة مدرسة مدهشة في الليونة، والمرونة الذهنية. وعند الكلام

عن الماضي على أريكة التحليل، فإننا نعيد إليه حركته، ونفتح لأنفسنا عندها مجالاً كي نعاود الانطلاق نحن ذاتنا.

إلا أن هذه الطريقة التحليلية النفسية تفتح سجالاً: إذ يرى البعض فيها أفضل سبيل للتعايش مع الماضي الذاتي، وطقساً مباركاً يوفر الفرصة لعودة حقيقية إلى الذات، بينما يراها آخرون اجتراراً لا طائل من ورائه وبالغ الكلفة ومخصصاً لبعض العصابيين الأثرياء. وفي قلب هذا السجال يُطرَح سؤال هذا الكتاب ذاته: كيف يمكن العودة إلى ماضينا بدون أن نسجن أنفسنا في اجترار الكلام؟

في كتابهما الشهير بعنوان **أوديب مضادّاً** يدّعي الفيلسوف جيل دولوز وفليكس غاتاري أنهما يفضحان خطأ فرويد: أي هوس اختزالي للماضي، ومفهوم عن الرغبة يُخْتَزَل فيما يسميه الكاتبان بنوع من التعالي «بابا ماما»، وطريقة تعيد دوماً حياتنا إلى الطفولة الأولى، وإلى عقدة أوديب على وجه الخصوص، متنكراً بذلك لخاصية الاختراع في الحياة. وفيما يتجاوز فرويد، فهما يهاجمان كل فلسفة تجعل من العودة إلى الماضي شرط القيام بالفعل وشرط حياة خلاقة.

فأن نرغب، بالنسبة إلى جيل دولوز وفليكس غاتاري، لا يعود إلى أن نحرك على الدوام عقدة أوديب الصادرة عن طفولتنا الأولى، وإنما يعود على العكس من ذلك إلى التعبير عن حيوية معينة، وعن قوة وجود متوجهة نحو الآخر، ونحو المجهول،

وكذلك نحو العالم الرحب، ونحو المستقبل، وليس نحو المشهد المحدود، والمكرر لذاته على الدوام، لماضينا أو لطفولتنا الأولى.

ومن جهة أخرى، نعرف اليوم أن المنطقة الحوفية من دماغنا، والتي تتضمن الأميجدالا على وجه الخصوص، وهي مقر الانفعالات، تتميز عن منطقة اللغة. ولهذا السبب ينتقد بعض المعالجين من قبيل جان-لويس مونستيس الاستعمال الفرويدي أو اللاكاني للكلام في التحليل النفسي: فمن خلال الرهان الكلي على الكلمات يتعرض التحليل النفسي لحرمان ذاته من الولوج إلى الدماغ الانفعالي. فعلاج من هذا القبيل بالكلام سوف يكون بذلك عاجزاً عن تصحيح الجروح النفسية للطفولة، وعاجزاً تحديداً عن تلطيف الانفعالات المؤلمة المسجلة من قبل الأميجدالا الخاصة بنا في دماغنا الحوفي. وفوق ذلك، فهذه العلاجات سوف تدفع إلى اجترار الكلام من خلال دعوة المريض إلى الكلام على الدوام عن ذكرياته المؤلمة، ولكن بدون أن تقترح عليه حلولاً ملموسة كي يتحرر من الانفعالات السلبية المرتبطة بها، والتي ستبقى عندها قابعة في عمق المنطقة الحوفية من الدماغ. أي شخص سبق له أن رأى أحد أقاربه يغرق في المصاب، بينما هو ظل يتمدد على أريكة التحليل لسنوات عديدة سيقتنع بنقد من هذا القبيل. قد تبدو هذه الأخيرة صائبة ربما فيما لو أن التحليل النفسي قد اقتصر على مجرد حوار فكري.

ولكننا بَيَّنا بما فيه الكفاية أننا لسنا أبداً بصدد إعادة لعب

المشهد ذاته، وذلك لأنه لا توجد ذكرى بدون إعادة بناء من ناحية، وبالتالي فليس هناك حدود واضحة ما بين الذاكرة والخيال، ومن ناحية أخرى يتعلق الأمر تحديداً ليس بلعب المشهد ذاته بشكل مطابق للأصل، وإنما التدخل فيه تحديداً، وإعادة تركيبه جزئياً.

وفوق ذلك كله، فكون ردود فعلنا وأنماط علاقاتنا مع الآخرين متأثرة بعمق بطفولتنا، فهذا لا يعني مطلقاً أن هذا المصدر الأصلي يحدد لنا مصيرنا، أو هو يختزل علاقتنا بالرغبة. وإذا كان هذا الأساس يشكل رغبتنا، ويلونها، فإن هذه لا تقتصر على ذلك وحده. نحن نأتي من أصل ما - لماذا ننكر ذلك؟ - ولكن هذا لا يمنعنا من الذهاب إلى آفاق أخرى.

نعم، يبقى ما علّمنا إياه فرويد في الأساس صحيحاً: إذ كنا في البدء ذلك الطفل الذي لا حول له ولا طول، وكامل الاعتماد، ولقد استُقْبِل عند خروجه إلى الدنيا من قِبل والدين لم يختارهما، وتأثر بالطبع بالطريقة التي استُقْبِل بها، كما تحددت رغبته من خلال نزعاته المتناقضة غالباً تجاه والديه أولاً ثم تجاه الآخرين. إلا أن ذلك لا يمنع من الرغبة في الانطلاق لغزو العالم الكبير.

فرويد هو من الرواد: إنه أول من قدم إطاراً نظرياً شاملاً للفكرة القائلة بأن: عالمنا الاجتماعي الأول - أي عائلتنا، وعلاقتنا بوالدينا، ومكانتنا بين الإخوة... - سوف يؤثر طوال حياتنا على علاقتنا بالآخرين وبالعالم. ومنذ شيوع أعماله، بتنا نعرف أن العيش مع ماضينا يتطلب منا أن نفهم كيف شكلت

سنوات حياتنا الأولى حياتنا الداخلية وحددتها؛ وهي «مادة» لاوعينا ذاتها. ويبدو العلاج التحليلي النفسي، في جلساته الطقوسية المتكررة، مثالياً كي نستوعب آثار الماضي، ونخرج من منطق التجنب والإنكار، ونقترب من رغبتنا الخاصة أو من نغم حياتنا الداخلية الذي تكلم عنه برغسون.

ولكن الاعتراف بعبقرية فرويد الريادية لايعني أن التحليل النفسي يتعين أن يجري حالياً كما كان يجري منذ قرن من الزمان، ولا حتى منذ خمسين سنة في زمن نظريات لاكان. إذ إن تأويل كل الأعراض النفسية على ضوء عقدة أوديب وحدها، وعلى ضوء الليبيدو كما كان يفعل فرويد، هو اختزال مفرط للنفس وأعراضها، وقد يؤدي إلى المأزق إذا ظللنا صماً وعمياناً تجاه بعض سبل استكشاف النفس البشرية. كما أن وضعية لاكان الصامتة التي لا تعبّر سوى بشكل جد موجز قبل إنهاء الجلسة بعد دقائق معدودة بحجة أن هذا الابتسار في كلام المحلل سوف يسمح للمريض أن يسمع أفضل ما لا يريد معرفته عن ذاته، لها حدودها التي يمكن أن تسبب إحباطاً معطلاً لفاعلية العلاج. ففي هذه الحالات، هناك خطر كبير فعلياً في أن ينغمس المريض في اجترار تكرار الكلام لسبب بسيط يتمثل في أنه لم يُقدَّم له أي مخرج لمأزقه. إذ من الصعب أن يتمكن المريض من التدخل في ماضيه بغية تعديله عندما لا يتنازل المحلل النفسي ذاته فيتدخل في الجلسة!

وهكذا فلقد تطور التحليل النفسي باتجاه حداثي وتمكن عدد

من المحللين من تطوير طريقتهم: فهم يتدخلون، ويقترحون، ويبدون دهشتهم، ويدونون ملاحظات، ويرجعون إلى كلام سابق بغية جعله يترك صداه، كما قد يحيلون الشخص قيد التحليل إلى حلم سبقت روايته في جلسة أخرى مبينين تشابهاته مع أحلام أخرى. . . هؤلاء المحللون النفسيون يأخذون بالاعتبار إنجازات العلوم العصبية، ويبدون انفتاحاً على ممارسات أخرى، سلوكية تحديداً، ويعرفون كيف يقدمون لمرضاهم، إضافة إلى الإصغاء التحليلي الذي يتيح للمرضى الاستماع بشكل أفضل من أي إنسان آخر إلى ما يقولون هم ذاتهم، كما يقدمون لهؤلاء المرضى الفرصة والوقت والمكان الذي يتيح لهم أن يجدوا ذاتهم، وأن يستوعبوا ماضيهم من خلال كلامهم، وبالتالي أن يستعيدوا الثقة بأنفسهم وبمستقبلهم.

يتيح «الكلام على أريكة التحليل» للشخص المُحَلَّل الاسترسال في كلام يتوقف عن كونه عقلانياً-منطقياً، ويتوقف عن التفكير كي ينخرط في أصداء حياته النفسية. أي أن المُحَلَّل يترك ذاته ينساق إلى شيء آخر غير الخطاب العقلاني ذاته؛ بل هو ينفتح على لغة جسده، وعلى انفعالاته، وعلى لاوعيه. إنه يتجلى في كلام لم يعد فكرياً. ولقد طور لاكان ذاته مفهوم «Lalangue» (كلام اللسان) كي يصف هذا الكلام على أريكة التحليل، والذي يفلت من ضبط العقل والوعي: فهو كلام مكون من كلمات وأصوات، وحالات تردد، وتكرارات، وترددات، وتمزق الخطاب، ولحظات صمت، وتمتمات. . . ومن خلال تعريفه للإنسان بمثابة «الكائن بالكلام»

(Parlêtre) يقول لنا لاكان أننا لا نستطيع الولوج إلى جوانيتنا، وإلى كينونتنا، إلا إذا تكلمنا، وإنما بكلام يتعامل مع لاوعينا أكثر بكثير من تعامله مع وعينا.

ومع ذلك، فإذا كانت منطقة الانفعالات مستقلة فعلاً عن منطقة اللغة، فلقد أصبحنا نعرف اليوم أن كل مناطق دماغنا تتواصل فيما بينها. وهكذا فبإمكان الكلمات أن تكون وسيلة تسمح بالولوج إلى الانفعالات الخفية عميقاً في الدماغ الحوفي. وهذا ما يحدث أحياناً مع كلمات جد بسيطة، خلال جلسات استبدال الوالدية التي سبق أن أشرنا إليها. ونمر بهذه التجربة غالباً، سواء على أريكة التحليل أم سواها، عندما نروي حدثاً ما فتدمع أعيننا ويسيطر علينا الانفعال. يعاود الماضي البروز، ومن خلال الدرب الذي ينفتح، يحدث تجاوز للصدود النفسية، ويفسح تطهير نفسي تحريري مكاناً للجديد، وللمستقبل. ونشعر فجأة بالقوة على استقبال ما كان من شجون، بدلاً من الهروب منها، وهو ما يشكل البادرة الأولى للتدخل في ماضينا. ونفهم في الآن عينه أنه، إذا تعذر علينا تغيير ما سبق أن كان، فإننا نستطيع أن نحول طريقة عيشه، طريقة كوننا أطفالاً وورثة ذلك الماضي. وهكذا نضع حجر الأساس الذي نرتكز عليه كي نصبح مؤسسين.

يرشدنا العلاج التحليلي النفسي إلى كيفية جديدة لقول الأشياء، وكما تتوارد على الذهن، بدون أي اهتمام بالتماسك ولا

بالرقابة الخلقية. إنه يعلمنا أن نفترق عن الخطاب العقلاني، بغية الاستبصار فجأة بماضينا برؤية جديدة. فن التباعد هذا هو أفضل ترياق لتجاوز رتابة التكرار. علماء النفس الذين يحللون ميدان الإبداع الفكري - ذلك نفسه الذي يتيح لنا إعادة استيعاب ماضينا وأن نكون صناع مستقبلنا - يعرفونه بمثابة نتيجة لحركة بندول ذهاباً وجيئة ما بين موقف مفارق مباعد وآخر مقارب. يتمثل الموقف المفارق في ترك أفكارنا تتطور بحرية، وتتيح لذاتها كل الترابطات والاستطرادات والخروج عن الموضوع، واستقبال ما يأتي وتركه يستدعي سواه. بينما الموقف المقارب، على العكس من ذلك، يفرض عدم ترك الأمور تفلت من موضوع تفكيرنا، وأن لا نستقبل الأفكار إلا بمقدار تلاقيها مع موضوع بحثنا، وتقيم معه علاقة مباشرة. ويتطلب الأمر تواتر أدوار الاثنين كيما نطور فكراً إبداعياً. والحالة هذه، فإذا كنا نتقرب بشكل طبيعي من موضوع تفكيرنا عندما ننكب على التفكير فيه، فسنشعر بمزيد من الصعوبة على ممارسة التفكير المفارق، وتبنّي وجهة نظر جديدة حول الموضوع، وفتح ذهننا لمنظورات مغايرة، وعلى القيام بتلك الخطوة الجانبية التي يمكنها أن تفتح لنا سبلاً جديدة. ومع ذلك فمن خلالها نحن نتعلم معرفة ذاتنا، ونتقرب من رغبتنا، ونكتسب قوة حياة وقدرة على التصرف غير مسبوقة. حتى أننا نتعلم أحياناً أن نضحك أو نبتسم من ذاتنا، ومن وساوسنا أو من أعصبتنا، مما لا يشكل أقل فضائل التحليل النفسي «الناجح».

هذه الابتسامة المستعادة، وهذه المرونة الجديدة، وهذه النظرة الأكثر رقة إلى الآخر أو إلى ذاتنا، هذا هو ما نبحث عنه في الأساس من خلال التدخل في ماضينا: إنها طريقة في التخفف من أعبائنا النفسية. أن تكون حياتنا كافية لتحقيق هذا الهدف، أو أن نكون بحاجة إلى علاج لمرافقة حركة الحياة هذه أو إعادة إطلاقها، فنحن جميعاً قادرون على إيجاد سبيل التخفف من هذه الأعباء، وإلى الانطلاق إلى الأمام من جديد.

الفصل الثامن

الانطلاق إلى الأمام مع ماضينا

خلافاً لكل اللاعبين الآخرين في الرياضات الجماعية، فإن لاعبي الروغبي ليس من حقهم أن يمرروا الكرة إلى الأمام. ففي خضم المباراة وتشابك الأكتاف، والكرة بين الأيدي، يلتفت اللاعب كي يمرر الكرة لزميله في الفريق، والذي بدوره يفعل الشيء ذاته، حيث يمرر الكرة بحركة مماثلة نحو الخلف مع انطلاق الجسم كله إلى الأمام. وهكذا يكسب أعضاء الفريق مسافة محاولين الاقتراب من خط الخصم، وتجنب صدود الفريق الخصم - وهكذا فهم يتقدمون من خلال الاستدارة إلى الخلف.

كل محاولة هذا الكتاب تقوم هنا، وكأنها مفصلة في هذه التمريرة إلى الخلف في لعبة الروغبي: أي طريقة في الاستدارة إلى الماضي كي نذهب قدماً إلى الأمام.

يمكن تفصيل هذه الحركة التي أضحت مألوفة لنا الآن في سلسلة من الأفعال.

أن نتذكر الأشياء الجميلة

مع أننا ننساها في أغلب الأحيان، إلا أن لدينا القدرة على إعطاء أشياء الماضي الجميلة الحياة من جديد، وأن نستدعيها بشكل خلاق: إذ إن ذكرياتنا السعيدة يتعين أن يعاد تعزيزها، هي بدورها! فأي خسارة في أن نتركها في حالة انتظار، مطمورة في أحشاء ذاكرتنا، وأن نخرج ذواتنا من ألقها، ومن الارتياح الذي يمكنها أن تحمله لنا، وما يمكن أن تغذيه فينا من رغبة في الحياة، هنا والآن. يمكننا أن نجد في **الاعترافات** التي وضعها القديس أوغسطين تلك الدعوة المثيرة للإلهام في استعادة حضور الماضي المذهلة: «وهكذا أصل إلى المروج، وإلى صروح الذاكرة الفسيحة، هناك حيث توجد كنوز صور لا تحصى...». وعلينا وحدنا أن نستخرج كنوز الماضي هذه كي نسعد بتأملها.

ومن خلال الصيغة القائلة «العيش مع ماضينا»، فإننا نحيل ذواتنا في الأعم الأغلب إلى ماضٍ مؤلم، أو إلى عبء كل ما ورثناه رغماً عنا. وإذا تعين أن نعيش مع هذه، عندها نكون بصدد صعوبة الشفاء من جروح طفولتنا، وذكريات خيباتنا، وندمنا، ومن الألم الذي ما زال يسببه كل ما حدث في تاريخنا مما كنا لا نتمناه. أو قد يتعلق الأمر عندها بموروثنا العائلي والاجتماعي، وكل تلك العادات وأساليب التفكير التي تلقيناها أثناء طفولتنا، أو من خلال تربيتنا.

إلا أن ماضينا حافل كذلك بأشياء جميلة، ولحظات سعادة، وتشارك، ولحظات امتلاء أو نشوة الاكتشاف، أو تأمل أو ابتهاج. وعندها يتخذ «العيش مع ماضينا» معنى مغايراً كلياً: إنها عبارة عن دعوة مليئة بالفرح في أن نستدعي كل تلك اللحظات وأن نعيد الصلة مع هذه الذكريات كي نتغذى في الحاضر من قوة وجمال ما كان.

أتذكر فتحة من ظلال أشجار غابة بوساي يمر من خلالها ضوء الشمس ما بين الأوراق راسماً أشكالاً جغرافية جميلة على الأسفلت، وكنت عندها في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، مع دراجة ذات ألوان جميلة، والقلب عامر بحرارة حرية جديدة. ولقد ولد هناك قسط من الرجل الذي أصبحته الآن، على تلك الدروب المضيئة بأشعة الشمس، ولم يولد فقط من أسرار جروحات الأنا التي عانيتها في لحظة ما من تاريخي. إننا أيضاً أبناء أوائل خفقاتنا الانفعالية الجمالية، وأبناء لقاءاتنا الأولى مع ذلك الجمال القادر على أن يأخذ بألبابنا، ويجعلنا حاضرين بكثافة للعالم في اللحظة عينها.

يكفي أحياناً أن نتوقف عند ذكرى سارة، وزيارتها من جديد والغوص فيها - من قبيل السباحة مع والدنا في البحر عندما كنا وحدنا معه أطفالاً بدون إخوتنا - كيما نشعر بالماضي يعود إلينا ويقدم لنا متعته، وحيوية متجددة من خلال الإحساس بمائه المنعش. ولكي نتذوق من جديد هذه المتع الماضية، يتعين أن لا نكون متوفرين لذلك فقط، وإنما أيضاً قادرين على إعادة فتح الباب لهذه الذكريات قبل أن تغمرنا.

وكما بيّنه لنا بروست يتعين أن نعطي الفرصة للذكرى كي تعود من جديد بكامل غناها، وليس مجرد تركها تعبر وتلامس سطح ذاكرتنا خِفْيَةً. فإذا كنا ننتقل فوراً إلى شيء آخر، أو نغرق من جديد في المشاغل اليومية، لن يكون لبقايا الذكريات هذه إمكانية بلسمة متاعب الحاضر. إذ إن مثال كعكة مادلين بروست المعروف جيداً غالباً ما يتعرض للتبخيس: فالأمر ليس مجرد ملعقة شاي أذابت قطعة من كعكة مادلين وأثارت عودة الماضي فجأة، وبفعل ساحر. بل تعين أن يتوقف الراوي عند ما لم يكن في البدء سوى إحساس طفيف، ويعطي نفسه الوقت الكافي كي يصغي إلى ما سيأتي، وينخرط في جهد تذكري، وعندها فقط يمكن لسعادة الأمس أن تصبح حاضرة من جديد.

فإذا تركنا هكذا ذكرى السباحة في البحر مع والدنا، مكرِّساً نفسه لنا وحدنا، تنتشر، فسنكون بصدد رائحة الزيت الواقي من الشمس، وبصدد حرارة الشمس على بشرتنا أولاً، ثم مذاق الملح وصيحات الإثارة عندما تحملنا الأمواج، ثم هذا الانطباع بأننا نطير عندما يمسكنا والدنا من يدينا ويدور بنا. ولكن إذا «أصررنا» قليلاً، على غرار راوي **البحث عن الزمن المفقود** ودخلنا فيما يمكن أن ندعوه تأمل الذكرى، وننتزع أنفسنا من ديمومة الحاضر ومشاغله، فسيكون بإمكاننا استرجاع ما لا يحصى من التفاصيل، والعديد من المذاقات والألوان الإضافية التي تأتي فتغذي الذاكرة: نصرخ «أسرع، أسرع» محمولين بنشوة السكر فننسى ألم الذراعين والرسغين، ثم يتركنا والدنا كي نطير حقاً، كي نسقط في الماء فجأة

ويتحول فرحنا في لحظة إلى رعشة خوف. ومن ثم نُخْرِج رأسنا من الماء ضاحكين، ومتنشقين الهواء بملء رئتينا. فلنغمض عينينا عندها كي نفتحها واسعة وبشكل أفضل على الماضي: وهنا نحن بصدد إحساس آخر، وهو إحساس الرمل الحارق الذي نستلقي عليه عند الخروج من البحر، وملمس المنشفة التي يلفنا بها والدنا، ويحك بها ظهرنا بقوة.

صحيح أن طفولتنا قد ولت، ولكن لا شيء يمكنه أبداً أن يجعل أن تلك اللحظة لم تكن موجودة. إنها هنا إلى الأبد: إننا نعيد الشعور بها في كل مرة نعاود الاتصال بها، ونتيح لها الفرصة كي تبين لنا كم أنها ما زالت حية. وأحياناً أخرى، ها نحن بصدد البوظة بالحامض التي تعاودنا على مقصف الشاطئ بكراسيه المرتفعة التي كنا نحب كثيراً أن ننهض كي نجلس عليها، وطعم هذا الحامض الذي يلسع مذاقنا. فكم كانت سعادة تلك اللحظات، وكم هو مفرح عيشها من جديد. فالذكرى السعيدة يمكنها أن تخفي العديد من مثيلاتها.

الذاكرة، أهي أكثر قوة من الحنين؟

تجعل ذاكرة من هذا القبيل، جد ملموسة، وجد حساسة، الماضي حاضراً بشدة بحيث يمكن أن يأتي أحياناً مصحوباً بالحنين. فالحنين، كما يكتب جانكلفيتش هو «حنين لما هو غير قابل للاستعادة»: فنحن لا نَحِنُّ إلا لما لم يعد قائماً. ولكن عندما يصبح

الماضي حاضراً لدرجة يصبح معها ملموساً، وعندما تصبح الذكرى حضوراً غير مسبوق وليس مجرد بقايا تاريخ، لا يعود هناك عملياً ما لا يمكن استعادته. فأن لا نترك للذاكرة سوى نافذة شبه مفتوحة لا تمر من خلالها سوى بمثابة وميض هارب، فإن ذلك يعني فتح الباب على مصراعيه للاكتئاب، ولخفقة جوانية للروح تذكرنا بألم أن تلك السعادة قد زالت حقاً وبكل معنى الكلمة، وأن طفولتنا قد ولت بغير رجعة، وأننا نعيش منذ الآن وصاعداً حياة راشدة مثقلة بالضغوط والمسؤوليات. قد نزين لأنفسنا عندها أن نطرد عودة تلك الذكرى تجنباً لمعاناة الألم، بينما يتعين على العكس أن نستقبلها كاملة كي نستمتع بها فعلاً. وكما يبينه بروست مع مثال كعكة المادلين أو مثال المنشفة التي تذكر الراوي كم عانى معها كي يجفف جسمه على شاطئ بالباك، فإنه بإمكاننا نحن كذلك أن نتوقف عند إدراك ما كي نفتح باب بقايا الذكريات على مصراعيه ونتركه يحدث آثاره، ونتذكر الماضي في كامل تعقيده وغناه. عندها تصبح طريقة بروست علاجاً شافياً للسعة الحنين. إذ إن إدراك صورة سعادة مضت ولو للحظة، يعني فعلاً أن نتأثر بها بشدة، في حالة من المفاجأة والاضطراب الذي يولده انطباع سعادة مفقودة. إلا أن معرفة الإحاطة بها وإتاحة الوقت الكافي للغوص فيها من جديد، سوف يؤدي إلى تذوق كل طعمها الطيب من جديد، وإعادة الاتصال مع حيويتها المدهشة. قد يقول جاك بريفير «أنا تعرفت على السعادة من خلال الضوضاء التي أحدثتها أثناء مغادرتها». بينما يدعونا بروست من ناحيته إلى الإنصات إلى الضوضاء التي تحدثها عند عودتها.

يتيح تذكر الأشياء الجميلة السفر عبر الزمن: فها هي ذي حاضرة من جديد، وحتى أحياناً تكون موجودة كما لم يسبق لها أن كانته، في صلب هذه الأحاسيس السارة المستعادة. ففي لحظة الذاكرة الحية هذه، والتي تتجلى بوضوح متزايد، وتصبح أكثر دقة بمقدار ما ننفتح عليها، عندها لا يعود شيء يبدو أنه يمتّ إلى الماضي. وعندها يعود جمال الأمس مزيناً بحلة جديدة، ونتركه يتغلغل فينا، فنتغذى من قوته، من خلال تأمله بعيني الذاكرة.

غالباً ما نعيش مقطوعي الصلة مع جزء من أنفسنا، ومن تلك اللحظات الرائعة التي سبق أن عشناها في الماضي ولكننا تخلينا عنها في أعماق ذاكرتنا بمثابة حالات جامدة ومجردة من الأهمية. ولا يعود انصرافنا عن هذه الذكريات الجميلة لمجرد الخشية من معاناة الحنين. وإنما نحن نتركها ببساطة تستقر في ذاكرتنا؛ متناسين أن نوقظها من جديد. وذلك من قبيل ليلة غرامية عشناها منذ زمن طويل مع ذلك الشخص الذي غادرنا بعدها منشغلاً بحياته الخاصة. ونعيش منذ سنين عديدة وكأنها لم تكن أبداً، حيث يغطيها النسيان من خلال تراكم ذكريات لا قيمة لها. وتعاودنا أحياناً صورة تلامس سطح وعينا، من قبيل حركة جسد تثيرنا، أو حركة شهوانية قبل أن تعاود الغياب كما أتت خلسة. ومع ذلك، فلقد كانت تلك الليلة من شهر مايو بمثابة حالة عابرة تشبه المعجزة: حيث يكتشف جسدان أحدهما الآخر ويرتعشان من الاندماج سوياً، كائنان بالكاد يعرفان بعضهما إنما ينجرفان في

الغرق في الخيال لمضاعفة لذاتهما. . . فأن نغمض العينين ونفتح النافذة على حرارة تلك الليلة، وأن نترك الأحاسيس تحملنا من جديد، ونترك التفاصيل تثير حواسنا، ونتوقف ملياً عند تلك الصور التي تنبجس، ونعرف كيف ننتظر كي توقظ صوراً أخرى، كل ذلك هو عبارة عن تجربة متاحة لنا جميعاً: إذ يكفي أن نعطيها الفرصة، وقليل من الوقت، والتوفر الذهني، والانتباه، وإذا بالماضي يعود بمثابة موجة بحر، وبدقة مذهلة بحيث يغمرنا فجأة بحضوره. وعندها سوف يتحول نهارنا. حتى أن كل حياتنا ذاتها يمكن أن تتخذ ألواناً جديدة عندما نعرف كيف نتدفأ هكذا بشعلة الماضي، وننحي الحنين إلى الماضي جانباً بواسطة قوة الذاكرة.

استرجاع صدى الماضي

يبين عالم الاجتماع الألماني هارتموت روزا في كتاب أساسي حول حداثتنا بعنوان **تسارع** الأخطار التي يعرّضنا لها التسارع المعمم لوتيرة حياتنا. إذ نحن مهددون في إنسانيتنا ذاتها من خلال الاستعجال الدائم، والضغوط الممارسة علينا غالباً: إذ نحن معرضون في أن لا نعود قادرين على الاستماع لأنفسنا، أو الدخول في علاقات فيما بيننا، وأن نعيش اللحظة الراهنة، أو حتى إعطاء مجال لذواتنا كي نتذكر أشياء الماضي الجميلة.

وتعيّن انتظار كتابه الآخر بعنوان **صدى** كي يقدم هارتموت روزا الجواب على المشكلة التي طرحها في كتاب **تسارع**. فإذا لم

نكن قادرين على الخروج من عصر التسارع هذا، والذي يحمل بدوره أوجه تقدم كبرى، وخصوصاً علمياً أو طبياً، إلا أنه بمقدورنا أن نمنح أنفسنا، في خضم هذه الحالة الزمنية الجديدة، فترات صدى، ولحظات توفر لنا إمكانية إعادة التواصل مع الآخرين أو مع أنفسنا؛ أي بإمكاننا أن نجعل حاضرنا كما ماضينا يتركان صداهما.

لا تتطلب منا هذه الملكة على التقاط صدى أنفسنا أن نتخلى عن الحياة المعاصرة كي ننفي ذواتنا في كوخ في أعماق إحدى الغابات أو في معبد هندي معزول عن البشر. وليس من الضروري أن نكرس الكثير من الوقت لذلك، وإنما يتعين علينا إعادة الصلة مع نوع من الحضور لذاتنا، وأن نتصالح مع قدرتنا على الانتباه. فإذا كان العالم يتغير وكنا نتطور معه، إلا أننا قادرون على تغيير أسلوب وجودنا في العالم ومع الآخرين من خلال توفير المزيد من الانسيابية، والمزيد من الاستجابية في قدرتنا على إبطاء وتيرة حياتنا كما على تسارعها.

ولا يتطلب إعطاء فرصة لهذا الصدى الكثير من الجهد في الحقيقة: إذ تكفي حركة من إصبعنا كي نضع هاتفنا الجوال في وضعية الصمت ونستفيد كلياً من هذا الحوار الغني والجميل بين الأصدقاء، وكذلك تأمل صورة سجلناها على هاتفنا المحمول والتي تدعونا إلى الغوص داخل ذاتنا، أو إلقاء نظرة متأنية على لوحة فنية في متحف، لحظة مختلسة نتركها تطول بعض الشيء بدون الالتفات إلى بقية زيارة المتحف فتلفت انتباهنا غيوم ذات

أشكال غريبة بين صفين من البنايات، والتي نسترسل في تأملها، مفلتين للحظة من تعجلنا في السير، فنتذكر فجأة «غيوماً رائعة» من قصيدة بودلير وأستاذ الأدب الذي جعلنا نكتشف روعتها. . .

أن نسترجع صدى الماضي قد يتمثل ببساطة باستعادة ذكريات الأشياء الجميلة من خلال الكلام، أو إعطاء الفرصة للالتقاء ما بين الأصدقاء، أو مع العائلة، أو مع قدامى الأحباء، كي نسترجع اللحظات التي عشناها معاً: من قبيل سنوات الدراسة الخالية من الهموم، أو تلك المغامرة المهنية الجميلة، أو عطلة نهاية الأسبوع في الريف. إننا غالباً ما نحرم أنفسنا من هذه المتعة، من خلال الانهماك في شؤون الحاضر، أو الانشغال بهموم المستقبل.

وأخيراً، يتعين كذلك أن نضرب موعداً مع ماضينا، ليس لكسر حدة عنفه، وإنما على العكس كي نستعيد عيش عذوبته، وتذوق أفضل ما كان فيه. تلك وسيلة لتقدير ما كان. إنها وسيلة للتمتع به على الطريقة الأبيقورية: ذلك ما كان يمكن أن لا يحدث، إلا أنه قد حدث، لحسن حظنا. فلنستمتع بكل ذلك ما أمكن، ولنقس مدى فرحنا لأننا عرفنا كيف ننتزع تلك السعادة رغم كل شيء، ولندرك ذلك كلياً.

هذه الحكمة الأبيقورية هي بدورها دواء لكل أسى مؤلم على الماضي. وحين يفكر من يأسى على ماضيه فإنه يقول عن السعادة الماضية بأنها لن تعود أبداً. أما الأبيقوري فهو يتمتع بمعجزة حدوث تلك السعادة.

وتتمثل وسيلة أخرى في استعادة الماضي السعيد في العودة الجسمية إلى مواقع تجاربنا السعيدة: إذ يكفي أحياناً مجرد المرور ثانية في أحد الشوارع الذي عشنا فيه لحظات سعيدة، أو أن نعاود المرور بالسيارة في طريق أحد مراكز إجازاتنا، كي نطلق عودة الذكريات التي سوف تظل قابعة في الظل لولا ذلك. فالذاكرة لها أماكنها: فلا نتردد في زيارتها ثانية كي نتنزه في ماضينا.

نحن نملك في الواقع في دماغنا خلايا موجودة في المنطقة الحوفية وتسمى «خلايا الأمكنة» تتيح لنا تذكر ما سبق أن عشناه من خلال ربط هذه الذكريات بأمكنة محددة. وهكذا فذاكرتنا الظرفية «متموضعة في المكان». وعندما ننام يشتغل عمل التذكر تبعاً لآلية مدهشة: إذ يقوم دماغنا بإعادة استعراض فيلم نهارنا والحالات التي عشناها تصبح مسجلة في ارتباط مع الأماكن التي عبرناها، وكأنه يتعين على دماغنا أن يحرك من جديد الدرب الذي اتبعناه لتسجيل ما عشناه. تُسَجَّل ذاكرتنا إذاً في المكان قبل تسجيلها في الزمان.

وهكذا نفهم بشكل أفضل لماذا كان الخطباء يتعلمون في قديم الزمان، كما يرويه لنا شيشرون في **فن الذاكرة**، نص خطابهم من خلال التجوال في المدينة والبرية المحيطة بها أو حتى في قصر فخم، ويقومون بالربط ما بين مراحل خطابهم وبين نقاط مرجعية من تجوالهم ذاك. وفي اليوم الموعود، ولكي يمسكون بخيط حججهم، كان يكفيهم أن يستعيدوا ذهنياً الدرب الذي سلكوه. هذه الطريقة، المسماة «طريقة الأمكنة» هي أول تقنية تذكر معروفة. كما

نفهم كذلك، ومن باب أولى، لماذا يكفينا أحياناً أن نعود إلى أماكن سعادتنا الماضية كي نستعيد الذكريات المرتبطة بهذه الأمكنة.

يكفي القليل جداً من الأشياء كي نستعيد الماضي، إلا أن هذا القليل يغير كل شيء. فمن خلال جعل أنفسنا متوفرين للماضي، فإننا نفلت من الإلزام المفارق لعصر يتطلب منا في الآن عينه أن نستمع لذاتنا وأن نستعجل. وهكذا قد ننجح في تكذيب بيت شعر اللورد بايرون والقائل: «ذكرى السعادة لا تظل سعادة، بينما ذكرى الألم تظل ألماً». ولكن ذلك ليس قدراً مفروضاً فيما لو تمكنا من خلال استدعاء ذكرى أليمة بانتظام، أن نستنزفها، ونتآلف معها، ونجعلها مألوفة. بينما ذكرى السعادة، فيحدث أن تظل سعادة، وحتى أكثر سعادة من ذلك: تصبح سعادة مضاعفة، أو سعادة تُسْمِع صداها. وهذا ما يتطلب منا بعضاً من الوعي، والصبر، والحضور، وكذلك قسطاً من فن تذكر الأشياء الجميلة الذي يمكن تعلمه على الأغلب مع مرور الوقت.

أن نصنع لذاتنا ذكريات جديدة

كان عمري خمساً وعشرين سنة وكنت على شاطئ في البرتغال. كنا نحتفل بوداع عزوبية أحد أفضل أصدقائي. وفيما نحن نسير نحو البحر ونبتعد قليلاً عن قلب الأمسية التي كانت في أوجها تحت السماء المرصعة بالنجوم، وأصوات الموسيقى تتباعد

مع ازدياد المسافة، أخذ أحد أعضاء الشلة بذراعي مهللاً: «هل تتنبه يا هذا لأهمية الذكريات التي نحن بصدد صنعها؟» شعرت بشيء من الحرج في البداية، إذ بدا الأمر حينها أنه نوع من تفكير المسنين. كيف أمكنه، ونحن في أوج الاحتفال، أن يفكر بهذه الطريقة، أي أن نفكر في المستقبل، وفي الذكريات «التي نصنعها» في اللحظة ذاتها التي نحن نعيشها للتو؟ ألا تكفيه اللحظة الراهنة إذاً؟ ولكنه كان على صواب. ذلك أن الوعي بأهمية هذا الاحتفال الذي سوف يشكله في ذاكرتنا سيسهم بزيادة مقدار السرور بالنسبة إليه. فربما كان يستمتع عندها بزخم أكبر، وبوعي أكثر انفتاحاً. لقد مر بصعوبات عائلية خطيرة، خرج منها لتوه. ولقد علّمته الأحداثُ حكمةً لا مجال لإنكارها في الحياة. ومن خلال حرصه لتكوين ذكريات جديدة، فهو يتزود بالقوة كي يتعايش بشكل أفضل مع ماضيه. إذ ترك الحياة وأفراحها تتغلغل إلى عالمه وتستقر فيه، وتساعده على النشوة والانطلاق، وأن تتوسع تبعاً لأقوال الطبيب والمعالج النفسي الإنجليزي روس هاريس، وتوازن ذكرياته المؤلمة. فالتوسع بالنسبة إلى روس هاريس يعني الانفتاح على أنشطة جديدة أو على علاقات تتيح لنا الشعور بانفعالات جديدة، وأن نُكَوِّن ذكريات جديدة بغية «التغلب» على ذكرياتنا السيئة، والتخفيف من وطأتها، والتوصل بذلك إلى تقبّل ماضينا. لسنا هنا بصدد منطق تجنبي، أو هروب من ذكرياتنا السيئة. فهذه ستظل حاضرة وستعاود الظهور طبيعياً. إلا أنها تتخذ حينها مكانها في قلب ذاكرة حية، متنامية بتجارب جديدة، واهتمامات جديدة،

وأفراح جديدة. تفقد الذكريات السيئة زخمها في قلب ذاكرة أكثر رحابة. ويتلازم قبول ماضينا جنباً إلى جنب مع هذا «التوسع».

وهكذا فتكوين ذكريات جديدة يشكل طريقة جيدة لدفع ذكرياتنا المؤلمة إلى الخلف. عَلَّمنا الرواقيون أن نتعايش مع ذكرياتنا السيئة، وعلى بذل الجهد للنظر إليها وجهاً لوجه، وعلَّمنا المعالجون النفسيون من أمثال جان-لويس مونستيس أن لا نتجنبها على وجه الخصوص. إلا أن هذه الطرائق تعطي ثمارها بشكل أفضل كلما أَصررنا على أن نعيش وأن ننطلق لملاقاة العالم والآخرين، وأن نراكم أقصى ما يمكن من التجارب السعيدة الجديدة. ولسنا هنا بصدد التوقف بحثاً عن استرجاع ذكريات السعادة الماضية، وإنما نحن بصدد الانفتاح على الحياة، بغية تخزين ما أمكن من ذكريات ألوان السعادة الجديدة.

إذا لم نستطع أن نمحو الذكريات المؤلمة، إلا أننا نستطيع عملياً التخفيف من وطأتها في ذاكرتنا الظرفية، وتغطيتها، وجعلها أقل عدوانية وأقل حضوراً من خلال المخاطرة بالإقدام على الفعل، والشعور بانفعالات جديدة، وباختصار، من خلال وضع ذكريات جديدة في مقدمة مشهد ذاكرتنا. وليس أفضل من تنمية اهتمامات راهنة وأنواع من الفضول، كي نتمكن من التعايش مع ماضٍ مؤلم.

وعندما نكون مكتئبين أو قلقين، فإننا نعاني تحديداً من الصعوبة المتمثلة في تخزين ذكريات جديدة. إذ عندما نكون مكتئبين فإننا نركز كل انتباهنا على الذكرى التي تجعلنا حزانى. وعندما نكون قلقين فإن التركيز ينصبّ على ما يسبب الخوف، والذي نخشى على الدوام عودته أو انبعاثه من جديد. وعندها لن يكون لدينا من مكان لذكريات جديدة. ولكسر هذا المنطق، والخروج من الحلقة المفرغة، فإن المعالجين السلوكيين يعطون لمرضاهم نصيحة بإمكاننا جميعاً اتباعها: أي أن نتبع، وبطريقة تدريجية، سلسلة من الأفعال التي تحمل السرور أو مناسبات إنجاز ذاتي، بدءاً بأشياء جد بسيطة (من قبيل الخروج من المنزل للتسوق شخصياً بدلاً من التسوق على الإنترنت، أو قبول دعوة على العشاء من قِبل صديق قديم. . .)، ومن ثم توسيع دائرة هذه الأفعال (من قبيل الذهاب لحضور محاضرة عامة، أو الالتحاق بناد رياضي. . .). ويتمثل الهدف هنا في: تكوين ذكريات جديدة تنافس القديمة وتأخذ جزءاً من حيزها الذي تشغله.

يشبه ذلك وكأن في ذهننا أغنية لا تطاق. فنحن لا نتمكن من التخلص من غنائها الرتيب ولا من لحنها الممل. ونحن لا نتخلص منها من خلال الجهد الإرادي لإخراجها من بالنا، وإنما من خلال سماع موسيقى أخرى، من خلال إفساح المجال لأغنيات أخرى تزيح تلك التي توتر أعصابنا، أو بالأحرى تحتل **مكانها**، وتغطي عليها جزئياً، وتحد من أهميتها في ذاكرتنا.

وهكذا نفهم بشكل أفضل الفخ الذي يطبق على المدمن

الكحولي المصاب بمتلازمة كورساكوف. إذ لكي يستبعد الذكريات التي يحاول الهروب منها في الكحول ويسكتها، يتعين عليه أن يتمكن من استبدالها بغيرها من الذكريات الجديدة، ويتقدم إلى الأمام، ويتزود بتجارب غير مسبوقة، إلا أن ذلك تحديداً هو ما تجعله جروحه الدماغية مستحيلاً عليه، إذ إن متلازمة كورساكوف تولد فقدان الذاكرة المسمى «نسيان الحاضر» أي «النسيان التدريجي»: حيث تمحى الذكريات الجديدة منذ اللحظة التي تعاش فيها، ولا يتبقى سوى الذكريات القديمة التي تحتل كامل الحيز الذهني، مجبرة المدمن الكحولي على العيش في ماضيه وحدِه.

يروي خورخي سيمبرون في عمله بعنوان **الكتابة أو الحياة** كيف أن لحظات المتعة الجسدية التي عاشها مع النساء، وبعد خروجه بقليل من معتقل بوخنفالد، ساعدته على التعايش مع ذكرى تجربة الموت في المعتقل. تكتسب شهادته المزيد من الأهمية إذ يقوم بوصف مشاهد حية خلال الشهور الأولى من عودته من المعتقل، في خضم مرحلة اضطر فيها إلى التوقف عن الكتابة حيث كانت رواية الاعتقال تجعله يعيش الموت عن قرب من جديد مما يهدده في الغرق في المأساة ثانية. نحن إذاً بصدد مرحلة «اختار» فيها خورخي سيمبرون، وكما يرويه هو ذاته في كتابه، أن يعيش من خلال استبعاد تجربة الاعتقال والترحيل إلى المعتقل، في حالة من «النسيان الإرادي» لإقامته في جحيم المعتقل. ولكن إذا كانت ذكريات سنوات معتقل بوخنفالد هذه تفوق الاحتمال

عندما يتفرغ للكتابة عنها ويرصدها، فإن خورخي سيمبرون وجد بعض السلام النفسي من خلال خلق ذكريات جديدة في أحضان النساء. وكأنه كان يحس أن مجرد عيش تجارب جديدة، والارتباط بالحياة من جديد من خلال لقاء أشخاص جدد، وممارسة الحب، تحمل له قوة متجددة، وقدرة على تحمّل الذكرى الأكثر فظاعة.

ويكتب قائلاً: «لم أكن أتمكن من إسكات نظرتي» كي يشرح كيف أن أولئك النسوة كن يرين غمره تلك الغرابة التي كانت تجذبهن إليه. إذ كنا يخمن في أعماق نظرة عينيه ذلك الموت الذي تمكن من الإفلات منه، وتلك النظرة المجنونة بعض الشيء، والتي تحمل مزيجاً من الرعب والسخرية والتي لاحظها بدوره مجند أميركي شاب عند تحريره من المعتقل. تلك هي ويا للمفارقة النظرة ذاتها التي تُحَبِّب الآخرين فيه: «ففي وسائل النقل المشترك، وفي الأمسيات، ومقاصف الشراب، كانت بعض النساء يتأثرن بها. كنت ألتفت بحشرية إلى وجه عابر، وإلى استدارة كتف أو خصر، أو ضحكة ذكية [. . .]، وسوف تعطيني هذه النظرة المجال لإدراك جمال النساء، ورقّتهن، وتوقد حيويتهن وشبابهن، وهي كلها ما جعل روحي قابلة لأن تحيا من جديد. على الأقل لبعض الوقت، وعلى دفعات متباينة». ففي تلك اللحظات، حيث يخيل إلينا أننا متخففين من الأثقال، ومتحررين لبعض الوقت من أعباء الذاكرة، فإن الماضي يكون أكثر حضوراً مما يمكن أن نعتقده: «وإذا كانت قد اختارتني، منذ الأمسية الأولى للقائنا، من

بين كل هؤلاء الشباب الذين يحومون حول نضارتها، وحول طلاقتها اللامبالية، وجسدها الجميل ونظرتها الصافية، وكاشفة بخفة عن كنوز رقة جاهزة للعلاقة، فذلك تحديداً، كما قالته لي لاحقاً، لأنها كانت تعرف من أين أتيت، ولأن نظرتي بدت لها، كما أقرت لي لاحقاً، حافلة بليل مظلم، وتطلُّبٍ جليديٍّ وممسوسٍ حتى». يعرف خورخي سيمبرون ماذا ترى في عينيه، وبالتالي لا يمكنه هو نفسه أن لا يفكر في ماضيه. ولكن تلك الذاكرة تصبح عندها محتمَلة من قبله، قبل أن يغفو وينام وتعاوده الكوابيس ثانية. وطالما أنه يعيش شيئاً محتدماً وجميلاً، في علاقته بالآخر، فإن الصدمة تصبح مدفوعة إلى مؤخرة وعيه: «لقد عالجتني أوديل من خلال حركات الحب الجسدي الحانية، وضحكاتها العفوية، وحيويتها التي لا ترتوي». لقد شفته أوديل من ذاكرة تفوق الاحتمال؛ إذ تُقدّم له حاضراً مليئاً، ولحظات قادرة أن تصبح ذكريات سعيدة.

أن نتعايش مع ماضينا هو أولاً أن نعيش، **ونعاود العيش**، واستقبال التجارب والحفاظ عليها معنا، والتسلح لاستقبال ما يلي، وذلك كما يكتبه خورخي سيمبرون في تلك الصفحات الرائعة من الشبقية والأمل: «تخزين ذكرى بعض ألوان محدودة من السعادة الصارخة».

هل نغفر؟

التوجه نحو الماضي لكي نفتح أبواب المستقبل، وأن نتيح للإمكانات أن تأتي إلينا، ذلك هو أيضاً جوهر الغفران.

وإذا فشلنا في الغفران لذاك أو لتلك من الذين سببوا لنا الأذى، فإن فخ الماضي سوف يطبق علينا: فالضغينة سوف تفسد علينا حياتنا، وتحول دون التمتع بمسرات الحاضر، هذا فيما إذا لم تسمم الرغبة في الانتقام حياتنا من الداخل. عندها سوف يظل الماضي حاضراً لا يفوت، وسوف يصطبغ كل حاضرنا بلون المرارة الكئيب. وعندها سوف نجر في أقدامنا أغلال الماضي: إذ حين يترسخ غضبنا، فإنه يتحول إلى حقد وغل ويهدد بأن يفسد علينا كامل وجودنا، وذلك تبعاً للآلية التي حللتها سنتيا فلوري في عملها بعنوان **هنا تكمن المرارة: الشفاء من الحقد**. إذ تبين لنا سنتيا فلوري جيداً أن الغضب، تماماً كالحزن، أو الحقد، ليست ثلاثتُها إشكالية بطبيعتها. إذ إنها غالباً تكون ضرورية ومشروعة. ولكن حين نغرق فيها لفترة طويلة من الزمن، ولا نجد الإمكانات للتحول إلى شيء آخر، فإننا نترك المجال حراً لأهوائنا الحزينة كي تفترسنا. ومن خلال رفضنا للغفران، أو إذا لم نتمكن من ذلك، فإننا نحافظ على جرحنا نازفاً فينا، ونُحَرِّم على أنفسنا متعة العيش، كما نقضي على قدرتنا على التوجه الكلي نحو المستقبل. بل قد نتعرض لخطر الغرق في الاكتئاب، من خلال استنزافنا من قبل الحقد الراسخ فينا.

قد لا يكون الآخر قد قدّم لنا حتى اعتذاره، وقد لا يكون يستحق الغفران أصلاً، ولكن لا يهم فنحن نستحق العيش بسلام، وبالتالي يتعين علينا أن نجد القوة للغفران. إذ يسمح لنا الغفران أن نحرر ذواتنا، حتى قبل تحرير الآخر. كما يتعين كذلك أن نجد القوة للعودة إلى الآخر كي نسامحه.

الغفران لا هو نسيان الماضي ولا محوه، وإنما هو تخفف من وزن الضغينة كي نتقدم بيسر أكبر نحو مستقبلنا. الغفران هو حركة ذات قوة كبيرة، منقذة بشكل مزدوج، إنه بمثابة هدية نقدمها إلى الآخر وإلى أنفسنا في الآن عينه، وإلى الحياة، والمستقبل.

تروي المغنية باربرا في مذكراتها التي صدرت بعد وفاتها أنها غفرت أخيراً لأبيها الذي اغتصبها طفلة. فخلال الحرب العالمية الثانية، وفيما كانا يعيشان مختبئين للإفلات من قبضة النازيين، قام بالاعتداء عليها. وكان عمرها عشر سنوات في المرة الأولى. وبعد انتهاء الحرب اختفى أبوها في الطبيعة، وعاش حياة تائهة وتصورت أن حياته هذه قد تدمرت بفعل مشاعر الذنب المدمرة؛ ولم تره ثانية أبداً. ولقد كتبت في مذكراتها تقول «إن أكبر دواعي يأسي تمثل في أنني لم أتمكن من القول لهذا الأب الذي لطالما كرهته كثيراً: أنا أغفر لك، تستطيع الآن أن ترقد بسلام. لقد تجاوزت ذلك، طالما أنا الآن أغني». نعم تحررت باربرا، وتغني بغفران. وفي إحدى أغنياتها بعنوان **نانت**، تروي كيف ذهبت إلى أبيها على فراش الموت ووهبت هذا الغفران إلى هذا الذي يبقى أباها، رغم كل شيء. صدرت أغنية **نانت** في العام 1964، أي بعد أكثر من

عشرين سنة من وقوع الأحداث. «أنا أود أن يرقد بسلام» غنت باربرا في **نانت**. وهذا السلام، تماماً كفعل «يرقد» يعبّر عن هذا الأمل بماضٍ يكلله السلام. إلا أنها وصلت جد متأخرة «إلى الرقم 25 من شارع لاغرانج أولو»: «فلقد مات في ذات الليلة، بدون كلمة وداع، وبدون كلمة «أنا أحبك». ويمكننا تصور خيبة أملها، ولذلك فلقد أوصلت رسالتها بالكلمات والموسيقى، في بادرة علاجية ذات أبعاد كونية. وفي صميم هذه الأغنية المؤثرة، نستطيع تخمين درب الحياة التي عبرتها كي تتمكن من الوصول إلى هذا السخاء. إنها درب حياة غنية بقصص حب غرامية، وصداقات أبدية - وخصوصاً مع جاك بريل المؤلف والملحن والمغني الشهير -، حيث كانت لهما لقاءات جميلة، وهوىً لخشبة مسرح الغناء، ونجاحات، ومحبة لا حدود لها من قبل الجمهور. فهل كان بإمكان باربرا، بدون هذا كله أن تجد القوة لتمنح الغفران لأبيها؟ وإذا كان الغفران، هو في النهاية، قراراً، فمن المحتمل أنه يتطلب قبلاً أن تكون الحياة قد حملت لنا قسطها من الإرضاءات والمواساة. في هذه الحالة، ليس لأننا تمكنا من العيش مع ماضينا ونغفر، نستطيع أن نعاود العيش ونطلق حركتنا نحو المستقبل. وإنما على العكس من ذلك تماماً، فلأننا استأنفنا الحياة وبدأنا نصنع ذكريات جديدة، يمكننا أن نجد القوة لقبول ماضينا، ويمكن لقلبنا أن ينفتح أخيراً من جديد على ما كان يبدو له مستحيلاً قبل ذلك.

فشعورنا بالخلاص يتضاعف عندها بنوع من الاعتزاز: لقد نجحنا؛ فإذاً يمكننا الغفران. ولقد أخذ هذا وقتاً مديداً من باربرا، إذ إن فعل الغفران لا يتم ما بين ليلة وضحاها، بل هو يتوقف على عملية معقدة غالباً. إذ يتعين علينا أن نقبل أن يكون الآخر ضعيفاً ومعرضاً للخطأ إلى هذا الحد، وأن نقر له بظروف مخففة في النهاية، ومن ثم أن نترك الزمن يفعل فعله، والحياة تغمرنا برعايتها.

هذه الفكرة التي تعبر كل تفكيرنا، من قبيل عودة إلى الماضي قادرة على إعادة إطلاق المستقبل، نجدها في فعل الغفران في حالته الخالصة. فهذا الذي يبدي القدرة على الغفران ينظر إلى الماضي، ويتحقق من الأذى الذي حصل، ويتصالح معه، ومن ثم، وبفضل تلك العودة يعود فينهض أقوى مما سبق كي ينطلق إلى الأمام.

والغفران هو أساسي وأولوي إلى هذا الحد، بحيث يتحقق أحياناً بحركة الحياة ذاتها، وبالزمن الذي يحمل لنا أفراحه وإرضاءاته، ويترك نار الأمس تنطفئ، كما يهدئ من الأهواء الحزينة، أو هو ببساطة يقودنا كي «ننتقل إلى شيء آخر».

تقدم حنة أرندت في كتابها بعنوان **وضع الإنسان المعاصر** الفكرة القائلة بأن الغفران، إذا كان له أصل ديني، ومسيحي على وجه الخصوص، هو في الواقع واقعة إنسانية كونية، وهو ليس

ممكناً فقط، بل هو حتى جوهري. وبدونه سنظل أسرى الماضي، وعواقب أفعالنا سوف تصبح ثقيلة الوطأة جداً بحيث نصبح تقريباً محكومين بالعطالة. وهكذا ففي مواجهة لا رجوع فيها للزمن إلى الوراء، واللاعودة عن أعمالنا، يصبح الغفران وسيلتنا الوحيدة البديلة للإفلات من سجن الخطيئة. «فإذا نحن لم نحظ بالغفران، ونتخلص من عواقب ما أقدمنا عليه، فإن قدرتنا على الفعل سوف تصبح وكأنها سجينة في فعل وحيد لا يمكننا أبداً النهوض منه؛ وسوف نظل إلى الأبد ضحايا عواقبه، وذلك على غرار الساحر المبتدئ الذي لا يمكنه كسر هذا السحر، نظراً لعدم امتلاكه الحيلة السحرية»، ذلك ما كتبته أرندت.

نحن كلنا سوف نرتكب أخطاء يوماً ما، والتسبب بالأذى لأحدهم، سواء عن عمد أم عفوياً. ويمكن للشعور بالذنب الناتج عن ذلك الأذى أن يسحقنا، مسجلاً فينا الملامة التي لا تمحى على خطئنا أو ما سببناه من أذى. وإذا كان لا شيء يمحى، ولا شيء يُنسى، فكيف السبيل للإفلات من ذلك عندها؟ كيف السبيل لأن نعمل بشكل لا تكون فيه مجمل خياراتنا وأفعالنا القادمة محكومة بهذه اللحظة من الضعف الإنساني؟ وكيف السبيل إلى الفعل من جديد إذا كانت عواقب كل من أفعالنا ظلت وكأنها منقوشة على الرخام؟

أدركت حنة أرندت قوة الغفران التي لا حدود لها: فهو يعتقنا كي يتيح لنا أن نتقدم. ومن خلاله، يمكننا العودة إلى الماضي وتصحيحه. فما كان سوف يبقى، إلا أن الغفران يمحو ويتيح

التحرر من مشاعر الذنب بالنسبة إلى المعتدي، ومن الأذى بالنسبة إلى المعتدى عليه: فلن نكون مدانين واحدنا أو الآخر. يجعلنا الغفران نقلب الصفحة ونفتح فصلاً جديداً. فالغفران هو شرط الفعل الحر.

المقدار الجيد من النسيان

كما أن نيتشه أَحَسَّ هو بدوره تماماً بالضرورة الحيوية للقدرة على محو الأخطاء، والتصدي لعدم إمكانية تغيير ما قد حدث. إلا أن الغفران كان بالنسبة إليه مفهوماً مفرطاً في مسيحيته ولا يلائم هواه؛ فلم يكن يعجبه البتة. إذ إنه يخفي في رأيه عجزاً عن التحرر الكامل من الغلطة التي حلت بالمرء، وانعدام القدرة على النسيان. فبالنسبة إليه، فمن بين ألوان الفرح التي تَعِدُنا بها الحياة هناك النسيان، كما ذكره في عمله بعنوان **هكذا تكلم زرادشت**. وكما ورد في كتابته فالنسيان ليس بحال من الأحوال نوعاً من الكبت، ولا هو حتى إنكار أو تجنب مما سبق لنا أن بيّنا أخطارهما. كما أنه ليس احتجاباً أو تعامياً. إنه بالأحرى توكيد إيجابي، ونشر للقوى الذاتية فيما يتجاوز الجروح، وهو تقبُّل في حالة من الفرح المستعاد. إنه يمت بصلة القرابة، فيما لو كان موزوناً جيداً، إلى حاجة حيوية: إذ هناك ضرورة لمقدار من النسيان كي نستمر في العيش. فالنسيان هو السماح لأنفسنا أن نستمتع بالمسرات بدون الحاجة إلى قياسها بمقياس ألوان السعادة الماضية، وأن ندهش تكراراً ودوماً من عودة الشيء ذاته، مختلفاً كل مرة عما سبق، وأن

تكون لدينا الجرأة على إنتاج أفكار جديدة، أي باختصار أن نكون أحراراً. يسمح لنا النسيان على سبيل المثال أن نؤمن بالحب بعد العديد من الخيبات، وأن نطلق تحديات أكبر على الدوام رغم الصعوبات التي صادفناها على درب مسارنا، وباختصار أن ننطلق إلى الأمام بدون الاهتمام بحالات الفشل الماضية. هذا المقدار من النسيان ضروري للتخلص من الأثقال واستعادة شيء من براءة الطفل وخفته. فالنسيان هو في أساس الفعل، كما يقر برغسون نفسه بذلك. تتمثل قوة فكرة نيتشه في الإحاطة الكاملة بعلاقتنا بالزمن وحتميته التي لا عودة فيها. فحيث يقدم لنا الغفران سلاحاً مدهشاً في مواجهة الحيف الذي حل بنا أو الذي تسببنا به لسوانا، فإن النسيان يقدم لنا عفوياً القدرة على التجديد الأبدي في مواجهة كل تجارب الحياة. وتقود فكرة النسيان هذه نيتشه إلى تطوير مقاربة للغفران تتعارض تماماً مع المقاربة المسيحية.

«اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين»، ذلك ما يرد في «يا أبانا». فإذا كنا نستطيع الغفران، بالنسبة إلى المسيحيين فذلك لأن اللّه قد غفر لنا ولأننا نشارك نحن مخلوقاته في قوته الإلهية. ولأننا أبناء محبة اللّه، فإننا قادرون على هذا الحب الخارق، وفوق الإنساني: أي نقدم الغفران لمن أساء إلينا، أو جرحنا، والذي حاول حتى أن يدمرنا أحياناً. فأن نغفر له هو أن نجعل الشر فيه يبدي وجه الخير، وكأننا نغريه بذلك، أو نغويه به. وهذا يعني أيضاً أننا جميعاً خطّاؤون، وأنه يمكننا الخلاص جميعنا. «أنا لا أنسى، إلا أنني أغفر لك»، يقول المسيحيون

مبدئياً. ويرد عليهم نيتشه قائلاً إننا لا نغفر، وإنما ببساطة نحن ننسى، وهذا أمر جيد تماماً.

يدّعي فيلسوف الشك - الذي يبذل جهده لتدمير اعتقاداتنا المغلوطة وكشف خفايا فضائلنا المزعومة -، والذي يجب أن يقدم نفسه بمثابة عالم نفس الأعماق، يدعي فضح كل أولئك الذين يؤكدون أنهم يغفرون ولكن لا ينسون: إنهم يفضحون أنفسهم في الواقع، ويكشفون بهذا ذاته عجزهم عن التحرر من الماضي. يفضل نيتشه الثقة بملكة النسيان وبقدرتها. فبفضلها، وليس بفضل الغفران، نستطيع أن نتخلص من مشاعر الغيظ والحقد، ونحرر أنفسنا من سجن الماضي.

يحذرنا نيتشه في الجزء الثاني من عمله بعنوان **اعتبارات في غير أوانها** من مبالغة نوع معيّن من الذاكرة والتي يدعوها ذاكرة «التحف العتيقة». إذ بقدر ما يحافظ على آثار الماضي وأوانيه، وينفض عنها الغبار في متجره المكتظ، فإن رئتي بائع التحف القديمة تمتلئان بالغبار ويبدأ بالسعال أكثر فأكثر. ويكتب نيتشه قائلاً: «هناك درجة من الأرق، ومن الاجترار [. . .] تسيء إلى الكائن الحي وتنتهي بالقضاء عليه، سواء تعلق الأمر بإنسان فرد، أو بمجتمع، أو بحضارة». إذ لا يكتفي بائع التحف القديمة أن يتذكر أكثر مما يجب، وإنما، هو فوق ذلك، يتذكر بشكل سيّئ. فذاكرته ليست متوجهة بما يكفي نحو الفعل، ونحو الحاضر، ونحو الحياة. وهكذا فالنسيان هو إذاً في قلب حركة الحياة ذاتها؛ ومن خلال السماح لأنفسنا بأن لا نتذكر، فإننا نكون بعيدي الشبه ببائع

التحف القديمة هذا الذي يسخر منه نيتشه، فهذا البائع يغرق في تأمل آثار الماضي، بدلاً من أن يكون ذلك الفنان خلال عمله، فهو غني بالحضور الغامض للماضي الذي يلهمه إبداعاته الفنية ويوجه نظرته نحو المستقبل.

يدرك نيتشه هنا شيئاً جوهرياً: فملكة النسيان لدينا مرتبطة بنزوة الحياة. ففي الواقع، إن النسيان في جوهره لا يمت إلى قرارٍ واعٍ بقدر ما هو من فعل الحياة ذاتها. إذ كما سبق أن رأينا، فإن ذكرياتنا الأكثر حضوراً هي تلك المرتبطة بانفعالات شديدة، ضرورية للحفاظ على بقائنا ومفيدة بالنسبة إلى مستقبلنا. إذ لكي نتقدم في الوجود، ونكون متنبهين للحاضر، ومتوجهين نحو الغد، يتعين علينا إذاً أن ننسى أيضاً، ونخفف من أعباء ذاكرتنا. ويوضح برغسون ذاته، ومع توكيده أننا لا ننسى شيئاً، أن بعض الفترات من حياتنا تفلت منا، وأننا ندفع ببعض التفاصيل والمعلومات إلى مؤخرة وعينا كي نفسح المجال لذكريات أكثر فائدة. فالفعل غير ممكن إلا من خلال هذا الشرط. إلا أننا لا «ننسى» تماماً وكلياً، فالذكريات لا تختفي، ويمكنها أن تعاود الاستيقاظ، وترجع إلى الوعي بفضل العديد من فرص الإطلاق التي توفرها لنا الحياة. هذه الأحداث ذات الطابع الأكثر ظرفية لا تشغل ببساطة مقدمة خشبة المسرح وإنما تترك مكاناً لفيض الانطباعات الحاضرة. وهكذا فنحن لا نعيش في الماضي، وإنما نعيش معه فعلاً.

إذ تنسى المرأة آلام الوضع لأن ولادة طفلها تتبعها مباشرة طائفة كبيرة من الأحداث السعيدة، والمشحونة بالمشاعر، وذات الأولوية، والتي استرعت كل انتباهها؛ ويكبر طفلها ويحمل كل يوم نصيبه من الأسئلة، وأوجه القلق، والفرح. . . وكلها ذكريات أكثر أهمية. إننا ننسى بعض اللحظات من تاريخنا لأننا بصدد كتابته، وفي كل لحظة، ولأننا لسنا بحاجة من أجل ذلك أن نتذكر كل شيء.

في رواية رائعة بعنوان **فونيس أو الذاكرة** يعرض الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس قصة فونيس، وهو شاب وقع ضحية سقوط عن الحصان في عمر السابعة عشرة ويعاني من ثم من عجز غريب: فهو لم يعد يستطيع أن ينسى شيئاً. إذ تسبب بعض الحوادث فقداناً للذاكرة، أما فونيس فهو قد فَقَدَ النسيان. إنه يتذكر كل شيء، وكل تفصيل، وكل حدث، حتى الأكثر تفاهة أو ظرفية، وكذلك كل تاريخ، وكل كلمة سمعها مهما كانت اللغة التي تنتمي إليها، وكل تعبير على كل وجه حدث أن شاهده. . . وتخزن ذاكرته كل شيء بدقة تجعله مجتاحاً لما لا يعد ولا يحصى من الذكريات التي يتعذر تبويبها وترتيبها حسب الأولوية، ويتعذر حتى تأويلها. إذ إننا كي نفهم، لا بد عملياً من استخلاص ما هو أساسي من مجمل المعلومات والتوليف بين عناصر هذا الأساسي واختزاله إلى جوهره، وأن لا نحتفظ منه إلا بالمفيد - أي باختصار أن ننسى ما يثقل على فهمنا. أصبح فونيس أقل قدرة على الفعل، وبقي في

سريره بلا حراك، وفي الظل، ويعيش برفقة ذاكرته اللامتناهية وحدها. وهنا يتوضح عنوان الرواية: ففونيس **هو** الذاكرة، فهو لم يعد سوى ذاكرة محض، وهذه الأخيرة تصبح جنائزية، وتجتاحه حتى تؤدي به إلى الاختناق. ويموت في سن التاسعة عشرة من انسداد رئوي، إذ اختنق من الفيض غير المحدود للذكريات. وهكذا يذكّرنا بورخيس، في قمة فنه، أنه يتوجب علينا أن ننسى كي نتمكن من العيش.

أن نعيش حالات الحداد

يسهم الوقت الذي يمر في جعلنا ننسى ما يمكن أن يثقل علينا، إلا أنه يجعلنا نواجه كذلك وبشكل لا مفر منه فقدان أحبائنا، الذين لا نود مطلقاً أن ننساهم.

ولكن كيف يمكن تذكّر من غابوا بدون أن نقع في الاجترار المميت، وبدون أن نغرق في الألم والشجن؟ **كيف نتعايش مع موتانا؟** ذلك ما تطرحه الحاخامة والكاتبة دلفين هورفيلور في كتابها فائق الجمال.

ففي العبرية «تحمل المقبرة اسماً ملغزاً ومفارقاً»، كما تشرحه لنا. إذ تسمى «بيت الحياة» أو «بيت الأحياء». لا يتعلق الأمر هنا بمحاولة لنكران الموت أو طرده من خلال محوه، وإنما على العكس توجيه رسالة واضحة [...]. ولجعله يعرف أن حضوره الجلي في هذا المكان لا يشير مع ذلك إلى انتصاره، وللتأكيد أنه

حتى هنا ليس له الكلمة الأخيرة. يأخذ اليهود على محمل الجد آية من التوراة مصاغة على شكل أمر إلهي، في سفر التثنية: «قد جعلتُ قدّامك الحياة والموت. البركة واللعنة. فاختر الحياة!» وعندها، ولكي يثبتوا أنهم يطبقون التعاليم حرفياً، فإنهم يستدعون الحياة في كل الظروف».

ويوم الدفن على سبيل المثال، يتمثل دور الحاخام تحديداً في استرجاع ذاكرة الفقيد، فيروي قصته، ويعيد إحياءها بالكلام، ويقوم بذلك أحياناً بشيء من الفكاهة، كما لا تتردد عن فعله الحاخامة دلفين هورفيلور أمام تَجَمُّع المعزين المصدومين. وتكتب قائلة: «أن نعرف كيف نروي ما سبق قوله آلاف المرات، ولكن مع إعطاء من يسمع القصة للمرة الأولى مفاتيح غير مسبوقة كي يستوعب قصته الذاتية. تلك هي وظيفتي. أن أكون بجانب النساء والرجال الذين يحتاجون، في اللحظات الحاسمة من حياتهم، إلى سماع الروايات». فما يعرضه الحاخام (أو الإمام أو القسيس) يوم الدفن يتمثل في استدامة الذكرى الحية للفقيد، وإطالة الحوار معه، وتحويل موته إلى درس في الحياة لمن بقوا على قيد الحياة، وهي المحاولة التي ترسم الطريقة التي سيكون بإمكاننا، نحن بدورنا، أن نعيش مع موتانا.

يتوفر لرجل الكنيسة أو للراهبة نصوصاً مقدسة وطقوساً ينظمها بدقة وحرفية كي يحاول فتح هذا الممر ما بين الأحياء والأموات. تشرح دلفين هورفيلور بهذا أن «دور الراوي هو أن يبقى على الباب

كي يتأكد من بقائه مفتوحاً». أما نحن، فلنا ذكرياتنا، وذاكرتنا كي نحافظ على هذا العبور، وهذا التبادل. إذ إننا نمتلك هذه الملكة الرائعة في استعادة الماضي، وتذكّر اللحظات الجميلة مع المتوفى كي نجعلها حاضرة بشكل مذهل في قلب تأمل حقيقي للذكرى. إلا أنه بمقدورنا كذلك أن نستعيد ذكرى وقائع موضوعية ماضية أكثر تعقيداً، وغموضاً، وامتداداً في الزمن ممزوجة مع مشاعر متنوعة، من قبيل علاقة صعبة مع أحد أعضاء أسرتنا ممن توفوا. ومن خلال تَقَبَّلنا لكل غناها وتعددها وأحياناً حساسيتها، يمكن لهذه العلاقة الحميمة مع الآخر أن تقودنا إلى أن نتحقق إلى أي مدى جعلتنا نتقدم ونتطور، وكم أنها غذتنا من خلال أوجهها الأشد وطأة. وأننا نستطيع متابعة درب التقدم هذا بمثابة طريقة كاملة من العيش مع موتانا. وهكذا ففي حوزتنا، كي نتابع هذا الحوار وهذه العلاقة مع من فقدناهم، وكل ما كنّاه وأصبحناه معهم، هذا الجانب منا المرتبط بهم بشكل حميم: فأقاربنا الذين رحلوا عنا يعيشون فينا، وفي صميم كياننا.

هناك حاجة إلى بعض الوقت كي نقدر حقيقة أن الحداد عبارة عن تلك العملية الطويلة والتي نستعيد في نهايتها تلك الحياة التي تستمر فيما وراء الموت، حتى أننا نقتبس منها أحياناً قوة متجددة، في خضم الألم والحزن، كي نستمر في السير إلى الأمام. إلا أن الصدمة العاطفية هي التي تتحكم فينا أولاً، صدمة ما لا يمكن احتماله والذي يصطدم بواقع عنيف وشديد الوطأة. إذ يغمرنا شعور الفقدان الذي يسبب الدوار، تاركاً إيانا عاجزين عن التواصل مع

ذكرى الفقيد، وأن نحياها من جديد جوانياً. وهو ما يبدو لنا فوق الاحتمال.

لقد فقدت واحداً من أقرب الأصدقاء إليّ قبل وقت قصير من بداية عملي على هذا الكتاب. وانتابني في البداية الذهول، والإنكار، والغضب، وعدم القدرة على الاستيعاب. ولم أتمكن من تجاوز ذلك، إذ إن القبول بهذا الفقدان بدا لي مستحيلاً، وغير محتمل. وكنت أعود باستمرار إلى الظروف الدقيقة لموته، أي إلى انتحار صديقي فيليب. وشعرت حينها بالحاجة إلى استعادة فيلم لحظاته الأخيرة، بقدر الإمكان. وكان ذلك على الأغلب كي أعطي لنفسي الوهم بالسيطرة على هذا الفقدان. ولقد تَشَبَّثْتُ بما بدا لي أنها أواخر فترات حياته. . . في أي ساعة حدث ذلك على وجه التحديد؟ ومتى كانت آخر مرة كلّمته فيها؟ يدخل الموت في حياتنا بدون أن نفهم شيئاً من ذلك، إذ يبدو للوهلة الأولى غير معقول، مما يعني أننا لم نتمكن من تقبّله. ففي البداية كان الإنكار، ثم الغضب، ثم التفاوض، ويليه الاكتئاب، وأخيراً القبول، وكلها تشكل المراحل المتتالية لكل حداد تبعاً للطبيبة العقلية الأميركية إليزابيث كوبلر-روس، وسواء تعلق الأمر بفقدان صديق أو مثل أعلى أو حتى عملنا. تعرضت نظريتها للانتقاد لأنها ذات طابع منتظم ومتسلسل، ولقد أخذ على إليزابيث كوبلر-روس أنها لم تترك ما يكفي من المدى لفرادة كل قصة فقدان، وأنها لم تر إلى أي مدى يمكن لمختلف الانفعالات المرتبطة بمراحل الحداد هذه أن

تجتمع معاً. ولكن كان لها على الأقل الفضل في تبيان أن الدرب طويل حتى الوصول إلى القبول، وأنه يبدأ دوماً بطرفه المضاد أي: الإنكار.

كنت معتاداً على مناداة فيليب كل يوم إثنين، في طريقي إلى تقديم المحاضرة التي أعطيها في نهاية بعد ظهيرة ذلك اليوم في إحدى قاعات السينما الباريسية. ونادراً ما كنا نتخلف عن هذا الاتصال الذي كان يسلينا نحن الاثنين. كنت أقدم له الموضوع الذي سأتناوله في محاضرتي وأتلقى انطباعاته وأفكاره. وكنت دائماً أدهش لأفكاره، وطريقته في النظر إلى الأشياء، والتي تختلف كثيراً عن أفكاري. كنت أتذوق بشغف صمته عندما يستمع إلى عنوان موضوعي، وطريقته المميزة في أخذ نَفَس طويل من سيجارته، والذي كنت أخمن اتقاد اشتعالها أكثر مما أسمعه، وكذلك ضحكته المجلجلة القلقة والتي سرعان ما تسترخي بشكل فجائي، وحين دخولي إلى قاعة السينما، كنت لا أزال أفكر في ما قاله لي فيليب.

بعد وفاته مباشرة، وعلى درب محاضرتي ليوم الإثنين، تفاجأت عدة مرات بأني أخرج هاتفي الذكي كي أطلبه. كل من هم في حالة حداد يعرفون ذلك، أي ذلك الشكل البسيط، والطبيعي جداً الذي يتخذه إنكارنا للموت، وحالة جنون الحداد تلك: فعلى سبيل العادة، نأخذ هاتفنا كي نتصل بالمتوفى، ونرجع إلى دارنا

بعد العمل ونظن أننا سنجده، ونحضّر له فنجان قهوة إفطاره بطريقة آلية، أو نخاطبه عندما ندخل إلى غرفته. ونعود من ثم إلى الواقع. إنما ليس تماماً. إذ يبقى جزء منا على حافة الهذيان، ونقنع أنفسنا أننا نعم على صواب، إنه سيعود ما بين لحظة وأخرى. تكتب جوان ديديون ذلك بكثير من الدقة في عملها بعنوان **سنة التفكير السحري** حيث تروي قصة الحداد على زوجها، جون، الذي توفي فجأة إثر أزمة قلبية. «تتغير الحياة بسرعة. تتغير الحياة في اللحظة. نتحضر للعشاء، وإذا بالحياة كما نعرفها تتوقف فجأة». بعد أسابيع على موته، تقوم بتفريغ جزءٍ من خزانة ملابسه، للتخلص خصوصاً من أحذيته المربكة. «لقد تَوَقَفْتُ عند عتبة الغرفة. لم أتمكن من التخلص من بقية أحذيته. توقفت هناك لحظة، ثم فهمت لماذا: إنه قد يحتاج إليها، فيما لو رجع».

يكتب فرويد في عمله بعنوان **الحداد والكآبة** أن الحداد «يتضمن فروقات قاسية مقارنة بالسلوك الطبيعي تجاه الوجود». كل هذه الفروقات، وهذه اللحظات من «التفكير السحري» حيث نتصرف وكأن الميت سوف يعود، وكأنه ببساطة يبتاع خبزاً من المخبز، معروضة من قبل جوان ديديون في روايتها باقتضاب شبه عيادي يتعارض مع «تفكير سحري» من هذا القبيل ويسهم في الوقت عينه بقوة هذا الكتاب. سوف تستمر هذه المرحلة بالنسبة إليها لمدة سنة كاملة، «سنة التفكير السحري»، وهي عتبة يقدر الأطباء العقليون من مثل آلان سوترو أننا نقع بعدها في الحداد الممتد أو المرضي. هذه السنة الأولى بعد وفاة القريب العزيز هي

في الآن عينه سنة المرات الأولى بدونه: عيد الميلاد الأول بدونه، الاحتفاء بعيد ميلادنا الأول بدونه، العطلة الصيفية الأولى بدونه، وهكذا. . . وبعد انقضاء هذه السنة، تبدأ حلقة جديدة، حيث نكون قد عبرنا القسط الأكبر من الأحداث، فتهدأ آلام الحداد، وتصبح أقل تركيزاً وشدة. وخلال «سنة التفكير السحري» هذه، نعيش بالطبع «مع موتانا» حاضرين دائماً في البال، ولكن في حالة تذبذب ما بين الإنكار والغضب، أو الاكتئاب. هذه الصلة التي ما زالت تربطنا بالشخص العزيز تفقد حيويتها الاحتفالية إلى حد بعيد، كما تفقد العلاقة الحميمة التي تتغذى بالذكريات المشتركة، وتتحول إلى تحمّل المصاب بفقدان هذا العزيز وتفصلنا في الواقع عن الأساسي، أي عن حضور الآخر في عالمنا الذاتي. إننا نبدأ بالعيش مع الغياب ذاته، مع هذا النقص الذي يعذبنا، ومع ما لا يمكن استيعابه والذي يشغل كل تفكيرنا، وهكذا ربما نعيش مع الموت أكثر مما نعيش مع الفقيد، ذلك الموت الذي نرفضه، والذي يصدعنا، والذي نحاول التعامل معه. ويتعين علينا بعد أن نسير طويلاً على الدرب قبل أن نعيش مع موتانا.

زمن الحداد

ومع مرور الوقت، ومن المحتمل أن ذلك هو إحدى آليات عملية الحداد، تبدأ ذكرياتنا في التحرر من معاناة الفقدان، وتتباعد عن ظروف الوفاة، ومن ثم فإننا نعود إلى اللحظات التي تقاسمناها مع الفقيد، وصور الشخص الذي كان عليه، وكل ما كانت عليه

علاقتنا معه. فنبدأ عندها بالقبول، ونتمكن من الدخول في حوار ذي طبيعة أخرى معه. ومن خلال الخروج بالتدريج من الفكر السحري والإقرار بأنه لن يعود، وأنه لن يكون بجانبنا على مائدة الإفطار، وأنه لن يكون بحاجة إلى أحذيته بعد الآن، عندها سنتمكن من تقدير ما تركه في نفوسنا، وكيف تستمر ذكراه في حياتنا الخاصة، وكيف يمكن لعلاقتنا أن تستمر حتى بعد موته.

وإذا كان الحداد يتطلب وقتاً فذلك لأنه يتضمن أيضاً أن نعرف كيف ننسى. ولحسن الحظ فإننا لن نتذكر كل شيء، ولا نفكر باستمرار بأقربائنا الذين غادرونا. ولكي نعيش جيداً معهم يتعين أن نعرف أن ننسى قليلاً: أن نتذكر الأساسي، ونجعله يعيش في أفعالنا، وقيمنا، ونستحضر مشاهد من الماضي، ونغوص فيها مع إحساس بالامتلاء ومُتَعِهِ إذ تبقى هذه اللحظات استثنائية، وتتابع حياتنا مسارها وتثير انتباهنا إلى العديد من التفاصيل المتفاوتة في أهميتها.

وإذا كان النسيان عملية طبيعية، فبإمكاننا مع ذلك مرافقتها، وتسهيلها؛ إذ لدينا هامش تأثير عليها. وكما أنه بإمكاننا إعطاء أحذية الحبيب الذي رحل لأحدهم، أو تغيير السكن للبدء بحياة جديدة، فبإمكاننا أيضاً تنحية بعض الذكريات إلى أعماق ذاكرتنا. وتتمثل إحدى الاستراتيجيات لهذا الغرض في الابتعاد عن المناسبات التي تعاود إثارة ذكرى الفقيد: من قبيل تجنب العشاء في ذاك المطعم الذي اعتدنا العشاء فيه، أو ارتياد مكان العطل الصيفية

التي تحمل آثار تاريخنا، أو تجنب مخالطة بعض الأشخاص الذين يذكروننا بالفقيد بشدة، ولو لبعض الوقت. . . كما يمكننا القيام بفرز كل الصور أو أفلام الفيديو المسجلة على هاتفنا الذكي، فنمحو بعضها كي نحفظ غيرها بشكل جيد، نحتفظ بها في ذاكرة سجلات خارجية بغية العودة السعيدة إليها يوماً ما، مع تحييدها مؤقتاً. إننا هنا بصدد إيجاد المقدار المناسب من النسيان، تبعاً لقول نيتشه: أي ذلك الذي يتيح لنا تحديداً أن نتذكر بشكل أفضل، وأن نستقبل الحياة متحررة من ثقل الماضي. عندها يمكن أن يصبح الغائب ذا حضور طبيعي، فيعيش معنا بدون أن يجتاح عالمنا، بحيث يصبح من الميسور علينا بشكل متزايد أن نفترق عن أشيائه التي تذكّرنا به، كل منا حسب وتيرته الخاصة.

يجب أن ننسى كي نعيش، وحتى أن نعيش مع موتانا: فلكي نحملهم معنا في صلب وجودنا، في إنجازاتنا أو في معاركنا، في أحزاننا كما في أفراحنا، يجب أن لا تطاردنا بدون توقف ذكريات من غابوا، وأن لا نفكر بما كان يمكن أن يقولوه، وما كان يمكن أن يفكروا فيه أو يريدونه، كما يتعين أن لا نعيش في هذا المكان المليء بأشيائهم حيث كل شيء يذكّرنا بغيابهم. أن نعيش مع موتانا لا يعني أن نحجز أنفسنا معهم في ضريح، وإنما أن نجعل ذكراهم تعيش معنا في عالم متحرك، وفي صلب حياتنا الجوانية. وإذا أردنا أن تأتينا أشباحهم أحياناً، فيتعين أن نترك لهم شيئاً من المتنفس، وقليلاً من الحرية.

وفي الواقع، فبعد عدة أشهر، وبدلاً من أخذ هاتفي كي أتصل بفيليب، بدأت أتخيل ماذا كان يمكن أن يجيبني إذا ما عرضت عليه موضوع محاضرتي، وبدأت أجد شيئاً فشيئاً طريقته في النظر إلى الأمور، والجدية البالغة التي يأخذ بها الأسئلة التي أثيرها. ثم حلت عادة جديدة محل القديمة: إذ أتوقف كل يوم إثنين عند المقعد ذاته من بوليفار سان جرمان كي أتبادل وإياه الرأي حول موضوع اليوم. إذ استعدنا موعدنا، وعادتنا. وكان يتعين عليَّ الخروج من ذهول الحداد كي نتمكن من استئناف حوارنا.

وبالطبع فالحداد يكون أقل صعوبة عندما تكون علاقتنا طيبة بالفقيد. ولكن في الحالات النقيضة، يمكننا دوماً محاولة القيام بشيء ما أو قول شيء ما، أو أن نستخلص من هذا الموت درساً في الحياة، أو عبرة، أو تواضعاً، من قبيل تجنب تكرار الأخطاء ذاتها مع من تبقوا على قيد الحياة، أو أن نَعِي نقائصنا وحدودنا.

يؤكد الكاتب والشاعر الفرنسي فرانسوا شانغ قائلاً: «لنا أنا وأنت تبادلٌ من الذهن إلى الذهن يمكن أن يتحول يوماً ما إلى تبادل من الروح إلى الروح، عندما أرحل عن هذه الدنيا، وتعيد أنت التفكير في لقائنا، ويتبقى منه شيء آخر عما أن قلناه». يبقى في الواقع من محادثاتي مع فيليب شيء آخر عما قلناه، وهو هذا الحضور الذي أجده يوم الإثنين على ذلك المقعد والذي بفضله يأخذ عنوان كتاب **العيش مع موتانا** لمؤلفته دلفين هوفيلور أخيراً

كل معناه. فالأشباح ليست بالضرورة تلك الكائنات الشريرة التي تملأ كوابيسنا، بل هي أحياناً ذات قوام جميل، وعطوفة، تأتي كي تنفخ في أذننا الأفكار التي تنقصنا، على مقعد في بوليفار سان جرمان. إنها تقف بجانبنا، وتذكّرنا من أين أتينا، وما هي أحلامنا وآمالنا، وكذلك، وفي اللحظات الحاسمة من وجودنا، تنحني على كتفنا كي تطمئننا من خلال وجودها المحب. ومن خلال هذه الرفقة والمساندة نشعر أن قوى متجددة تولد فينا كي نجابه الحياة.

يكتب فرانسوا شانغ في عمله بعنوان **الأبدية ليست زائدة عن اللزوم** قائلاً: «إن ما يتركه الموتى للأحياء هو بالتأكيد حزنٌ لا يؤاسى، ولكنهم يتركون كذلك قدراً إضافياً من واجب العيش، والقيام بذلك القسط من الحياة الذي تعيّن على الموتى أن يتخلوا عنه، والذي يظل قائماً. تلك هي الطريقة التي يمكن بواسطتها للأحياء أن يضعوا الموتى على طريق الحياة؛ إنها الطريقة التي تتيح لهم أن لا يستسلموا للموت». وأن يستمروا في التقدم، متوشحين بالأسى، ومتزودين بغنى كل ما هم مدينون به لأولئك الذين فقدوهم. إننا نحمل موتانا معنا كما نحمل ماضينا، وذلك من خلال أن نكون نحن ذاتنا، ومن خلال خلق شيء ممّا عشناه، ممّا تركوه لنا.

قبل موت فيليب، لم أكن أقدّر تماماً ما أحدثته فيّ ثلاثون عاماً من الصداقة والتبادل الفكري، ولم أكن أعرف كل ما أدين له

به. إلا أن قصة صداقتنا لم تنته؛ فهي لم تمت مع انتحاره، وإنما هي ببساطة غيرت من شكلها: فعلاقتنا التي كانت برانية إلى حد كبير (حيث كنا نشرب القهوة أو نتناول كأساً معاً، ونشتغل على بعض النصوص مساءً، أو حتى نذهب في عطل معاً...)، أصبحت جوانية. وبدون الحاجة إلى الإيمان بالخالق من أجل ذلك، أحس أن فيليب ما زال حاضراً. وما قد يبدو في عيون البعض مفرطاً في روحانيته، أو حتى ميتافيزيقياً، يبدو لي أنا طبيعياً بكل بساطة، تماماً كما هو طبيعي التئام أحد الجروح. فالموت هو مُكَوِّن أساسي من الحياة. ويتوقف علينا أن نجد كيف نعطيه مكانه في حياتنا. كما يتوقف علينا أن نستمر في كتابة تاريخنا المشترك بعد انقضاء فترة الذهول والإنكار والغضب. وعندها لن يكون موت صديقنا أو قريبنا سوى مجرد فصل من هذا التاريخ، ولن يكون الفصل الأخير بالضرورة. إذ يستمر صدى الكائن الراحل وعلاقتنا به. ويتعين علينا، في لحظات الحداد هذه، وأكثر من أي وقت مضى، أن نجابه تسارع العالم بمعنى الصدى هذا الذي تكلم عنه هارتموت روز، ونقاوم ضغوط العصر الذي يريد جعلنا نعيش الموت ذاته في حالة من التسارع الزمني، حيث لا تتوقف إجراءات الدفن والحداد وطقوسها عن الاختزال المتزايد، مما يدفعنا إلى الانتقال إلى شيء آخر في أسرع وقت ممكن.

وكما يبيّنه لنا الطبيب العقلي كريستوف فوريه في عمله بعنوان **عيش الحداد يوماً بيوم** فإن الحفاظ على علاقتنا الداخلية بالفقيد لا

يمنع مطلقاً أن نستثمر في العالم الخارجي، وإنما على العكس من ذلك تماماً. فبعد وفاة أميلي دو شاتوليه، حارب فولتير للاعتراف بالأطروحات الفكرية لتلك التي عاش معها قصة حب امتدت لسبعة عشر عاماً: وهكذا فلقد أخرج إلى النور جزءاً مما اقتسمه معها في علاقتهما الفكرية. كذلك فإن مونتين يمدد نقاشاته مع صديقه لابويسي بعد موت هذا الأخير، في أعماله بعنوان **مقالات**. ونحن نفعل الشيء ذاته عندما نقدم لضيوفنا وصفة طعام تعلمناها من جدتنا، والتي من خلال تذوّقها نستعيد شيئاً من طفولتنا معها، وكذلك حين نعيش نجاحنا المهني بمثابة طريقة للتعويض عن فشل والدينا اللذين فارقانا الآن، أو حين تكون لنا طريقة خاصة بالحب، وبالاعتقاد الجازم بالحب، والذي نقدر أنه يأتي من أمنا التي غادرتنا مبكرة جداً، وأن ذلك يمثل بالنسبة إلينا نوعاً من الميراث والوفاء. فأن ننجح في أن نجعل تلك العلاقة الداخلية بأعزائنا الذين غادرونا تترك صداها في العالم الخارجي يدل بالنسبة إلى الطبيب العقلي كريستوف فوريه أن عملية الحداد تأخذ مجراها الطبيعي.

يكرر اليهود في صلواتهم القول «ليكن مباركاً ذاك الذي يحيي الموتى من جديد»، إذ القيامة، مع عودة المسيح، هو وعد معطى للشعب اليهودي. أما بالنسبة إلى الكاثوليك، فإن نبوءة الإنجيل الطيبة المتمثلة بقيامة المسيح فهي تعلن قيامة كل البشر. ليكن مباركاً، ذاك الذي يحيي الموتى من جديد: أوليس هذا ما نفعله

جميعنا، كل على مستواه، عندما نكون أوفياء لذكراهم، وعندما نجعلهم يحيون معنا هنا والآن، في قلب العالم النابض، وقلب أفعالنا، في طريقة طهونا للطعام، وعملنا، وحبنا؟ ألم يمنحنا الإله الأبدي شيئاً من قوته؟ بإمكان هذا الوعي بحتمية الموت أن يساعدنا على تمييز الجوهري، والتثمين الكلي لكل ثانية من وجودنا. وذلك على غرار مقولة تذكر الموت الشهيرة لطائفة من الرهبان المسيحيين والذين يحيون بعضهم بعضاً كل صباح قائلين «تذكّر أنك سوف تموت». وفي هذه الأثناء حاول جهدك أن تصبح كائناً بشرياً أفضل.

*

وإذا كان الوقت الذي يمضي يجبرنا أن نتعايش مع زوال الكائنات العزيزة علينا، إلا أنه يصيبنا كذلك بالعديد من ألوان الحداد الأخرى: من قبيل زوال شبابنا أو مُثلنا العليا، أو ذاك الطفل الذي سبق أن كنّاه، أو قصة حب انتهت، وكذلك بعض الأفكار والآراء التي منحتنا الحياة فرصة لتصويبها... أو بشكل أكثر تجسيداً حتى، بحياتنا الناشطة التي وصلت إلى مرحلة التقاعد، أو بصحتنا عندما أصبح يتعين علينا أن نتعايش مع المرض، أو بيت العائلة الذي اضطررنا أن نبيعه...

فأن لا نعود كما كنا سابقاً، وأن نكون قد تغيرنا، وتقدمنا في السن، لا يعني بحال أن الحوار قد انقطع مع ذاك الذي كنّاه فيما سبق، ولا أننا لم نعد نحمل ماضينا معنا.

وهكذا فإن قصص الحب التي طوينا صفحتها تستمر في تاريخنا الراهن، في السعادة التي نتقاسمها مع شخص جديد أو في تلك الطريقة السعيدة التي نتمشى فيها فرادى، وذلك للسبب البسيط المتمثل في أننا لن نكون الشخص ذاته بدون هذه العلاقات التأسيسية. فهذه الأخيرة قد غذتنا، وأغنتنا وتتيح لنا الآن أن نقدم المزيد، وأن نعطي ذواتنا بشكل أفضل للآخر. ومن المحتمل لأن هذه القصص الماضية قد غمرتنا فإن بإمكاننا الآن تذوّق مسرات الوحدة. وعلى كل حال، فمن خلال عمل حداد الأمس فإننا نستطيع أن ننطلق في الحاضر: إذ يتعين أن نتقبل نهاية ما كان والعثور على كيفية استمراره في التاريخ الذي نكتبه. وبهذا المعنى يمكن فهم تعبير «عمل حدادنا»: أي «عمل» شيء مما لم يعد موجوداً.

تمتّ الطاقة الجميلة الملتهبة لشبابنا هي بدورها إلى الماضي، تلك الصحة العامرة التي كانت تجعلنا نعتقد أن كل شيء ممكن قد ذبلت وخمدت، فنحن نشيخ. ولكن إذا كانت الحياة قد حملت لنا متاعبها، وخيباتها أو أمراضها، فإنها قد علمتنا أيضاً دروسها في الحكمة. وكذلك، ففي رفضنا للظلم، وفي رغبتنا الجامحة في عالم أفضل، وفي قتالنا أو ميولنا اللذوية، فإننا نجد تلك الحيوية، وذلك التعطش للعيش في ريعان الشباب. ففي تلك اللحظات من الحيوية الجمة المستعادة، فإننا نقوم بالحداد على شبابنا المنقضي. نحن لا نبحث عن إعادة الارتباط مع شبابنا بقدر ما ننشط في الحاضر مع حمل أصداء ما كان من شبابنا، وأن نمدد بقدر

المستطاع تاريخنا مع ماضينا في طريقة عيشنا الراهنة، أو أن نتذكره ببساطة بالطبع. وذلك كما نفعله مع موتانا.

يكتب برغسون في عمله بعنوان **التطور الخلاق** قائلاً: «الطريق الذي نعبره في الزمن مزروع ببقايا كل ما بدأنا أن نكونه، وكل ما أمكننا أن نصيره».

كل قرار نتخذه، وكل درب نسكله يبعدنا عن العديد من الإمكانات الأخرى التي كان بإمكاننا تفعيلها؛ إذ نترك خلفنا العديد من الإمكانات التي لن نعرف أبداً ماذا كان يمكن أن تحمل لنا. ومع ذلك، فنحن لا نترك هذه المخططات، وهذه الوعود خلفنا ببساطة. إنها تعيش فينا، حاضرة بشكل خفي فيما سنكون عليه. فالطفل الذي يحلم بحياة ملؤها المغامرات، وتلك الدراسات التي تخلينا عنها في النهاية، وتلك المهن الأولى التي تركناها من أجل أخرى غيرها، وقصص الحب تلك التي كان يمكن أن تحدث، وتلك اللقاءات الواعدة التي لم نعرف كيف نحافظ عليها، وتلك المشاريع التي لم نتابعها... فكل ما لم يكن قد ترك مجالاً لشيء آخر، وأسهم ولو سلبياً، في أن يجعل منا ذلك الشخص الذي نحن عليه. ومن خلال اصطحابنا، بدون ندم، لهذه الأطياف بدون وجه، فإننا نجعلها تعيش قليلاً: إذ إن كل إنجازاتنا هي أيضاً إنجازاتها.

ولكي تكون لنا حياة عامرة، يتعين علينا أن نتقدم مع كل ما لم

يعد قائماً، أو لم يكن، والذي نحمله فينا، ونأخذه معنا. وذلك على غرار فنان مبدع يملؤه الفضول ويتمتع بالصبر: إذ يبحث عن الشكل، وعن الطريقة، وعن اللحظة. ويعرف بالتجربة أن ذلك، آجلاً أم عاجلاً، سوف يعطي شيئاً. إنه يعرف أن كل ما لم يعد قائماً ما زال هناك، يتعين الإمساك به وتحويله. إنه واثق من ذلك، ولديه الوقت، ويملك الذاكرة.

استنتاج

خلال نقاشي مع ميشيل سيريس بضعة شهور قبل وفاته، خطرت في بالي الفكرة بأنني أحب أن أشيخ مثله: ثمان وثمانون عاماً وملكة في الاندهاش تكاد تكون طفلية، فضول حول كل شيء، حول عصره كما حول العالم الذي سيأتي، وتفضيل الشك على اليقين، حتى ولو كان يدافع عن بعض حالات اليقين هذه خلال أكثر من أربعين كتاباً، ولكن مع شيء يقارب الاعتذار، وبدون التخلي أبداً عن هذا الحماس في نبرة الصوت وتلك الابتسامة في العينين، مع حس فكاهة مميز، وبدون أي ادعاء شخصي. إذ كان يسخر بشيء من الطرافة من كل أولئك الذين يفكرون أن «الماضي كان أفضل حالاً». فلا يوجد أي أثر عند هذا العجوز الطروب للحنين إلى الماضي الذي انقضى، كما لا يوجد أي أثر عنده للتصابي: فكيف لهذا الذي انتقد طوال حياته الهويات الثابتة، وأثبت أننا لا «نبقى» أبداً نحن ذاتنا، وأننا في حالة صيرورة دائمة، كيف له أن يريد «البقاء شاباً»؟

ولماذا يشيخ البعض، على غرار هذا الكاتب، في حالة شكٍّ فَرِحٍ وفضول مقيم، بينما يغرق آخرون في المرارة، والانغلاق على

الذات، فيجترون الخيبات ذاتها أو المجد الماضي ذاته ويحاصرون الآخرين بالتكرار الممل لكلامهم؟

يكتب مونتين في **مقالاته** أن «الشيخوخة تترك تجاعيدَ في الفكر أكثر ما تتركه في الوجه؛ ولا تصادف أبداً أنفساً، أو نادراً ما تصادف، لا تشعر وهي تشيخ بالمر والعفن».

وإذا كان الكثيرون يشيخون هكذا بشكل سيّئ، فذلك لأنهم يعيشون في ماضيهم، وليس مع ماضيهم. والإغراء في الواقع كبير بأن نعيش في الماضي طالما أن تدني قوانا الحية يمكن أن يصبح صعب الاحتمال. إذ تتربص بنا الأمراض العصبية التي تذهب في اتجاه التدهور، كما يزداد خطر العزلة ويقلقنا اقتراب الموت. ليس من السهل أن نشيخ جيداً! إلا أن هذه الشيخوخة «المُرَّة والعفنة» التي يتكلم عنها مونتين ليست قدراً محتوماً. إذ بإمكاننا أن نشيخ جيداً، وحتى يمكن للشيخوخة أن تصبح واحدة من أجمل مغامرات حياتنا، والدرب التي تؤدي إليها هي تلك التي حاولنا أن نرسمها خلال كل تفكيرنا: إذ كلما عشنا بشكل أفضل مع ماضينا، مع الحفاظ على المسافة الملائمة، وفي حوار مفتوح معه، كانت شيخوختنا أفضل حالاً.

فإذا هم تمتعوا بمذاق ما سبق لهم أن كانوه في ذلك «الورم الكياني» الذي سخر منه سارتر كثيراً، وإذا هم لجأوا إلى الماضي بمثابة البلد الوحيد الذي يستحق العيش فيه، أو أنهم لم يتوصلوا إلى تجاوز غبن فشلهم الوجودي المزعوم وغرقوا في مشاعر

المرارة، فهذا يدل على أنهم لم يعرفوا كيف يقيمون علاقة سليمة ومعافاة مع ماضيهم.

فذاك العجوز المنتفخ تكبراً وعجرفة وذلك الذي يعيش في وضعية الضحية يتشابهان أكثر بكثير مما يظنان: إذ يشغل ماضيهم حيزاً كبيراً جداً من حياتهم. فالأول يدّعي ويتباهى، والآخر يندب حظه، ولكن ولا واحد منهما يتوصل إلى حب الحاضر، ومن باب أولى أن ينطلق في مشاريع، سواء لذاته أم لأقاربه، أو للأجيال القادمة كما فعل ميشيل سيريس في تلك المعركة البيئية التي كان رائدها في كتاباته الأخيرة. أما بالنسبة إلى أولئك الذين ادعوا طوال حياتهم أنهم يتقدمون بدون الالتفات إلى الوراء، فإنهم يتعرضون لخطر سوء العيش، وفي أن يكونوا أقل ثقة في خطواتهم وغالباً ما يتعثرون، أو أن يروا أنفسهم مطاردين من قِبل أشباح لم يستطيعوا ترويضها.

وفي المقابل فهناك علاقة أخرى ممكنة بالماضي، أكثر إبداعاً، وعذوبة، وسكينة. فأن نشيخ جيداً هو فن نبدأ في تطبيقه في سن الشباب. ولقد بيّنا إلى أي مدى يمكن لعلاقتنا بماضينا أن تكون مرنة: فماضينا لا يسجننا في جوهر ولا في هوية محددة، ولا حتى في انفعال. إذ نستطيع إعادة تأويله، وزيارته من جديد، وحتى تغيير شكله، وذلك بالعودة ثانية إلى ذكرياتنا السيئة ومحاولة عيشها بشكل مختلف، والغوص بمتعة في أفراح الأمس وإعادة فتح مجال إدراكنا بفضل بقايا ذكرياتنا. ففي كل فترة من حياتنا، وشريطة أن

نرفض كل تجنب وإنكار، يمكننا استرجاع ماضينا بطريقة خلّاقة، وتحويل موروث لم نختره إلى أساس لحريتنا، وفهم ماذا كوَّنَ ماضينا منا وتقرير عمل شيء جديد منه. وذلك بمقدار ما تمكنا من معرفة كيف نخرج من التمحور حول ذاتنا، وننفتح على الآخرين وعلى العالم. وبإمكاننا الاستناد إلى ماضينا بدون أن نأخذ منه كل شيء بالضرورة؛ كما يتعين أحياناً أن نعرف كيف نتخفف من أثقال الماضي أيضاً وننسى، كي نستمر في التقدم.

ومن خلال التمكن من العيش هكذا مع ماضينا، ومن السفر إلى بلاد الأمس كي نعود منها وقد تغيرنا واغتنينا بما أخذناه منها كما بما تركناه فيها، سوف نستطيع أن نشيخ في الآن عينه بمثابة أبيقوريين [أصحاب مذهب اللذة] - مقدرين أن ما كان كان بإمكانه ألا يكون فنستمتع به، مترقبين فرص الحاضر دوماً وقطاف ما يحمله لنا يومنا - وكذلك بمثابة رواقيين - متقبلين كون كل شيء لا يتوقف علينا، وأننا لا نتحكّم بكل شيء، وإنما نحن نملك القدرة على النظر إلى الأسوأ وجهاً لوجه وأن نتحمله.

من خلال العودة إلى ماضينا، وتأويل المؤشرات التي يحملها، وإصاخة السمع لما لديه كي يقوله لنا، ومن خلال تذكّر تلك اللحظات التي أرغمتنا عليها الظروف، وتلك التي بدت لنا فيها الأشياء أكثر سهولة، وحيث بدا لنا أننا بتنا أخيراً في حالة توافق مع حياتنا، نتعلم من كل ذلك أن نعرف أنفسنا ونقترب من الجوهري، أي مما يهم بالنسبة إلينا، ومما يجعلنا فعلاً في حالة

فرح وعلى وفاق مع العالم. نكتشف هذه السعادة حينها في طريقة عملنا أو في الاعتناء بالآخرين، وفي حياة مكرسة للجمال أو للعطاء، وللروحانية، والحب، والصداقة. . . كيف يمكن أن نأمل أن نكون سعداء إذا نحن لم نحدد هذا الجوهري ولم نحاول أن نكون على وفاق معه، ولو جزئياً؟

وهكذا فهذا الحوار المتأني والخلاق مع ماضينا يشكل طريقة لأن نشيخ جيداً، سواء في عمر التسعين عاماً، أو الستين أو حتى الثلاثين. ففي الواقع وطوال مسار حياتنا، يتزايد حجم ماضينا في كل خطوة نخطوها إلى الأمام كي يدفعنا بشكل أفضل نحو المستقبل. وينطبق هذا الأمر على مفاصلنا كما على طرائقنا في التَفَكُّر: إذ كلما كنا أكثر مرونة، تقدمنا في السن بشكل أفضل. ويتعين عليَّ أن أعترف بأنني عندما بدأت العمل على هذا الكتاب، ومن خلال الغوص في الفلسفة البرغسونية حول الذاكرة وفي أعمال علماء علم الأعصاب، لم يخطر لي للحظة أنني سأكتب طريقة كي تحمينا مما يهددنا جميعاً، مؤلَّفاً صغيراً يحول دون أن نصبح عجزة أغبياء.

ماضينا حاضر هنا، وفي كل لحظة. إنه ما يفتح شهيتنا على كل شيء، على هذه اللحظة الراهنة فائقة القوة والتعقيد، كما على هذا المشروع المستقبلي، فائق الطموح والتماسك. إنه يحملنا كمثل موجة تكبر باستمرار، والتي يتعين في البدء ملاحظتها، وتعلم التعرف عليها قبل أن نطمح إلى ركوبها بواسطة لوحة ركوب الأمواج.

ماضينا حاضر هنا، ولكنه لا يجب أن يحتل كل المكان. ولأجل هذا، يتعين أن نلتفت إليه في الآن عينه الذي ننظر فيه نحو المستقبل، ونحو الآخرين والعالم. ولكي نحسن العيش مع ماضينا، وذلك في كل مرحلة من مراحل حياتنا، يتعين علينا أن نوافِق ما بين حركات ثلاث.

حركة أولى متوجهة نحو الماضي، وهي حركة استقبال وإعادة كتابة في آن واحد. فالماضي هو في الآن عينه دعوة للسفر ومادة لإعادة التشكيل بغية فهم ما ورثناه، وكيف يتعين استيعابه وتملكه.

وحركة ثانية نحو المستقبل، وهي حركة فعل. وتُنجَز من خلال استعادة ماضينا بطريقة خلاقة من خلال عيش تجارب جديدة ومن خلال تخزين ذكريات جديدة في آن واحد. كما يتعين أيضاً تقبّل وقت الترسب والتراكم: فنحن لا نختار على الدوام اللحظة التي ننجح فيها بتحويل ما سبق أن كان إلى شيء جديد، حيث يمكن لطريقة وراثتنا أن تصنع منا مؤسسين لحالات جديدة.

وحركة ثالثة نحو العالم ونحو الآخرين، إنها حركة انفتاح تيسر العبور من الحركة الأولى إلى الثانية، إذ في الواقع ليس هناك أفضل بغية إعادة وضع الماضي في مكانه الصحيح ومقاومة إغراء التكرار الممل، ولكي نغير الاستقبال إلى فعل، من الخروج عن التمحور حول الذات بغية الاهتمام بالآخرين وبالعالم.

إننا إذاً بصدد حركات ثلاث: الالتفات إلى الماضي، وإلى المستقبل، وإلى الآخرين والعالم.

ولكن حين نؤكد ذلك، من الممكن أن نبدو «مفكرين» مفرطين. إذ من خلال تفكيرنا نحن نحلل، ونُفَكِّك، ونَفْصِل إلى حركات ثلاث هذه الطريقة في عيش ماضينا. إلّا أن الحياة تقوم بتوليف العناصر معاً. فما يبدو أنه يتتابع هو في الواقع متآنٍ وهذه الحركات الثلاث، وهذه الإيماءات الثلاث لا تعدو كونها سوى حركة واحدة: أي الانطلاق إلى الأمام.

شكر وتقدير

ما كان لهذا الكتاب أن يوجد بدون بعض اللقاءات، وأوجه التعاون أو الصداقات. فهو ببساطة ليس عملي وحدي؛ وإنما هو عملكم كذلك.

الشكر بادئ ذي بدء لأميلي دو بويل لأنها جعلتني أكتشف الأعمال النفسية لكل من جيفري يونغ، وبروس إيكر، أو روس هاريس، وبيير كوزينو، وصوفي كوتيه أو جان-لويس مونستيس. . . واقتضى ذلك تبادل أفكارنا الحامية، والمضطربة أحياناً، وكذلك محاضراتنا الثنائية كي أنجز شيئاً فشيئاً التبدل الخطير الذي اجتزته: إذ أصبح الفيلسوف الفرويدي-اللاكاني أكثر رقة ولطفاً، حيث أخذ يناضل اليوم من أجل مقاربة تكاملية لمختلف مدارس العلاج النفسي. . .

الشكر موصول لليونيل نقاش الذي أوضح لي العمل الوظيفي للخمس وثمانين مليار خلية عصبية (أو ستة وثمانين ملياراً، إذ لا زال الأمر موضع نقاش. . .)، والشكر كذلك لتلك الذكرى الجميلة

لتناولنا القهوة معاً في فناء معهد العقل المشمس. فذكرياتنا ليست في أحسن الأحوال سوى **مؤشرات**: لقد توضح لي ذلك في هذا الفناء.

الشكر كذلك لألبير مخيبر على نقاشاتنا حول أعمال إليزابيث لوفتوس عن الذكريات الزائفة أو عن موقعية الذاكرات في العلوم العصبية. إذ أعتقد أن هذه الذكرى واقعية حقاً؛ إذ تثبت أنه من الممكن الكلام بشكل بسيط عن أمور معقدة.

وشكراً لستيفان تيبيرج على إنسانيته وعلى أخلاقيات التحليل النفسي المهنية.

والشكر لفنسان تريبو لأنه بيّن لي تنوع العروضات العلاجية الراهنة، وعلى خلافنا الخصب حول إمكانية وصول الكلمات إلى المنطقة الحوفية من دماغنا.

الشكر لميشكا آساياس لأنه فهم، ولو متأخراً، أنه لم يكن بإمكاني الانتظار طويلاً: إذ تعين عليَّ أن أعرف ما إذا كان بوي قد ألّف أغاني حول طفولته الصعبة أم لا.

والشكر لفابيان غالتييه لدعوتي للكلام في الفلسفة مع لاعبي فرقة فرنسا للروغبي والسماح لي بحضور تدريبهم: إذ إن جمال

التمريرات الخلفية بينت لي أنه بالإمكان التقدم إلى الأمام من خلال الاستدارة إلى الوراء. . .

شكراً لستيفان ديزا لقراءاته المتأنية وحسه الإيقاعي البروستي.

شكراً لكل فريق منشورات آلاري: لقد تابعتموني إلى الآن على مدى خمسة كتب: وإنها لسعادة متجددة يومياً أن أعمل معكم.

شكراً لآشيل دو جنستو على أسئلته سقراطية الطابع، وعلى نقاشاتنا حول **مذكرات من وراء القبور** لشاتوبريان، **وأبنائهم من بعدهم** لنيكولا ماتيو أو للتمريرة الخلفية في لعبة الروغبي. وليس من المستحيل أن تكون أطروحة هذا الكتاب قد بدأت ترى النور خلال تلك النقاشات.

وشكراً لغيوم آلاري، ناشري منذ ما يقرب من الثلاثة عقود، وصديقي منذ ما يزيد عن ذلك، لكل من ثقته ودقة متطلباته. فالحياة قليلاً ما تقدم أفراحاً بروعة صداقة كهذه.



شارل بيبان

العيش مع ماضينا

«كيف نستوعب هذا الماضي الذي نحمله فنبني على إنجازاته وإيجابياته، ونعالج معوقاته وسلبياته في العيش المليء في الحاضر، وصناعة المستقبل؟

تلك هي أطروحة هذا الكتاب. ويعرضها المؤلِّف بشكل مشوّق من خلال أخذنا في رحلة غنية في كل من الفلسفة والأدب والرواية، والعلوم المعرفية العصبية الرائدة، وبعض فنيات العلاج النفسي لجروحات الماضي وصدماته. فالعيش مع ماضينا يعني استيعابه والاغتناء بدروس خيباته. وهو ما يختلف كلياً عن العيش في الماضي هروباً من الحاضر والمستقبل.

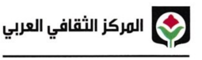
قراءة هذا العمل فائق التنوع والغنى في تناول موضوعه، إضافة إلى جاذبية أسلوبه سوف يحمل المتعة والفائدة للقارئ، ويفتح أمامه آفاقاً جديدة».

الدكتور مصطفى حجازي



شارل بيبان هو مؤهل في الفلسفة، ومؤلِّف عدة كتب من الأكثر مبيعاً من قبيل: **فضائل الفشل، الثقة بالنفس، اللقاء**، تُرجمت في أكثر من عشرين بلداً. وتماشياً مع هذه الأعمال التي تشجع الانفتاح على الآخرين وعلى العالم للاغتناء من تفاعلنا معهما، يبيّن لنا شارل بيبان في كتابه الجديد هذا أنه بإمكاننا أن نقيم علاقة حرة وخلاقة مع موروثنا، إذ تتوقف سعادتنا على قدرتنا على حسن العيش مع ماضينا، وتعطينا هذه الدراسة النيّرة مفاتيح الوصول إلى ذلك.





الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com